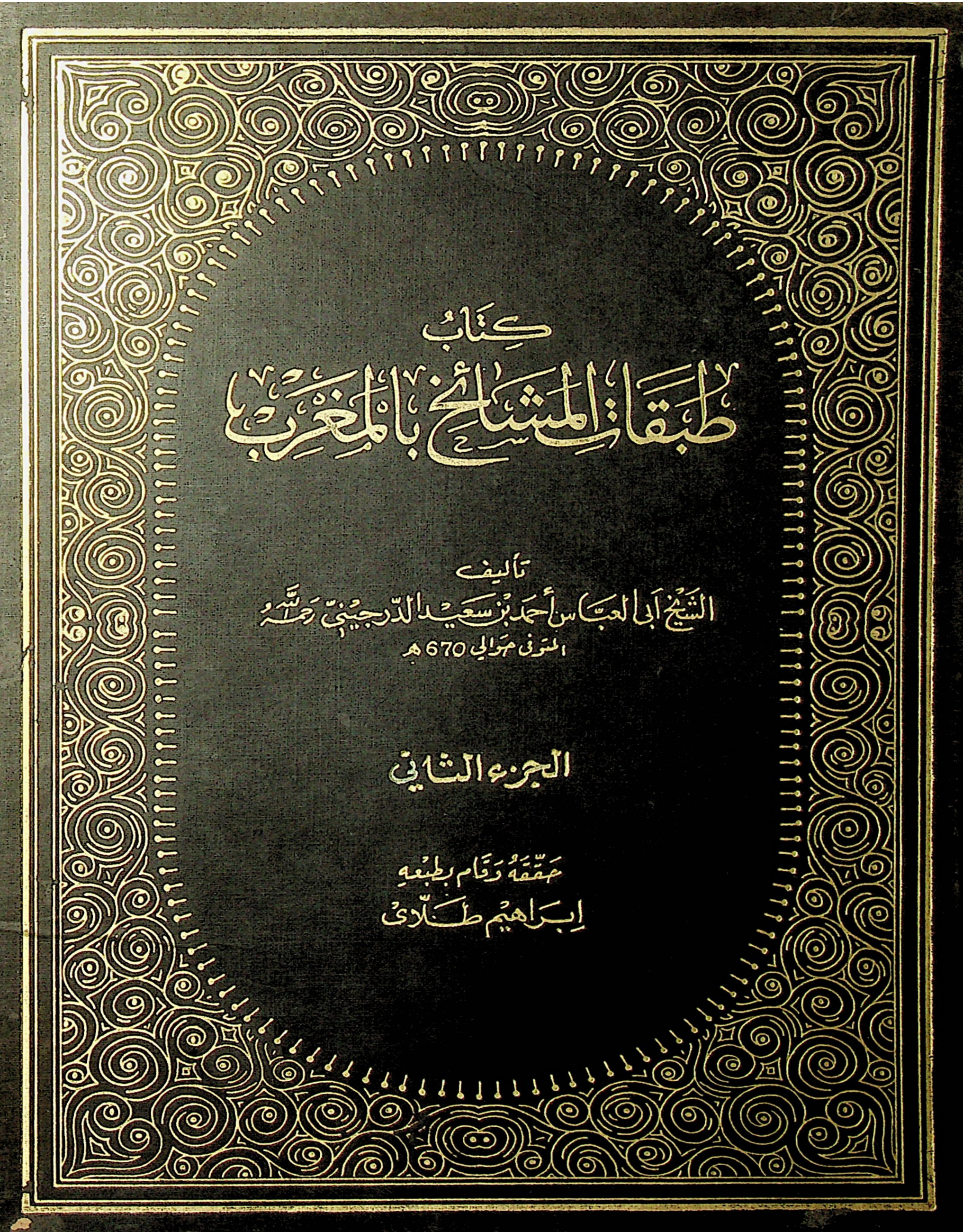

كتاب
طبقات المشائخ بالمغرب
تأليف
الشيخ ابى العباس أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله
المتوفى حوالي 670 هـ
الجزء الثاني
حققه وقام بطبعه
إبراهيم طلاي

كتاب



تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني رحمه الله
المتوفى حوالى 670 هـ

الجزء الثاني

حققه وقام بطبعه

إبراهيم طلاي



ذكر طبقات المشائخ
جيلا بعد جيل وسيرهم ومناقبهم رحمهم الله

الطبقة الأولى

قد قدمنا فى الجزء الاول ان الطبقة الاولى هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وان فضيلتهم أشهر ، ومزاياهم واسماءهم أظهر من أن تحتاج الى تسميتهم ، فاقول الآن : ان الصحابة رضوان الله عليهم تحصل من سيرهم واخبارهم فى الدواوين ، ومن آثارهم محفوظا فى صدور الراوين ، ما أغنى عن تكلف تصنيف وانتحال تأليف ، وحسبهم ان قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يشقى من رآني » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « افضل امتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» ، وأحاديث كثيرة من فضائلهم ، فاذا ثبت هذا فاعلم ان من الصحابة من لا يخالفنا فى تقدمهم مخالف ، فقد امتلأت بذكر فضائلهم الصحائف ، ومنهم من لم ينل حظا من الانصاف ، عند كثير من أهل الخلاف ، وهم معدودون عندنا فى جملة أخيار الاسلاف ، فلنذكر منهم من امكن ذكره ، ووجب علينا وان عاب الغير شكره .

عبد الله بن وهب الراسبى

فمنهم عبد الله بن وهب الراسيبى الازدى العمانى

رحمه الله ، لما كان من أمر الحكمين ما كان ، ونجاة من نجي من تلك المحن والافتتان ، وانحياز من انحاز من الفريقين ، وتبين الاعتدال والعدل ، عن كلا الطريقين ، ارادوا تولية رجل منهم يعتمدون عليه في أمورهم،ويطبق على طاعته رأى جمهورهم ، فعزموا على تولية عبد الله بن وهب . فتكره ذلك وأباه ، فلم يريدوا غيره ولم يرضوا سواه ، فلما رأى ذلك منهم قال : يا قوم استبيتوا الرأي - أي دعوه يغيب ، وتأتي عليه ليلة ، فندبر عواقبه ، وكان يقول نعوذ بالله من الرأى الدبرى . فبايعوه وكان ذا رأي وحزم ، ودين وعلم . وقع به الائتلاف وارتفع في ايامه الاختلاف ، فلم يزل يقول بالحق ، ويحكم بالعدل ، ويلطف بالرعية ويقسم بالسوية ، حتى قبض رحمة الله عليه .

حرقوص بن زهير السعدى

ومنهم حرقوص بن زهير السعدى . كان حرقوص من أهل النسك والعبادة والتقشف والزهادة ، وكان ذا نجدة وبأس وشدة ، وكان أحد أمراء الاجناد في أيام عمر رضى الله عنه ، وهو الذى فتح الاهواز في أيام عمر ، وكان له هناك آراء سديدة وآثار حميدة ، وشكره عمر رحمه الله واستحسن ما كان منه حينئذ فانه صبر وصابر ، حتى أظفره الله تعالى ، واطلب ذلك في اخبار فتوح العراق تجده ، وكان حرقوص ممن شهد صفين ، وابى تحكم الحكمين،وكان في اصحابه حتى قتل رحمه الله. وحرقوص هذا هو الذى ينتحل (1) احاديث لا يبعد ان تكون مصنوعة فان فيها ما يدل على سقمها لتناقض مثبوتها ، ولكن أكثرها منتحل، ورواها على طرق ، فمنها ما نسب اليه انه قال

الاحاديث المنتحلة فيه . والرد عليها

(1) كذا في النسخ لعل الصواب هو الذى ينتحل عيرنا فيه احاديث .

لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم غنائم خيبر (ما عدلت منذ اليوم) فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : ألا اقتله يا رسول الله ؟ فقال انه يكون لهذا أو لاصحابه نبأ ، ومنها ما نسب اليه انه لما قال ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ويحك فمن يعدل ان لم اعدل ؟ . ثم قال لاصحابه واحدا بعد واحد : أيكم يقتله ؟ فقال له الاول وجدته راكعا وقال الثانى وجدته ساجدا ، وقال الثالث لم أجده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو قتل هذا ما اختلف في الله اثنان ،ومنها انه قال وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مالا ورد عليه بين أربعة من المؤلفة قلوبهم ، فزعموا انه قال : لقد رأيت قسمة لا أريد بها وجه الله ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تورد خداه ، ثم قال : أمنني الله على أهل الارض ولا تأمنني ؟ ! ! فقام عليه عمر رحمه الله ، فقال : ألا اقتله يا رسول الله ؟ فقال سيكون من ضئضىء (١) هذا أقوام تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم يمرقون من الدين ــ الى قوله ــ وتتمارى في الفوق . ففى هذه الاخبار دلائل على سقمها من أوجه كثيرة ، أحدها انه لو صح عنه انه غير عدل اذ قال ما عدلت منذ اليوم ما آمن ولا اقام على دينه ولا صلى الى قبلته ، الثانى لو صح عنه صلى الله عليه وسلم انه خاض بالطعن في النبوءة لما اهمله ، ولكان هو المبتدر الى قتله ولم يكله الى غيره ، الثالث انه لو صح ذلك عند عمر رضى الله عنه وانه من المأمورين بقتله . واعلمه انه مارق من الدين فكيف يستعين به على الجهاد ، وهو اعظم

(١) ضئضىء الشىء أصله . ومعدنه . ونسله الكثير .

اركان الدين ، فيجعله اميرا على جنوده المؤمنين ، وظهيرا على قتال الكافرين ، الرابع انه لو صح عند اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم !نه قال ذلك وانهم مأمورون بقتله لم يتراخوا فى قتله ، بل يجعلونه أوكد فرائضهم ، فكيف تسامحوا حتى خرج ثم لم يكترثوا به ، الخامس انه صلى الله عليه وسلم منزه عن ان ينتسب الى كلامه الغلو والمجازفة ، حتى يقول لو قتل هذا ما اختلف فى الله اثنان فيلزم على هذا ان تكون حياة حرقوص سببا لكفر اليهود والنصارى ، والصابين والمجوس، وعبدة الاوثان، والمعطلة والزنادقة وغيرهم،وهذا من المحال الذى ينكره الحس ويأباه العقل ويقوى الدليل على بطلانه ، اذ لو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا ، وحرقوص حيا ولو شاء لضلوا جميعا قبل وجود حرقوص وبعد موته ، لكنهم « لا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » فقد اتفقوا واختلفوا ، وبينهم من هو خير من حرقوص وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما اتفقوا واختلفوا وفيهم شر منه وهو ابو جهل ، لعنه الله ، فهذا يبعد ان يكون من كلام من لا ينطق عن الهوى ، السادس انه قد شهد من ضئضه من حرق القرآن قلبه ، وصدع كبده فضلا عن مجاوزة الحنجرة وشوهد من مخاليفهم من لا يصل لسانه فضلا عن الحنجرة ، أعنى فى العمل به والامتثال لاوامره ، والانتهاء عن مناهيه ، السابع ، ذكر المروق . فرأيك أعلم بالمارق . وباللص السارق ، وقد حقق كثير منهم ممن عامل بالانصاف ان القوم انما قاتلوا هروبا من اتباع الهوى واطراحا لزهرة الحياة الدنيا ورغبة فيما يرجونه عند الله فى الدار الآخرة ، وفيها أدلة كثيرة غير ما ذكرناه ، فحرقوص مبرأ مما قالوه ، ومما اليه نسبوا .

« الطبقة الثانية » 50 ـ 100 هـ

جابـر بن زيـد الازدى

منهم جابر بن زيد الازدى رحمه الله . بحر العلـــوم العجاج (I) ، وسراج التقوى ، ناهيك به من سراج ، أصل المذهب وأسّه الذى قام عليه نظامه ، ومنار الدين ومـــن انتصبت به أعلامه ، صاحب ابن عباس رضى الله عنــه ، وكان امهر من صحبه ، وقرأ عليه ، والمقدم ممن يشار فى الفتيى اليه ، ذكر ابو طالب المكي في كتاب قوت القلوب ، قال ابن عباس رحمه الله : اسألوا جابر بن زيد فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه ، وعن اياس بن معاوية قال : لقد رأيت البصرة وما بها مفت غير جابر بن زيـد وعن الحصين بن حيال انه قال : لما مات جابر بن زيد بلـــغ موته انس بن مالك فقال : مات اعلم من على ظهر الارض أو قال مات خير أهل الارض ، وعن ابن عباس أيضا انه قال : جابر بن زيد اعلم الناس،وعنه انه كان يقول عجبا لاهل العراق كيف يحتاجون الينا وعندهم جابر بن زيـد ، لو قصدوا نحوه لوسعهم علمه ، وله آثار كثيرة مذكورة ، وكرامات ، ومقامات فى العلم تعلــو المقامات سيأتى ما امكن . ان شاء الله .

(I) البحر او النهر العجاج بالمبالغة الدى تسمع له عجيجا اى دويا عظيما .

جابر بن زيد يدعو الناس للاعتبار

فمن ذلك ما ذكر ابو سفيان (ɪ) قال : أصاب الناس على عهد جابر بن زيد ظلمة وريح ، ورعد ، ففزعوا الى المساجد ، قال فخرج ابو الشعثاء الى بعض المساجد فجلس فيه يذكر الله ، والناس في تضرع وضجة ، قال فلما انجلت تلك الريح وتلك الظلمة أخذ الناس ينصرفون الى اسواقهم ومنازلهم ، قال فدعا قوما كانوا قريبا منه فقال لهم ما كنتم تظنون هذا الامر ؟ قالوا خفنا ان تكون القيامة قد قامت قال انما خفتم طي الدنيا والافضاء الى الآخرة ، قالوا نعم قال لقد خفتم امرا عظيما فحق عليكم ان تخافوه ، ثم قال اين تذهبون الآن ؟ قالوا الى منازلنا قال لقد خفتم امرا عظيما ففزعتم الى الدعاء ، ولو جاء ما خفتم لم يغن عنكم ما كنتم فيه شيئا ، فالآن اذ رد الله عليكم دنياكم فاعملوا حين قبول العمل واما ما كنتم فيه فلو كان الامر ما خفتموه لم يغن عنكم دعاؤكم من الله شيئا .

وذكر أبو سفيان : ان جابر بن زيد دخل المسجد الحرام فاذا برجل من الحجاج يصلي على ظهر الكعبة ، قال ، فقال جابر بن زيد من المصلي ؟ لا قبلة له ، قال ، وكان ابن عباس في ناحية المسجد ، فسمع قوله أو اخبر به ، فقال ان كان جابر في شيء من البلد فهذا القول منه ، قال ، فنظر فاذا هو جابر بن زيد .

جابر بن زيد يسأل عائشة ويستفيتها

وقال ابو سفيان ان جابر بن زيد وابا بلال دخلا على عائشة رضى الله عنها ، فعاتباها على ما كان منها يوم الجمل قال فاستغفرت الله تعالى ، وتابت مما كانت قد دخلت فيه ، وقال ابو سفيان دخل جابر بن زيد على عائشة رضى الله عنها فاقبل يسألها مسائل لم يسألها أحد عنها حتى سألها عن

جماع النبىء صلى الله عليه وسلم ، كيف كان يفعل ، وان جبينه يتصبب عرقا ، وهى تقول سل يا بنى ، ثم قالت له ممن انت؟قال من أهل المشرق من عمان ، قال ابو سفيان فذكرت شيئا له لم احفظه الا انى اظنها قالت : النبىء صلى الله عليه وسلم ، قال : ليكثرن وراد حوضى من أهل عمان. أو شبه هذا .

جابر يتمنى لقاء الحسن البصرى قبل ان يموت

ولما حضرت جابر بن زيد الوفاة اتاه ثابت البنانى وقال يا ابا الشعثاء ، هل تشتهى شيئا ؟ قال انى لا اشتهى الا ان ألقى الحسن قبل ان أموت ، قال فخرج ثابت البنانى فدخل على الحسن فأعلمه بقول جابر بن زيد قال وكان الحسن اذ ذاك مستخفيا ، فقال : كيف لى بذلك ؟ قال اركب بغلتى على السرج وأنا اردف خلفك ، وأعطيك طيلسانى وارجو ان لا يعرض لنا . قال ففعل ، ودخل على أبى الشعثاء وهو مضطجع فانكب عليه الحسن وهو يقول : يا ابا الشعثاء قل لا اله الا الله فرفع جابر عينيه ، فقال : أعوذ بالله من غدو ورواح الى النار ، فقال له الحسن يا ابا الشعثاء ، قل لا اله الا الله . قال : فقال أعوذ بالله من غدو ورواح الى النار ، ثم قال يا ابا سعيد « يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى ايمانها خيرا » قال فقال الحسن هذا والله الفقيه العالم ، ثم قال يا ابا سعيد حدثنى بحديث ترويه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى المؤمن اذا حضرته الوفاة . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان المؤمن اذا حضرته الوفاة وجد على كبده بردا » فقال جابر الله اكبر ، والله انى لأجد بردا على كبدى .

يعبس لكي لا يذهب الى الحج

قال وكان جابر بن زيد يحج كل سنة ، فلما كان ذات سنة بعث اليه والى البصرة ان لا يبرح العام فان الناس اليه محتاجون ، فقال لا افعل : فحبسه ، فلما كان غرة ذى الحجة جاءه الناس ، فقالوا اصلحك الله قد هل هلال ذى الحجة ، فأرسل اليه واخرجه من السجن . قال فأتى الى داره وله ناقة قد اعدها للخروج فأخذ يشد عليها الرحل ، ويقول : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها . ثم قال : يا آمنة(1) عندك شيء ؟ قالت نعم ، قال فاجعليه في جرابى ، قال فهيئت له زاده، ثم قال من سألك فلا تخبريه بمسيرى يومى هذا ، قال فخرج من ليلته ، قال فانتهى الى عرفات والناس بالموقف ، قال فضربت بجرانها الارض ، وتجلجلت فقال الناس : ذكها يا ابا الشعثاء ، فقال حقيق لناقة رأت هلال ذى الحجة بالبصرة ان تفعل هذا، ثم سلمها الله، قال وكان قد سافر عليها اربعا وعشرين سفرة ، في حجة وعمرة .

جابر يعاجج المستحلين لدماء من خالفهم

وقد بلغنا عن جابر بن زيد ان امرأة كانت له جارية فقالت له يا ابا الشعثاء ان فلانا يخطب الي جاريتى فما ترى ؟ قال : لا تزوجيه ، فانطلقت فعاد اليها الرجل فعادت الى جابر ، وقال لا تزوجيه فانطلقت فعاد اليها الرجل فقال ان لم تزوجيها وقعتها حراما ، فأتت جابرا ، فأعلمته بالذى كان من قول الرجل ، فقال زوجيها الآن فهذا خوف العنت .

وقال : حدث ضمام ان جابر بن زيد كان يلقى الخوارج

(1) في نسخ تذكر باسم : امينة

فيقول : اليس قد احل الله دماء أهل الحرب بدين بعد تحريمها بدين ؟ قال فيقولون بلى . قال : ويقولوا وحرم ولايتهم بدين بعد الامر بها بدين ؟ قال فيقولون بلى . فهل احل ما عدا هذا بدين ؟ قال فيسكتون ولا يجيبونه بشيء . قلت وهؤلاء اصحاب نافع بن الازرق ومن قال بقولهم ، في استحلال اموال المسلمين بدين .

حكم عطاء الجبابرة

وقال : تكلمت نساء من المسلمين بعد جابر في المال الذى تجمعه الجبابرة فقلن انه حرام ، قال ثم افشينه حتى لقين رجلا يقال له ابو الوزير ، فأجابهن الى ذلك ، فقال صدقتن قال وهممن ان يرفعن ذلك الى ضمام وابى عبيدة ، قال فلم يزل بهن حتى لقين أبا حمزة الاشعث فكلمنه فى ذلك فقال لهن أبو حمزة ومن وافقكن على ما تقلن ؟ ، قلن أبو الوزير ،فقال أبو حمزة أو قد بلغ من ضعف أبى الوزير ما أرى ؟ قال ، ثم نهاهن واعظم ذاك عليهن ، فقال أما اذ زعمتن ذلك فانكن تتقدمن على جابر بن زيد وأبى بلال واصحابه ، فانهم ماتوا وهم يأخذون اعطيتهم ، قال وبلغ ذلك ضماما فاشتد فى ذلك واعظم قولهن قال فرجعن واستغفرن الله ، ولم يعدن الى ذكر شيء من ذلك .

قال ولما مات جابر بن زيد أتي قتادة وهو اذ ذاك قد عمي وقال ادنوني من قبره قال فادنوه حتى وضع يده على قبره ثم قال اليوم مات عالم العرب،وقال : لقي جابر امرأة من أهل الدعوة فوقف ساعة يكلمها وتكلمه قال فلما أرادا ان يفترقا قال لها انى احبك ثم افترقا فانطلق غير بعيد ، ففكر في قوله لها انى احبك ، فانصرف اليها وقال فى الله قال فقالت له وما تظن انى حملت ذلك على غير الحب فى الله ؟ أي والله فى الله .

لا نكافيء الاساءة بمثلها

وقال خرجت آمنة زوج جابر الى مكة ذات سنة ، فاقام جابر تلك السنة قال فلما رجعت سألها عن كريها (١) فذكرت منه سوء الصحبة ، ولم تثن عليه بخير ، قال فخرج اليه جابر فادخله الدار فأمر باشتراء لابله علفا ، وعولج له طعام فلما تغدى خرج به الى السوق ، فاشترى له ثوبين فكساهما أياه ، ودفع اليه ما كان مع آمنة من قربة واداة وغير ذلك من آلات السفر ، قال فقالت له آمنة اخبرتك بسوء الصحبة ، ففعلت معه ما أرى قال أفنكافيه بمثل فعله فنكون مثله ؟ لا بل نكافيه بسوء خيرا ، وبالاساءة احسانا .

رأي جابر فى الهرم العاجز عن الصوم

وقال أبو سفيان كانت جدة أبى يقال لها أم الرحيل . والرحيل أبى وبه يسمى ، واسم جدى العنبر وكانت أم الرحيل قد كبرت حتى لم تطق الصيام ، قال فأتى بها ابناها الرحيل والعنبر الى جابر ، فقالا يا ابا الشعثاء ، ان أم الرحيل قد كبرت فلا تطيق الصيام ، قال : وانها لحية بعد ، قالا نعم ، قال : فصوما عنها قال فتنافسا فى ذلك قال وكان الرحيل أكبر من العنبر ، فصام عنها الرحيل ، فلما كان فى العام الثانى أتياه فأعلماه أيضا بحالها ، فقال ما كنت امرتكم به فى العام الاول قال امرتنا ان نصوم عنها ، قال فأطعما عنها فأطعم عنها العنبر .

وقال جاء أبو الحر الى أبى عبيدة ذات سنة قال يا أبا عبيدة اقم للناس بعد الموسم خمسة أيام فامتنع وقال لابى الحر عليك بضمام بن السائب فانه يفعل، قال أو عنده من العلوم ما يكتفى الناس به ؟ قال نعم ، واكثر من ذلك ، قال فأتاه فاقام للناس فاجتمع اليه من حضر الموسم ، فجعلوا يسألونه

(١) الكرى بشد الياء المكارى

عن اشياء كثيرة من مسائل دينهم ، قال فكـــان جوابه ان يقول سألت جابرا ، أو سئل جابر أو سمع جابرا ، أو قال جابر ، قال ابو سفيان وكان ضمام قد حفظ عن جابر ما لم يحفظه عنه ابو عبيدة ولا ابو نوح ولا احد من تلاميذه وقال بعثت هندة بنت المهلب الى جابر جزورا في رمضان فنحرها وعالج جابر للناس طعاما ، فلما غـابت الشمس أتانا بالجفان في المجلس فوضعت للناس وكان مؤذنه يقال له أبو هارون وكان فاضلا ، وقال له يا أبا هارون أرى ان تهبط فتأكل معهم ولا تعجلهم الاقامة ، حتى يتفرغوا من طعامهم .

وقال : اطلع ابو الشعثاء يوما فاذا برجل من الاكارين يبكي ، ويصيح . فقال مالك ويحك ؟ فقـال ان فتيـان دربكم هذا نزعوا مني قنوي نخلٍ جئت بهما الى صـاحب الارض ، فأخاف ان لا يصدقني ، قال فبعث جابر الى رجل من اصحابه له نخل ، فأخذ قنوين فدفعهما اليه .

جابر يتهرب مـن القضـاء

ووفد جابر بن زيد فيما كان يفد فيه الى يزيد بن ابي مسلم كاتب الحجاج ، وكان به خاصا ، قال فأدخله ابـو مسلم على الحجاج فكان فيما كان يسائله ان قال له : أتقرأ ؟ قال نعم ، قال أتفرض ؟ قال نعم ، فعجب الحجاج ، ثم قال ما ينبغي لنا ان نؤثر بك احدا بل نجعلك قاضيا بـين المسلمين ، قال فقال جابر اني اضعف من ذلك ، قال وما مبلغ ضعفك ؟ قال يقع بين المرأة وخادمها شر فلا احسن ان اصلح بينهما ، قال ان هذا لهو الضعف ، ثم قال فهل لك من حاجة؟ قال نعم وما هي؟ قال تعطيني عطائي وترفع عني المكروه ، فقال الحجاج هذا امر لا يستقيم ان اعطيك من بيت مال المسلمين، ولا نستعملك لهم، فقال له يزيد بن

ابى مسلم اصلحك الله ان هاهنا خصلة تخف على الشيخ وفيها عون للمسلمين ، قال وما هي ؟ قال تجعله في اعوان صاحب ديوان البصرة ، قال وذلك، قال فلما خرج من عنده قال له جابر : يا هذا ما صنعت شيئا أترانى ان أكون عونا لصاحب الديوان ؟ قال له يزيد اكتب الى صاحب الديوان ان لا يكلفك مؤونة ، ويعطيك عطاءك كاملا ، قيل وكان عطاؤه سبعمائة أو ستمائة درهم قيل وكان فى ديوان المعاملة .

رأي جابر في القدر

وقال وقع في نفس الحجاج شيء من أمر القدر ، فدعا كاتبه يزيد بن ابى مسلم قال ويحك يا يزيد وقع فى نفسى شيء من القدر ، فهل عندك من فرج ؟ قال سأكتب لك الى رجل بالبصرة عنده من ذلك علم ، قال فكتب الى جابر بن زيد ، اما بعد ، فان الامير وقع فى نفسه شيء من أمر القدر فاكتب اليه بما تفرج به عنه ، قال قل للامير يكثر ترديد خطبته فان فيها بيانا لما سأل عنه ، قال فأعلمه بذلك يزيد ، قال فرددها مرارا كل ذلك لا ينتبه منها بشيء حتى اذا كان بعد ذلك انتبه ، فقال من يهدى الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، فقال يا يزيد ويحك ما اعلم صاحبك !

مما يؤثر عن جابر

وقال خرج جابر بن زيد وهو يريد الجمعة فلما أتى المسجد تلقاه الناس متفرقين ، قال فشق ذلك عليه مشقة عظيمة شديدة وقال اللهم لك علي ان لا اعود ، وقال : استأذن عمارة بن حيان على جابر بن زيد فقال له ارجع ، فلما ذهب قال ردوه فردوه فقال اراك وجدت فى نفسك اما انه ازكى لك اذ رجعت ، وقال دخل العنبر على جابر فى

ليلة صافية مظلمة وآمنة قاعدة الى جانبه فى الدار ، وقال فأخذت عليها صلاتها فحدثها جابر ، وقال : ان الله جعل الليل لباسا ، قال : يقول ان الخمار والمقنعة بالليل يجزيان عن رداء .

وقال قال جابر بن زيد ليس للعالم ان يقول للجاهل أعلم مثل علمي والا قطعت عذرك وليس للجاهل ان يقول للعالم اجهل مثل جهلي والا قطعت عذرك ، فاذا قال العالم ذلك للجاهل قطع الله عذر العالم واذا قال الجاهل ذلك للعالم قطع عذر الجاهل .

وقال مر رجلان من أهل الدعوة على ابى الشعثاء وهو قاعد فى سقيفة باب داره ولم يرياه وهما يتذاكران رجلا فقالا عليه لعنة الله ، فقال أبو الشعثاء لعن الله من لعنتما ، قال فانصرفا حين سمعا كلامه ، فقالا ما رأيناك ولا علمنا بمكانك ثم قالا : يا ابا الشعثاء اتلعن رجلا ولم يثبت عندك أمره ؟ قال وأي شيء اثبت منكما وقد اجمعتما على لعنه ؟ وعن الربيع بن حبيب عن شيخ من أهل البصرة . انه قال دخل جابر على عائشة رحمهما الله فسألها عن مسائل ثم انصرف فقالت عائشة لقد سألني عن مسائل لم يسألني عنها مخلوق قط ، تعنى جابرا . وعن الربيع بن حبيب عن بعضهم قال اتيت جابر بن زيد فى بعض الفتيى مما يبتلى به الناس فما أعلم انى كلمت فقيها ولا عالما ولا أميرا قط أعلم منه ، ولا أعقل منه .

جابر تمنى على الله ثلاثا فحققها له

وعن الحصين عن جابر بن زيد أنه قال : سألت ربى عن ثلاث فأعطانيهن سألت زوجة مؤمنة ، وراحلة صالحة ورزقا حلالا كفافا يوما بيوم، وقال لاصحابه ليس منكم رجل أغنى

مني ، ليس عندي درهم ولا علي دين ، وعن قتادة ان الحجاج أرسل الى جابر بن زيـد يسأله عن الخنثى كيف يـورث ؟ فقال تحبسونني وتستفتونني ! ثم قال يورث من قبل مباله قلت وعلى ذلك العمل .

عبد الله بن أبـاض

ومنهم عبد الله بن أباض المرى التميمى رحمه الله : كان عبد الله بن أباض امام أهل الطريق وجامع الكلمة لما وقع التفريق ، فهو العمدة فى الاعتقادات ، والمبـين لطـرق الاستدلالات والاعتمادات ، والمـؤسس لابنيـة هى مستندات الاسلاف ، والمهدم لما اعتمده أهل الخلاف ، وكان رأس العقد،ورئيس من بالبصرة وغيرها من الامصار والمتقدم فى حلبة الفضل بين أولئك الاخيار ، قعد عـن اللحـاق فاشتراه من غير انكـار ، وقنع بالخمول من غـير قصور ولا اقصار ، وقـلى ما اعتقده ابـن الازرق فى المحمدية (I) ، وعدل عن طريقي البيهسية . والنجدية ، وسلك محجة العدل ، وكان قدوة لاهل الفضل ، فأليـه النسبة اليوم فى العقائد ، معدولا بها عن اسم الولد الى اسم الوالد ، طلبا للتخفيف واختصاص الاشهر ، وذلك فى أللغة معروف لا ينكر ، ولابن أباض فضائل مشهورة فى الآفاق ، وآثار حميدة مخلدة فى بطون الاوراق .

أبـو بلال وعـروة

ابو بلال وعـروة الشاريان

ومنهم ابو بلال مرداس وعروة ابنا أدية رحمهما اللـه بلغـا فى الورع والديانة ، والعلم والصيانة الامد الاقصى

(I) يعنى امة محمد عليه السلام من تحلة دمائهم واموالهم مما يراه غلاة الخوارج ، كالفرق التى ذكرها بعد .

ولكل منهما فضائل لا تحصى ، يعجز عن وصفها كل قائل فلا تكاد تحصى ، ولكل منهما أيام الخروج ، وايام القعود كل موطن مرضي، وكل مقام محمود، من أمر بالطاعة ونهى عن المحارم لا تأخذه لومة لائم ، واما التشمير والتصميم في الدين ، والانفة عن طريق المهادنين ، فذلك عليهما وقف ، لا وهن ولا ضعف يدركهما(2) .

ابو بلال يحذر غيلان الضبى

ثبت عندنا من طريق صحيح ان ابا بلال رحمه الله كان فى المسجد الجامع فسمع زيادا يقول على المنبر . والله لآخذن المحسن منكم بالمسيء والحاضر بالغائب والصحيح بالسقيم ، فقام رحمه الله اليه فقال : قد سمعنا ما قلت أيها الانسان وما هكذا ذكر الله عن نبيئه ابراهيم عليه السلام ، اذ يقول (وابراهيم الذى وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزيه الجزاء الاوفى) وانك تزعم أنك تأخذ المطيع بالعاصى، قيل وفي عقب ذلك اليوم كان خروجه رحمة الله عليه . وروى ان غيلان بن خوشت الضبى سمر ذات ليلة عند ابن زياد ومعه جماعة فذكر أمر أبى بلال وأصحابه فأحنى عليهم غيلان ثم انصرف بعد الليل الى منزله فلقيه ابو بلال فقال له يا غيلان ، قد بلغنى ما كان منك الليلة عند الفاسق من ذكر هؤلاء القوم الذين يشرون انفسهم ، ابتاعوا آخرتهم بدنياهم ، ما يؤمنك ان يلقاك رجل أحرص والله على الموت منك على الحياة فينفذ حصنك برمحه ، فقال غيلان لن يبلغك أنى ذكرتهم بعد الليلة .

اول سيف سل لعروة

وعن غير واحد من اصحاب التواريخ ان أول سيف سل للمحكمة سيف عروة بن أدية وذلك ان الاشعث بن قيس

---

(2) راجع بعض اخبارهما فى كامل المبرد ، ص 190 ج الثالث تحقيق احمد محمد شاكر .

لما جاء بصحيفة دعوة أهل الشام فى صفين الى الحكمين جعل الاشعث يطوف بها فى منازل أهل عسكر العراق من منزل الى منزل ، حتى أتى بنى تميم فسل عروة سيفه وأقبل على الاشعث ، فقال : ما هذه الدنية يا اشعث ؟ وما هذا التحكم ؟ أشرط أوثق من شرط الله ؟ ثم ضربه بالسيف والاشعث مولى فأصاب بالسيف عجز البغلة ، فشبت البغلة فنفرت اليمانية ، وكانوا جل أهل العسكر ، فلما رأى ذلك الاحنف قصد هو وحارثة بن قدامة ومسعود بن فدكيك(1) وشيبة بن ربعى الى الاشعث ، فسألوه الصفح ففعل .

صراحة عروة وتقواه

وذكر المبرد أن عروة لم يزل باقيا مدة من أيام معاوية حتى أتى به زياد ، ومع عروة مولى له فسأل زياد عروة عن أحوال الخلفاء والولاة حتى سأله عن نفسه ، فقال : أولك لزنى وآخرك لدعوى ، وانت بعد عاص لربك ، ثم امر به فضربت عنقه ، ثم دعا مولاه فقال صف لى أموره فقال أأطنب أم اختصر ؟ فقال : اختصر ، فقال ما أتيته بطعام نهارا قط ولا فرشت له فراشا بليل قط ، ومن كامل المبرد قال : وكان مرداس بن حدير أبو بلال (2) أحد بنى ربيعة بن حنظلة يعظمه الخوارج وكان مجتهدا كثير الصواب فى لفظه ، فلقيه غيلان بن خوشت الظبى فقال يا ابا بلال : انى سمعت البارحة الامير عبد الله بن زياد يذكر البلجاء وأحسبها ستوخذ ، فمضى اليها ابو بلال فقال لها ان الله قد وسع عن المومنين فى التقية فاستترى فان هذا المسرف على نفسه الجبار العنيد قد ذكرك فقالت ان يأخذنى فهى

(1) كذا بالنسخ ، وذكره فى الكامل باسم مسعود بن فدكى بن عبد وذكر من بعده باسم : شبث بن الربعى الرياحى راجع الكامل ج الثالث ص 909

(2) هو اسم ابيه واما اضافتهما وهو واخوه الى أدية فهى جدتهما ، كما ذكر ذلك المبرد وتجد نسبهما كاملا عنده .

أشقى به ، فأما انا فما احب أن يعنت انسان بسببي فوجه اليها عبيد الله بن زياد فاوتى بها فقطـع يديها ورجليها ورمى بها في السوق فمر بها ابو بـلال والناس مجتمعون وقال ما هذا فقالوا البلجاء فعرج اليهـا ثم عض لحيته ، فقال لنفسه : لهـذا أطيب نفسا على بقيـة الدنيا منها يا مرداس ؟(١)

مرداس ينجو من الموت فيعود اليه

قال ثم ان عبيد الله اتبع ابا بلال وأصحابه يحبسهم ، فحبس مرداسا فرأى صاحب السجن شدة اجتهاده وحلاوة منطقه ، فقال اني أرى مذهبا حسنا واني لأحب ان أوليك معروفا أفرأيت ان تركتك تنصرف الى بيتك ليلا اتروح الي ؟ قال نعم فكان يفعـل ذلك فلج عبد الله في قتلهم وحبسهم . فكلم في بعضهم فابى ، وقـال اقمعهم قبل ان ينجموا كلام هؤلاء اسرع الى القلوب من النار الى اليراع (٢) . قال : فلما كان ذات يوم قتل رجل منهم رجلا مـن الشرط فقال ابن زيـاد ما ادرى ما أصنع بهـؤلاء كلما امرت رجلا يقتل رجلا منهم فتك بقاتله ، لا قتلن من في حبسي منهم ، وقد أخرج السجان مرداسا الى منزله كمـا كان يفعل ، واتى مرداسا الخبر ، فلمـا كان السحر تهيأ للرجوع فقال له اهله اتق الله في نفسـك ، فانك ان رجعت قتلت . فقال ما كنت لالقى الله غادرا ، فرجع الى السجان فقال : اني علمت ما عزم عليه صاحبك فقال أو علمت ورجعت ؟ !

قال ويروى ان مرداسا مر باعرابي هنأ بعيرا فهـرج البعير فسقط مرداس مغشيا عليه ، فظن الأعرابي انـه

(١) عبارة الكامل : لهذه اطيب نفسا عن بقية الدنيا منك يا مرداس .

(٢) اليـراع القصـب .

صرع ، فقرأ في اذنه ، فلما افاق قال له الاعرابى انى قد قرأت فى اذنك ، فقال مرداس ليس في ما خفته علي ، ولكن رأيت بعيرك هرج من القطران ، فذكرت به قطران جهنم ، فأصابنى ما رأيت ، فقال له لا جرم ، والله ما فارقتك .

رابي الشراة فى السكوت عن الظلمة وخروجهم عنهم

قال فلما خرج من حبس ابن زياد ورأى جده فى طلب الشراة عزم على الخروج ، فقال لاصحابه انه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين تجرى علينا احكامهم مجانفين للعدل ، مفارقين للفضل ، والله ان الصبر على هذا لعظيم ، وان تجريد السيف واخافة السبيل لعظيم ، ولكنا نشذ عنهم ، ولا نجرد سيفا ، ولا نقاتل الا من قاتلنا . فاجتمع اليه اصحابه زهاء ثلاثين رجلا منهم حريث بن حجل السدسى ، وكهمس بن طلق الصريمى ، فارادوا أن يولوا أمرهم حريثا فأبى ، فولوا أمرهم مرداسا ، فلما مضى باصحابه لقيه عبد الله بن زياد الانصارى (1) ، وكان له صديقا ، فقال له يا أخى أين تريد ؟ فقال أريد ان أهرب بديني وأديان أصحابى من أحكام هؤلاء الجورة ، فقال أعلم بكم أحد ؟ قال لا ، قال : فارجع ، قال أتخاف علي مكروها ؟ قال نعم ، وأن يؤتى بك قال : فلا تخف ، فانى لا أجرد سيفا ولا اخيف احدا ولا أقاتل الا من قاتلني ، ثم مضى حتى نزل آسك وهو ما بين «رام هرمز» و «أرَّجلان» ، فمر به مال يحمل الى ابن زياد وقد قارب أصحابه أربعين فحط ذلك المال، فأخذ منه عطاءه ، ورد الباقى على الرسل . وقال لهم : قولوا

---

(1) حققه الشيخ احمد محمد شاكر فى الكامل بعبد الله بن رباح الانصارى قال انه من الثقاة مات 90 هجرية

خروج الشراة عن عبد الله بن زياد

لصاحبكم انما قبضنا اعطياتنا ، فقـــال بعض أصحابه فعلام تدع لهم الباقى وهو فىء ؟ فقال لهم انما يقسمون الفىء كما يقيمون الصلاة . أفنقاتلهم على الصلاة ؟

ولابى بلال اشعار فى الخروج اخترنا منها قوله :

ابعد ابن وهـب فى الوفـــاء وفى التقى
ومن خاض فى تلك الحـــروب المهالكا

احـــب لقـــاء أو أرجـــى ســـلامـة
وقد قتلـــوا زيـــد بن حصن ومـــالكا

فيـــا رب ســلـــم نيتـــى وبصـــيرتى
وزدنـــى التقى حتى ألاقـــى أولئكـــا (2)

قال : ويروى ان رجلا من أصحاب ابن زياد قال خرجنا فى جيش نريد خراسان ، فمررنا "بآسك"، فاذا نحن بهم ستة وثلاثين رجلا . فصاح بنا ابو بـــلال : اقاصدين لقتالنا انتم ؟ وكنت انا واخى ، فدخلنا زربا ، فوقف اخى ببابه فقال السلام عليكم فقال مراس وعليكم السلام ، فقـــال لاخى أجئتم لقتالنا ؟ قلنا لا انما نريـــد خراسان ، قال : فابلغوا من لقيكم اننا لم نخرج لنفسد فى الارض ، ولا لنروع احدا ، ولكن هربا من الظلم ، ولسبنا نقاتل الا من يقاتلنا ، ولا تأخذ من الفىء الا اعطياتنا ، ثم قال أندب الينا أحد ؟ قلنا نعم اسلم بن زرعة الكلابى ، قال فمتى ترون يصل الينا ؟ قلنا يوم كذا وكذا . فقال ابو بلال : حسبنا الله ونعم الوكيل . وجهز عبيد الله بن زرعة فى اسرع وقت ، ووجهه اليهم فى الفين ، وقد تتام أصحاب

(2) رواية المبرد فيها بعض خلاف فراجعها ان اردت .

مرداس اربعين رجلا : فلما صار اليهم ابن زرعة صاح به ابو بلال : اتق الله يا مسلم فانا لا نريد قتالا ولا نحتجن فيئا ، فما الذى تريد ؟ قال أريد ان اردكم الى ابن زياد ، قال مرداس اذا يقتلنا ، قال وان قتلكم ! قـال تشرك فى دمائنا ، قال أذن الله بانه محق وانتم مبطلون ، فصـاح به حريث بن حجل : هو ممن يطيع الفجرة ، وهو احدهم ويقتل بالظنة ، ويخص بالفىء ، ويجور فى الحكـم اما علمت انه قتل بابن سعادة اربعة براء ، وانا أحد قتلته ؟ ولقد وضعت فى بطنه دراهم كانت معه (١) . ثم حملـوا عليه حملة رجل واحد ، فانهزم هو وأصحابه بغير قتال ، قال وكان معبد أحد الشراة قد كاد أن يأخذه ، فلما ورد على ابن زياد غضب عليه غضبا شديدا ، وقـال ويحك اتمضى فى ألفين وتهزم لحملـة مـن أربعين رجـلا ؟ وكان مسلم يقول لان يذمنى ابن زياد وانا حي أحب الي من ان يمدحنى وانا ميت . وكان اذا خرج الى السوق ومر

بصبيان صاحوا به ابو بلال وراءك ، وربما صاحوا بـه يا ابا سعيد (٢) خذه ، فشكى ذلك الى ابن زياد ، فأمـر الشرط ان يكف الناس عنه ، ففى ذلك يقول عيسى بـن فاتك التميمى من بنى تيم اللات بن تغلبة فى كلمة له :

فلمـا اصبحـوا ، صلـوا وقامـوا
الى الجـود العتـاق مسـومينـا

فلمـا استجمعـوا حملـوا عليهـم
فظـل ذوو الجفـال يقـاتلونـا

---

(١) هكذا فى النسخ التى بايدينا

(٢) عبارة المبرد : يا معبد خذه .

بقيـــة يـومهـــم حتـى اتـاهـم
سـواد الليـل فيـه يـراوغـونا

يقـول بصـيرهـم لمـا أتـاهـم
بـأن القـوم ولـوا هـاربينـا

أألفـا مؤمنـين فيمـا زعمـتم
ويهـزمهـم زهـاء اربـعيـنا؟

كذبتـم ليـس ذاك كمـا زعمتـم
ولكـن الخـوارج مـومنـونـا

هـم الفئـة القليلـة غـير شـك
عـلى الفئـة الكثـيرة ينصـرونـا

قال ثم ندب ابن زياد لهم الناس فاختار عباد بن اخضر فوجهه في اربعة آلاف فنهد لهم، ويزعم أهل العلم : ان القوم قد كانوا تنحوا عن دار «بجرد»بأرض فارس فصار اليهم عباد وكان التقاؤهم في يوم الجمعة ، فناداهم ابـو بلال ، اخرج الي يا عباد ، فاني أريد ان أحاورك ، فخرج اليه (فقال له أبو بلال) ما الذىتبغى؟ قال ان آخذ بأقفائكم ونردكم الى الامير عبد الله بن زياد ، قال او غير ذلك ؟ قال وما هو ؟ قال ان ترجع ، فانا لا نخيف سبيلا ، ولا نذعـر مسلما ، ولا نحارب الامن حاربنا ، ولا نجبى الا ما حمينا . فقال له عباد الامر ما قلت لك . فقال له حريث بن حجـل اتحاول ان ترد فئة من المسلمين الى جبار عنيد ؟ فقال لهم انتم اولى بالضلال منه، وما من ذلك بد.قال وقدم القعقاع بن عطية الباهلى من خراسان يريد الحج ، فلما رأى الجمعين قال ما هذا ؟ قيل له الشراة ، فحمل عليهم ونشبت الحـرب فأخـذ القعقاع أسيرا ، فاوتى به أبا بـلال ، فقال لـه

من انت ؟ قال لست من اعدائك وانما قدمت للحج فجهلت وغررت ، فاطلقه فرجع الى عباد ، فاصلح من شأنه ثم رجع فحمل عليهم ثانية وهو يقول :

اقاتلهم وليس علي عتب
نشاطا ليس هذا بالشطاط

اكر على الحروريين مهرى
لاحملهم على وضح الصراط

فحمل عليه حريث وكهمس فأسراه فقتلاه، ولم ياتيا به أبا بلال .

يقتلون غدرا لاجل محافظتهم على الصلاة

فلم يزل القوم يتجلدون الى وقت الصلاة صلاة يوم الجمعة، فناداهم أبو بلال يا قوم هذا وقت الصلاة ، فدعونا حتى نصلى وتصلوا صلاة الجمعة ، قالوا لك ذلك ، فرمى القوم اجمعين باسلحتهم ، وعمدوا للصلاة ، فاسرع عباد ومن معه ، وأبو بلال وأصحابه بين راكع وساجد وقائم فى الصلاة وقاعد ، حتى مال عليهم عباد ومن معه فقتلوهم جميعا ، واتى براس ابى بلال وكان فى القوم كهمس وكان ابر الناس بأمه فقال يا أماه لولا مكانك لخرجت ، فقالت يا بنى قد وهبتك لله ففى ذلك يقول عيسى بن فاتك

ألا فى الله لا فى الناس شالت
بداوود واخوته الجذوع

مضوا قتلا ، وتشريحا ، وصلبا
تحوم عليهم طير ، وقوع

اذا ما الليل أظلم كابدوه
فيسفر عنهم وهم ركوع

اطــار الخـــوف نومهـــم فقــامـــوا
وأهـــل الأمـــن في الدنيـــا هجـــوع

وقال عمران بن حطان :

يا عـــين أبكـــي لمـــرداس ومصـــرعـــه
يا رب مـــرداس اجعلـــني كمـــرداس

تركتـــني هائمـــا ابكـــي لمـــرزئتي
في منـــزل موحش مـــن بعـــد ايـنـاس

انكـــرت بعـــدك ما قـــد كنت أعـــرفه
يا رب مـــرداس اجعلـــني كمـــرداس (1)

بقية الشراة تقتص من عباد

قال ، ثم ان عبادا لبث في المصر محمودا لما كان منه ، حتى ائتمر به جماعة من الشراة ، ان يفتكوا به ، وذمـــر بعضهم بعضا على ذلك ، فجلسوا له في جمعة ، وقد اقبـــل على بغلة له ، وابنه رديفه ، فقام اليه رجل منهم ، فقـــال اسألك عن مسألة ؟ قال ، قل ، قال أرأيت رجلا قتل رجلا بغير حق ، والقاتل ذوجاه وقدر ، وناحية ، عند السلطان، ألولي ذلك المقتول ان يفتك به ان قدر عليه ؟ قال ، بـــل يرفعه الى السلطان ، قال : ان السلطان لا يعدى عليه لمكانه منه ، قال اخاف عليه من ان يقتله به ، قال : دع ما تخافه من ناحية السلطان . أيلحقه من الله اثم ؟ قال ، لا . فحكّم هو واصحابه ، وخبطوه باسيافهم ، فرمى عباد بابنـــه فنجا ، وتنادى الناس ، قتل عباد ، فأخذوا أفواه الطـــرق ، وكان مقتل عباد سكة بني مازن فحارب، بنو مازن قتلـــة عباد حتى قتلوهم .

---

(1) انظر تتمة المقطوعة في الكامل .

قيل ، وكان ذلك سببا لجد ابن زياد فى تتبعه الشراة حتى بعث الى خليفته بالبصرة ، أن وجه الي بعروة بن أديه فلم يزل يطلبه حتى دل عليـــه فى سرب العـلا بن سوية المنقرى . فكتب بذلك الى عبيد الله بن زياد فقرىء عليه الكتاب : انا اصبناه فى شرب (1) ، فتهانف به عبيد الله ، فقال له صفحت ولؤمت ، اذ هو فى سرب العلا بـن سوية ، ولوددت انه كان . انه ما كان ممن يشرب النبيذ قلـت ، وهذا الخبر قد تقدم معناه ، وفى الرواية بعض المخالفـة للخبر المتقدم من ذكر عروة .

الحوار الذى دار بين ابن زياد وعروة

قيل ، فلما أقيم عروة بين يديه أخذ يحاوره ، وقـــد اختلف فى خبره واصحه عندنا انه قال له : اجهزت أخاك علي ؟ فقال والله لقد كنت به ضنينا ، وكان لى عـرى (2) ولقد اردت له ما أريد لنفسى ، فعـزم عزما فمضى عليه ، وما أحب لنفسى الا المقام وترك الخروج ، قال له فانت على رايه ، قال كنا نعبد ربا واحدا قال أما والله لامثلن بك . اختر لنفسك من القصاص ما شئت فامر به فقطعوا يديـه ورجليه ثم قال لـه كـيف تـرى ؟ قال افسدت علي دنياي وافسدت عليك آخرتك ، ثم أمر به فقتل ثم صلب عـــلى باب داره ، ثم دعا مولاه فسأله عنه ، فاجابه بجواب قـــد مضى ذكره ، وقال ابو سفيان لما قطع الفاسق عبيد اللـــه بن زياد يدى عروة ورجليه ، جاءه اعرابى ، فقال من هذا ؟ قالوا رجل اراد الامير عذابه ، قال هلم الى بسيف فأعطـاه سيفا فضرب عنقه ، قال فاجتمع لذلك نفر مـن الشراة ، فأتوا الى امرأة منهم فقالوا لها : قاتل عروة دلينا عـــلى

---

(1) تهانف : ضحك وتبسم .
(2) فى نسخة كان لى عزا .

موضعه ، فقالت اقتلوه في بيتي وعلى أن آتيكم به ، فعمدوا الى موضع في البيت فحفروا فيه حفرة ، ثم القوا عليها شيئا ثم ذهبت اليه فعرضت عليه شيئا يشتريه أو اشترت منه شيئا، وأقبلت فادخلته الدار عليها ، فالقوه في الحفرة فردوا عليه الحجارة والتراب ثم غيبوه . والحقه الله الى النار وبئس المصير .

اذا كنت في مجلس فاحسن حمل راسك

وقال أبو سفيان مر ابو بلال يوما بجماعة من قومه في ناديهم على فرس له ، فوقف فسلم ، قال فقال شاب منهم يا ابا بلال فرسك حروري ، فقال أبو بلال وددت والله أني أوطأته بطنك في سبيل الله ، قال فمضى أبو بلال وقد وقع في نفس الفتى قولة أبي بلال قال فقال لاصحابه اني مقتول ، قالوا لا تخف ، قال دعوني اني مقتول ، قال فمشت اليه جماعة منهم بالفتى ، فقالوا : يا ابا بلال زلة كانت ، فاصفح عنها . قال : فعلت ، ولكن يا فتى اذا كنت في مجلس فأحسن حملان راسك .

خشية ابي بلال وخوفه من الله

وقال خرج ابو بلال مع صاحب له فبينما هو يسير في الطريق اذ مر بحدادين فنظر اليهم ، فغشي عليه ، ولم يزل به الرجل يرش على وجهه الماء حتى أفاق ، ثم سار ، فبينما هما يسيران استقبلتهما امرأة جسيمة بهية ، عليها من الكسوة والهيئة ما الله به عالم ، فلما نظر اليها غشي عليه ، ولم يزل يرش على وجهه الماء حتى أفاق ثم سار حتى استقبلهما رجل على برذون في نزهة وهيئة عجيبة وخلفه غلمان ، فلما نظر اليه غشي عليه ، فلم يزل يرش على وجهه الماء حتى أفاق ، فقال يا ابا بلال رحمك الله ما هذا ؟ قال اما المرة الاولى فقد علمت انك عاينت النار فحدثني عنك حين رأيت المرأة والرجل فقال اما المرأة

فأنى لما رأيت عظمها وحسنها وما هى فيه من الهيئة ذكرت تقلبها فى النار فكان ما رأيت، واما الرجل فانى كنت أراه كثيرا يشهد مجالس المسلمين فذكرت سوابق الشقــــاء . فنسأل الله العافية ، وذكر ابو سفيان لما رفع أهل الشام المصاحف قال عروة رحمه الله :

أيحـــرم أهـــل الشــــام منــا بشبهـــة
وليس علينـــــا قتلهــــــم بمحـــــرم؟

وقالـــوا كتـــاب اللــه يحكـــم بيننــا
فقلنا كتـــاب اللــه خـــير محكـــــم

قبلنـــاه منكـــم ، والحـــوادث جمـــة
رضينـــا بـــه فى حرمـة المـــال والدم

فـــان تقبلـــوه فالهـــدى فى أكفنـــا ،
والا اجتلـــدنـــا بالصفيــــح المصمـم

بضرب يـــزيـــل الهام عـــن مستقـــره
وشيكـــا ، وطعـــن بالوشيـــج المقـــوم

فـــلا شىء أدنى مـــن شفاعـــة ربنـــا
والا ففينـــا مـــن بقيـــة جـرهـــم

عمـران بن حطـان

ومنهم عمران بن حطان الشارى رحمه الله ورضى عنه هو النهاية فى الورع والصلاح واطراح الدنيا كل الاطراح لما خصه الله عز وجل من فنون العلم والنزاهة والحلـــم وشهامة الجنان ، وفصاحة اللسان ، ان خطب ابلغ وأطنب أو أوجز ، وان نظم سحر بيانه وأعجز ، فمن ذلك ما حكى المبرد قال لما قتل ابو بلال رحمهالله قال عمران بن حطان :

لقــــد زادالحيــــاة الــي بغضــا
وحبــا للخـــروج ابــو بـــلال

احــاذر ان امـــوت عــلى فــراشى
وأرجـــو المـــوت تحـت ذرى العوالى

فمـــن يــك همــه الـدنيـا فـانـى
لهـــا واللـــه رب العـــرش قـالى

وقال يرثيه فى أبيات قد تقدمت ، وأولها (يا عين ابكى لمرداس ومصرعه) وقالها ابو بلال قبل الخروج ، وقـــد نسبت لغيره ، قيل والصحيح انها له ، ذكرها ابن السيكت وغيره وهى قوله :

لقـــد زاد الحيــاة الى حبــا
بنات انهـــن مـــن الضعـــاف

احــاذر ان يريــن الفقــر بعـدى
وان يشربــن رنقا بعـــد صــاف

وان يعـــرين ان كسى الجـــوارى
فتنبو العــين عــن كــرم عجـاف

ولولا ذاك قـــد سومت مهـــرى
وفى الرحمـــان للضعفـــاء كاف

أبانا مـــن لنــا ان غبــت عنــا
وصار الحى بعـــدك فى اختــلاف

ومن هاهنا أخذ عمران قوله لقد زاد الحياة الى بغضا قال المبرد كان عمران رأس العقد وخطيبهم وشاعرهـم ، قال وكان من حديثه انه لما طرده الحجاج كان ينتقـــل فى

القبائل ، فكان اذا نزل فى حي انتسب نسبا يقرب منه .
وفى ذلك يقول :

نزلنا فى بنى سعد بن زيد
وفى عاد وعامر عوثبان

وفى لخم وفى أدد ابن عمر
وفى بكر وحي بنى العدان

تنقل عمران فى احياء العرب مختفيا

ثم خرج حتى نزل عند روح بن زنباع الجذامى ، وكان روح يقرى الاضياف وكان مسامرا لعبد الملك بن مروان اثيرا عنده ، وانتمى له من الازد ؛ وفى غير هذا الحديث ان عبد الملك ذكره وقال ما اعطي ما اعطى احد ما اعطى ابو زرعة اعطي فقه اهل الحجاز ودهاء أهل العراق ، وطاعة أهل الشام ، قال وكان روح بن زنباع لا يسمع شعرا نادرا ، ولا حديثا غريبا عند عبد الملك فيسأل عنه عمران ابن حطان الا عرفه وزاد فيه ، وذكر ذلك لعبد الملك بن مروان ، وقال ان لى جارا من الازد ما اسمع من امير المؤمنين خبرا ولا شعرا الا عرفه وزاد فيه ، وقال : أخبرنى ببعض اخباره فخبره وانشده ؛ فقال ان اللغة عدنانية ، وانى لاحسب ضيفك عمران بن حطان ، حتى تذاكر الليلة بيتين من الشعر ، فلم يدر عبد الملك لمن هما ، فرجع روح فسأل عمران عنهما ، فقال هما لعمران بن حطان فرجع روح الى عبد الملك فاخبره فقال ضيفك عمران بن حطان اذهب فجئنى به فرجع اليه فقال ان امير المؤمنين قد احب ان يراك ، فقال عمران قد أردت ان أسألك ذلك فاستحيت منك ، فامض فانى بالاثر ، فرجع روح الى عبد الملك ، فأخبره فقال عبد الملك : اما انك سترجع فلا تجده فرجع وعمران قد ارتحل وخلف رقعة فيها :

يا روح كم مــن أخي مثوى نزلت به
قد ظن ظنــك مــن لخم وغســـان

حتى اذا خفتــه فارقت منـــزله ،
من بعد ما قيل عمـــران بن حطان

قد كنت جارك حـــولا لا تروعني
فيه روائـــع من انس ومن جـــان

حتى أردت بى العظـــمى فادركنى
ما ادرك الناس من خوف ابن مروان

فاعذر اخاك ابن زنباع فان لـــــه
فى النائبات خطوبا ذات ألـــوان

يوما يمـــان اذا لاقيت ذا يمـــن
وان لقيـــت معـــديا فعـــدنانى

لو كنت مستغفـــرا يومـــا لطاغية
كنت المقدم فى ســـرى واعــلانى

لكــن أبت لي آيـــات مطهـــرة
عند الولايـــة فى طــه وعمـــران

ثم ارتحل حتى نزل بزفر بن الحارث الكلابى احد بني عمرو بن كلاب فانتسب له أوزاعيا فكان عمران ممن يطيل الصلاة ، وكان غلمان بني عمرو يضحكون منه فأتاه رجل يوما ، ممن رآه عند روح بن زنباع ، فسلم عليه فدعـاه زفر ، فقال من هذا ؟ قال رجل من الازد ، رأيته ضيفـــا لروح بن زنباع ، فقال له زفر : ما هذا ، أزديا مـــرة وأوزاعيا أخرى ؟ ان كنت خائفا أمناك وان كنت فقيرا جبر ناك . فلما أمسى خلف فيمنزله رقعة ــ وهرب ــ فيها :

ان التى اصبحت يعنى بــه زفــر
اعيت عياء على روح بن زنبـــاع

ما زال يسألنى حــولا لأخبـــره
والناس من بين مخدوع وخـــداع

حتى اذا انقطعت عنى مســـائلـه
كفّ الســـؤال ولم يولع باهلاعى

فاكفف لسانك عــن لومى وأسئلتى
مـــاذا تريــد الى شيـــخ لأوزاعى

اما الصلاة فانى لســـت تاركهـــا
كل امــرئٍ بالذى يعنى بــه ســاع

اكرم بروح بــن زنبــاع واسرتــه
قـــوم دعا أوليهـــم للعـــملا داع

جاورتهــم سنـــة فيما أسر بـــه
عرضى صحيح ونـــومى غير تهجاع

فاعمـــل فانك منعي بواحـــــدة
حسب اللبيب بهــذا الشيب من ناع

ثم ارتحل ، حتى اتى عمان ، فوجدهم يعظمون أمر ابى بلال ويظهرونه فاظهر أمره فيهم فبلغ ذلك الحجاج فكتب الى عمان فيه ، فهرب عمران حتى اتى قوما من الازد فلم يزل فيهم حتى مات رحمه الله . وهو يقول :

نزلنا بقـــوم يجمع اللــه شملهــم
وليس لهم عود ســوى المجد يعتصر

نزلنا بحمد الله فى خـــير منـــزل
نسر بما فيــه مـــن الانس والخفر

من الازد ان الازد أكـــرم معشـــر
يمانيـــة طابـــوا اذا انتسب البشر

فاصبحت فيهـــم آمنـــا لا كمعشـــر
اتونى فقالوا مـــن ربيعة أو مضر

أم الحي قحطان ، فتلكم سفـــاهـــة
كما قاله روح ، وصاحبـــه زفـــر

ومـــا منهمـــا الا يسر بنسبـــــة
تقربنى منـــه وان كان ذا نفـــر

فنحن بنو الاسلام ، واللـــه واحـــد
وأولى عبـــاد اللـــه باللـــه مَن شكر

ومر عمران بالفرزدق على باب بعض الملوك الطائيين ينشد شعرا يمدحه به فسمعه قد تجاوز النهاية فى المدح وغلا غلوا عظيما فقال عمران :

ايهـــا الســـائل العبـــاد ليعطى
ان للـــه مـــا بايـــدى العبـــاد

فاســـأل اللـــه ما رجـــوت لديهـــم
وارج فضـــل المهيمـــن العـــواد

لا تقل فى الجـــواد ما ليس فيـــه
وتسمى البخيـــل باسم الجـــواد

وذكر غير واحد من اهل التواريخ انه لما أوتى الحجاج بعمران بن حطان اسيرا قال يا حربى أضرب عنق ابـــن

الزانية ، فقال له عمران : « بئس مـا ادبك به أهلك يا حجاج : ابعد الموت منزلة اصانعك عليها ؟ ما كان يؤمنك ان ألقاك بمثلها » ؟ ! فاستحى الحجاج ، فأطلقه ، وذكـر ان اصحابه اجتمعوا اليه فقالوا انما أطلقك الله لما رأى فى رجوعك الينا هلم الى محاربة الحجاج ، فقال هيهـات غل يدأ مطلقها ، واسترق رقبة معتقها ، والله لا احاربه أبدا ، فجعل ينتقل فى الاحياء مختفيا كما تقدم .

جعفر بن السماك

ومنهم جعفر بن السماك رحمه الله . شيـخ الصيانة والنزاهة ، وركن الديانة والفقاهة (1) ، المحافظ عـلى طريق الصديقين ، والمطرح فىحرمة الخالق حرمة المخلوقين الآتى بيت الصلاح من بابه ، الا فيما ليس باللائق باضرابه له الكعب العالى فى أهل زمانه ، والتقدم فى فضله ومكانه.

وفوده مع جماعة على عمر بن عبد العزيز

قال ابو سفيان وفد جعفر بن السماك العبدى وكـان شيخ ابى عبيدة ، وكان ماحفظ عنه ابو عبيدة اكثـر مما حفظ عن جابر قال فخرج جعفر بن السماك ، والخباب بن كليب ، وسالم الهلالى فى جماعة من اخوانهم الى عمر بـن عبد العزيز حين ولي الخلافة ، قال فدخلوا عليه فكلموه ، فقال لهم : هل تنكرون من أمر الاحكام شيئا ؟ قالوا : لا . قال ، فكلما كلموه يفـزع الى الاحكام . قـال فبايعـوه وذكروا أمر الولاة قبله فأخـذ يعتـذر عنهم ، يريد ان ينصرفوا عنـه قال فقال الخبـاب ، فضربت على ركبتـه وقلت أو انك لهاهنا تعذر الظلمة ؟ وتفـعل ؟ فقال عمر يا عبد الله امسك عليك يدك فانى لو امرت قال وكان جعفر

(1) مصدر فقه يفقه فقها وفقاهة كان الفقه سجية فيه .

ألطفهم به قال فقال ما فيكم أرفق من الاشج وكان جعفر مشجوجا فى جبهته . قال ، فاجابهم عبد الملك بن عمر وقبل ما دعوه اليه. قيل، وسئل جعفر واصحابه حين رجعوا من عند عمر عن عمر ، فقال : هو مثل الحسن يقدم رجلا ، ويؤخر أخرى ، وذكر أبو سفيان عن الحسن انه كان يقول انهم وان قزنت بهم برادينهم ، فان ذل المعاصى فى رقابهم ابى الله الا ان يذل من عصاه . (١)

صحار العبدى

ومنهم صحار العبدى رحمه الله - ذو المآثر الأثيرة ، ومن كان يدعو الى الله على بصيرة ، حمل فقها جزيلا ، وكان باعه فى العقائد طويلا ، وكان احد الزهاد ، واحد الزاهدين عن معتقد فاسدى الاعتقاد ، قال ابو سفيان كان ابو عبيدة يضعف امر القدر ، ويقول : والله ما فيه نكاح ذات بعل ، ولا انتحال هجرة ، ولا حكم بغير ما انزل الله ، انما هو رأى احدثه الناس فيما بينهم ، فمن أقر بان الله علم الاشياء قبل ان تكون فقد أقر بالقدر ، قال ابو سفيان وذلك ان صحارا يقول : كلمهم فى العلم فان اقروا به نقضوا أقوالهم وان انكروه كفروا .

رأي ابى عبيده فى القدر

قريب بن مالك وزحاف

ومنهم قريب (و) زحاف ابنا مالك رحمهما الله ، كانا بالفضل بمكان ، وبمن يعد فى تلك الامكان ، متبتلين للعبادة ، وكانت عنهما هفوة كفرتها الشهادة ، حدث ابو سفيان قال لما الح ابن زياد فى أخذ الشراة اخذ جماعة منهم فمنهم العرب والموالى ، قال فامر الموالى بضرب

(١) يعنى الحسن . بهذا بنى امية

اعناق العرب فابوا ، وقالوا لا نقتل أهل ولايتنا وأهـــل نعمتنا ، قال وامر العرب بضرب اعناق الموالى ، فضربــوا اعناقهم فلما فعلوا ذلك خلى سبيلهم ، قال فلما خرجـــوا من عنده قالوا ما صنعنا ! قتلنا اخواننا وأولياءنا ، قـــال فأتوا الى أوليائهم وقالوا استقيدوا منا ، قالوا تالله لا نفعل عمدتم الى أوليائكم فقتلتموهم وقد دعوا الى مثل ما دعيتم اليه فأبوا ستلقونهم غدا عند الله. قال وكان فيهم قريب وزحاف وآخر يسمى كعبا ، وغيرهم . فندموا أشد الندامة قال وكان أحـدهم اذا تيمم مجلسا مـن مجالس المسلمين يستأذن فلا يؤذن له ، ويخاطب بأقبح الخطاب ، فيقف يبكى ما شاء الله ، ثم ينصرف . قال فاما كعب فانه لم يذكر ذلك الموقف قط الا صعق ، قال فخرج ذات مرة من البصرة الى مكة مع ابى عبيدة ، قال وكان ذات ليلة فى مضجعــه اذ انتبه ، فتذكر ، فصعق ووقع عن الجمل ، فأتاه أبو عبيدة فنزل اليه وجعل يرفع رأسه ، ويقول : انى لارجو ان لا يعذب الله كعبا ، فكان هذا ما سمع فيه من ابى عبيــدة ، واما قريب وزحاف فانهما لما اعياهما الامر خرجـــا فى سبيل الله ، فقاتلا ، حتى قتلا وكان فيما يزعمون يقــول احدهما كلما ضرب عضو منه اللهـم عضو بعضو ، حتى قتلا ، وحدث عن حاجب بن مسلم ، عن جابر ، والاســود ابن قيس بــن أبى وقاص « أو أبى فقمس » انهمـا كانا يلقيان ابن عباس فى الموسم ، فجاء جابر وحده ، فقال له ابن عباس ، اين صاحبك ؟ قال اخذه عبيد الله بن زيـاد فقال ابن عباس وانه لمنهم ، فقال له جابر نعم . أو ما انت

يكفرون عن خطئهم بالخروج للجهاد

منهم ؟ قال اللهم لا ، وذكروا ان « اشجع بن قرة » كـان واليا عليهم بعد عبد الله بن حوش ، حتى قتلوا جميعـا ، وقد كانوا هزموا عدوهم مرتين .

الناس يومئذ ثلاثه اصناف

حدثت أم نافع بن خليفة : ان الناس يومئذ على ثلاثة اصناف ، صنف جبابرة ، واتباعهم، وصنف فساق يشربون النبيذ ، ويضيعون الصلاة ، ويعملون بالفواحش ، وليس هنالك يومئذ صفرية ولا أزارقة ولا شكاك ، وانما الذى يسمون : القراء يدينون بقتال الجبابرة وبالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقمـع الفساق عما يصنعون ، فلمـا رأى ذلك زياد جعل يتخذ الادلاء عليهم ، ويأخذهم فيقتلهم فلما رأوا ذلك منه خشوا ان يقتلهم على فرشهم . فحدثنى من لا اتهم ان أول من خرج عليهم قريب وزحاف ابنا مالك وكان خال حصين بن عدى بن حاتم ، فحدث حصين بن همام الكندى عن يسرة أبى يسار ، وكانت فاضلة قالت : لقـد قالا شاعرا بنى دهل يومئذ تعنى قريبا وزحاف :

وقالـوا لنـا خلـوا لنـا عن طريقنـا
فقلنـا لهـم لا ، والحليـم الكريـم
الى أن نُجَـرِّى فيكـم بسيـوفنا
ونقطـع فى الهـامـات كـل قـويـم
يجـرون بالارسـان مـن وسـط دورنا
الى مـوقـف للظـالمـين لئيـم

الاحنف بن قيس

ومنهم الاحنف بن قيس ، تضرب به الامثال فى الحلم ، واكثر صفات الكمال ، فسل عن انبائه مـن لقيت مـن

الركاب ، أو فاطلع على ما امكنك فى هذا الفن من ديوان تجـــده المشار اليه فى كرم الشمائل ، والمعتمد عليه فى كثير من الفضائل .

اياس بن معاويـة

ومنهم اياس بن معاويـة ، وتضرب بـه الامثـال فى الذكاء ، وتحرى الصواب فى القضاء ، أو ما سمعت قول ابى تمام :

اقدام عمـــرو فى سماحـــة حاتـــم
فى حلـــم احنف ، فى ذكـــاء ايـاس

يتهرب مـن تولى القضاء تحرجا وورعا

ومن طريف ما يوثر عنه ، ما حكى أبو الحسن على بن عبد الحسن التنوخي . انه لما استخلف عمر بن عبد العزيز كتب الى والى البصرة ان يحضر اياس بن معاوية المدونى ، والقاسم بن ربيعة الحونى ، ولينظر ايهما أنفذ فى الحكم يقلده اياه فلما وقف على الكتاب احضرهما ، فقرأه عليهما فقال اياس اسأل عنى وعنه فقيهي المصر الحسن ، وابـن سيرين ، واسمع منى ومنه ، قال : قل ، فقال بالله الذى لا اله الا هو ـ وحلف يمينا مستوفية جامعة لمعانى الحلف ـ ان اياس بن معاوية اصلح للحكم منى وأنفذ فيه،فان كنت عندك صادقا فقلده ، وان كنت كاذبا فما يحل لك ان تقلد الحكم بين المسلمين من يبارز الله بمثل هذا اليمين كاذبا ، فقال اياس : لا تسمع منه ايها الامير فانك حيث جئت به الى شفير جهنم فافتدى نفسه بيمين حلف بها كاذبـا ، ان

يقع فيها يكفر عنها ويستغفر الله وينجو ، فقال الامير أوليس قد فطن بها ؟ انت لهاياإياس، وقلده الحكم بين الناس ولكل من سميناه فى طبقتهم مآثر ، قد عمر بها صدور الرجال وسطور الدفاتر ، ولكلهم فى اعلى الدرجات منابر، وان غيبت اشخاصهم المقابر .

الطبقة الثالثة 100 ــ 150 هـ

أبــو عبيدة مسلم

منهم ابو عبيدة مسلم بن ابى كريمة رحمه الله ، كبير تلامذة جابر ، وممن حسنت اخباره والمخابر ، تعلم العلوم وعلمها ، ورتب الاحاديث واحكمها ، وحافظ فى خفية على الدين حتى ظهر على يد الخمسة الميامين ، حسب ما تقدم من ذكــــر دراستهم ، وحملهم العلــوم ، وما شفى الله بــه وبهم من الكلوم ، وكان عالما مـــع الزهد فى الدنيـــا ، والتواضع مع نيل الدرجات العليا، والاعتراف بضيــق الباع على ما عليه من الاتساع .

فمن ذلك ما حدث ابو سفيان قال كان ابو عبيـــــدة يضعف أمر الشفعة ويقول لا تحبس على اليتيم حتى يكبر ولا على غائب ، قال فابتلي بها رجل من أصحابه فجاءه يسأله فقال اذهب الى اشياخ البصرة فاسأل هل فيها لجابر اثر ؟ فجاء الى منزل المحصر (I) ، فاخبر ان جــابرا كان يراها ويوجبها فامرهم ان يأخذوا بمقول جابر .

(I) كذا فى النســـخ .

ابو عبيده ثقـــة لا يشـك فيه

قال ابو سفيان شهد رجلان على شهادة ابى عبيدة عنـد قاضى البصرة قال فقال المشهود عليه اصلحك الله ان الذين شهدا انما شهدا عندك على شهادة فلان ، قال ويحك انى به عارف ولو جاز لى ان احكم برجل واحد لحكمت بشهادته .

ابو عبيده يتسـم بالتشـدد

قال وكان رجل من المسلمين يقال له حيان بن سالم ، من أهل عمان ، من طي ، وكان فاضلا ، وكان يقول لابى عبيدة اذا جاوزت نهر البصرة فانا أفقه منك ، ولو كنت انـت نبيئا ما اجابك احد لما ترى من تشديد على الناس ، فضحك أبوعبيدة من قوله وقال يالها موتة كموتة حيان(1) ! وحكى المليح قال : دخلت انا وعبد الملك الطويل على ابى عبيدة وقلنا : يا ابا عبيدة ، ما تقول فى رجل دخل على امـرأة فادخل يده من تحت ثيابها فنهضت المرأة فانكرت ذلـك انكار الحرة أله ان يتزوجها ؟ قال لا ، قال فبينما نحـن عنده اذ دخل أبو نوح صالح الدهان فقلنا من يسأله قال الفضل بن جندب انا أسأله ، قـال فسأله الفضل ، فقال : نعم له ان يتزوجها ويعطيها ماله ان شاء ، فقال له ابـو عبيدة انها الفروج يا ابا نوح ، قال : صدقت ، ثـم قال ابو نوح يا معشر الفتيان ، ألم انهكم أو قال انى انهاكـم ان تسألونى اذا كان ابو عبيدة حاضرا .

حد الغبن فى البيع كما يراه ابو عبيده

وقال خرج ابو عبيدة ذات مرة الى مكة ، ومعه سابـق العطار وكان سابق من خيار من ادركت ، قال فبينما هم نازلون فى بعض المنازل اذ وقفت عليهم اعرابية معها لبن وسمن وجدى . فاشترى منها سابق اللبن والسمن والجدى

---

(1) لعله يعنى ان حيانا كانت تنقصه حرارة القلب والاندفاع الى التمسك الشديد بالشرع . فشبه ذلك بالموت ، فقال قولتـه .

بقارورة خلوف وقلادة قال ثم جاء باللبن الى ابى عبيدة ، قال ، فقال : أخر عنا لبنك يا سابق قال لم يا ابا عبيدة ؟ قال ويحك يا سابق كم ثمن القلادة ؟ قال دانق أو نحوه ، قال فكم ثمن القارورة ؟ قال دانق أو نحوه ، قال ويحك يا سابق ، انما الغبن ان تكون العشرة باثنين أو العشرة بالخمسة أو الدرهم بالدرهم ، واما مثل هذا فلا . فأرسل سابق الى الاعرابية فجاءت ، فقال لها ابو عبيدة : كم ثمن اللبن عندكم ؟ فقالت : لا ثمن له عندنا ، قال وبكم ثمن السمن قالتدرهمان، قال بكم ثمن الجدى ؟ قالت : درهمان قال فاخرج سابق اربعة دراهم فدفعها اليها ، قال ، فقال ابو عبيدة هلم لبنك الينا يا سابق .

وقال كان أصحابنا من أكثر الناس حجا ، وكان لغير واحد نجائب يحمل عليها الى مكة ، قال وكان جد سلامة يدعى بأبى سالم ، وكان من خيار المسلمين وفضلائهم وكان فيمن حبسه الحجاج مع أبى عبيدة وضمام في السجن وقال كان أبو سالم يذكر ذلك ، قال قرمنا الى اللحم ، قال وكان رجل يدخل علينا فسألناه ان يشترى لنا دجاجة ويشويها لنا ، ويأتينا بأربعة أرغفة ، قال وكان ابو سالم موسرا كثير المال ، قال ، فقال للرجل : صانع فيها حتى توصله الينا ، قال فصانع صاحب الحبس ، فارسلها اليه ، قال ، فلما جاءنا بها قسمناها على أربعة اجزاء ، قال فاذا نحن بجلبة نحو البيت الذى نحن فيه ، قال فخفنا ان يكون فطن بنا ، فرمينا بالدجاجة والارغفة فى الكنيف ، قال ولم يكن فطن بنا ، قال وكان طرحنا اياها فى الكنيف بعدما عايناها اشد من قرم اللحم ، ولما آمنوا استدركوا خطايانا .

قال وجاء رجل من المسلمين الى ابى عبيدة فقال يا ابا عبيدة انهم يتعرضون لنا فى المجالس ، قال ابو عبيدة هل سموا أحدا ؟ قال لا ، قال فمن يعلم ما تقول ؟ فاشار الى شيخ يقال له ابو محفوظ ، وكان من خيار من ادركته ، قال فما تقول يا أبا محفوظ ؟ قال صدق،فهل سموا أحدا ؟ قال لا ، قال ابو عبيدة وان القرآن يتعرض للناس ، فمن عرف من نفسه شيئا فابعد الله من ابغده .

حجة ابى عبيده فى القدر ورايه فيه

اجتمع ابن الشيخ البصرى وابو عبيدة بمنى ، فقال ابن الشيخ له : يا ابا عبيدة هل جبر الله احدا على طاعته أو معصيته ؟ قال ما اعلم ان الله جبر العباد على طاعته أو معصيته ، ولو كنت قائلا ان الله جبر احدا لقلت جبر أهل التقوى على التقوى لعظم تخويفه لهم وشدة ترغيبهم به اياه ، قال يا ابا عبيدة ، فالعلم (I) هو الذى قاد العباد الى ما عملوا قال لا ، ولكن سولت لهم انفسهم وزين لهم الشيطان اعمالهم ، وكان منهم ما علم الله ، وقال كان حمزة الكوفى يقول بشىء من القدر ، فهجره ابو عبيدة وأمر بهجرانه ، فقال يوما عجبا بأبى عبيدة يأمر بهجرانى وهؤلاء الفتيان يقول : اراد وشاء ، واحب ، ورضى ، وهو يدنيهم . ولا يقول بمثل قولهم ! قال فبلغ قوله ابا عبيدة فقال قبح الله رأيه ، ان هؤلاء أرادوا أثبات القدر فقالوا فيه وحمزة يريد ازالته وليس مثبته كمزيله .

وقال قيل لابى عبيدة لا يستطيع الكافر الايمان ، فقال لا اقول ان من يستطيع ان يأتى بحزمة حطب من حل الى حرم لا يستطيع أن يصلى ركعتين ، ولا اقول انه يستطيع ذلك الا أن يوفقه الله تعالى .

(I) يعنى علم الله بالقدر وما سبق فى الازل .

وقال دخل سهل بن صالح وعبد الله بن زريق الهدازى وجماعة من الفتيان على ابى عبيدة فقالوا يا ابا عبيدة ما تقول في غربة من الارض (وفيها رجل) على دين عيسى عليه السلام ولم تأته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال : مسلم ما لم تأته الحجة فيدفعها ، قال فقالوا له : فما ترى ان هو دعا رجلا من المجوس الى دينه فأجاب ؟ قال هو مسلم ، فقالوا له : انظر في هذا ، قال فما تقولون أنتم ؟ قالوا نقول : الرجل مسلم ، والمستجيب كافر ، قال فقال لهم الشيخ ألستم تزعمون ان الرجل مسلم على دين الله وطاعته ؟ قالوا بلى ، قال فكيف يكون ويحكم الداعى الى دين الله وطاعته مسلما ويكون المستجيب لدين الله وطاعته كافرا ! ! قال فرادوه الكلام ، قال فغضب عليهم وبرىء منهم ، فقال : أخرجوا عنى . فخرجوا عنه ، منكسرين ، فأتوا حاجبا ، فقالوا له : اغثنا ، فانه عجل علينا بالبراءة انما اردنا ان نستفهمه ، قال فركب اليه حاجب فأعلمه انهم تائبون . قال فقال له اخرجهم فليأتوا الربيع وعبد السلام بن عبد القدوس فليعلموهما بتوبتهم قال ففعلوا . قال الربيع فأتونى وانا لا اعرف قصتهم فتابوا فاتينا أبا عبيدة فأعلمناه ، قال فقبل منهم ، وأمر بهم فدخلوا المجالس .

اختلاف ابى عبيدة مع بعض اصحابه في اثراى احيانا

فتيى ابى عبيدة فى ضمان المكترى

وقال وائل كنا بمنى فى خباء ابى عبيدة ، وحاجب حاضر ، ومحمد بن سلامة المدنى ، ومحمد بن خليفة المدنى ، وكان محمد بن حبيب من العباد الاخيار ، قال : ولم ير أبا عبيدة قام يسلم على أحد الا على محمد بن سلامة ، ومحمد بن حبيب ، فانه اذا رآهما قام اليهما واعتنقهما ، قال وائل وفي الخباء مشائخ من أهل حضرموت

فقهاء علماء ، قال فسألتهم عن رجل اكترى دابة الى موضع معلوم ، فجاوز الموضع ، فعطبت الدابة ، قال فأجمعوا كلهم انه ضامن للدابة ، قال فقلت لهم فما ترون في الكراء ؟ قالوا لا نرى عليه كراء ، انما ضمناه الدابة ، قال وكان ابو عبيدة غائبا أو نائما فاستيقظ فقال حاجب يا حضرمي اسأل الشيخ عن مسألتك ، قال فسألته ، قال : يضمن ثمن الدابة والكراء ، قال فقال له محمد بن سلامة من اين يا ابا عبيدة ؟ قال من حيث لا تعلم .

وقال ابو سفيان جاء رجل من الازد يقال له النظر أبو محمد الى أبي عبيدة يسأله عن مسألة ، فوجده في شكاة فاجابه بجواب ، ثم قال اذهب الى الربيع فائت به ، قال : فجاء الربيع ودخل على ابي عبيدة وهو مستلق وعلى صدره صحفة فيها فتات خبز يأكل منه ، قال ، فقال اسأل الربيع عن مسألتك ، قال فسألته فأجاب بغير جواب أبي عبيدة ، قال فقال له ابو عبيدة أليس المقوم فيها كذا وكذا يعني الجواب الذي اجاب به الرجل أولا ، فقال له الربيع اما الذي حفظت عنك فغير هذا . قال : أو قد حفظت عني قال نعم ، قال ، فقال للرجل فخذ به ، فانه قد حفظ عني قال أبو سفيان كأن الشيخ احس من نفسه لاجل تشاكيه أنه وهم فيها .

امره بهجران حمزة الكوفي لرايه في القدر

وقال ابو سفيان جاء حمزة الكوفي الى ابي عبيدة في منزله ، فقال من جاء بك الي ؟ فقال : والى من اذهب يا أبا عبيدة ! اني اريد ان اذكرك بعض هذا الامر ، قال فعليك بمنزل حاجب قال : وما أصنع به ولست حاضرا ؟ قال فاني آتيك هناك ، قال فخرجا حتى أتيا منزل حاجب قال فدخلا

البيت فتكلما كلاما كثيرا ، فكان آخر ما سمع من ابى عبيدة ان قال يا حمزة على هذا القول فارقت غيلان ، قال فخرج ابو عبيدة ثم كلمه حاجب قال فكان هيبته من حاجب أعظم من هيبته من ابى عبيدة ، قال فقال حمزة انما أخذت هذا الكلام من عند المسلمين ، قال ، فقال له حاجب لم تدرك أحدا الا وقد ادركته ولقيته الا جابرا . فعن من أخذت هذا القول ؟ قال منك أخذته ، قال ، فقال له حاجب ثاني ارجع عنه ، فارجع عنه كما رجعت ، قال ، فقال ارفق بي يا ابا مودود وأقبل مني ما أقول لك . قال : هات قال اقول : « ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك » . فالحسنات من الله والسيئات من العباد واقول « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » ، قال فقال له حاجب اما من غيرك فمقبول منه هذه الجملة ، وأما منك فانا اعرف مذهبك فيه أولا ، قال فخرج حمزة من عنده . قال فسئل عنه حاجب فقال ارفقوا بحمزة ، ولا تقولوا فيه الا خيرا ، قال فمكث بذلك ما شاء الله ثم بلغهم انه مشى الى النساء فكلمهن فى ذلك والى الضعفاء ، قال فلما بلغ ذلك ابا عبيدة وحاجبا أمر أبو عبيدة حاجبا ان يجمع له الناس فمشى اليهم وأعلمهم و وعدهم ، فاجتمعوا ولا يعلمون ما يريد ابو عبيدة وحاجب قال فتكلم المتكلمون وحاجب ساكت لا يتكلم قال فلما فرغوا تكلم حاجب فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال ان حمزة وعطية والحارث احدثوا علينا احداثا فمن آواهم أو جالسهم فهو عندنا الخائن المتهم ، قال ، فتفرق الناس وطردوهم من المجالس ولم يقربهم أحد .

بعض ما يؤثر عن ابى عبيدة

قال ابو سفيان قال المعتمر بن عمارة ، قلت لابى عبيدة انك لأحب الى من ابى ، قال فذلك ينبغى لك يا معتمر أن تكون لانك بذلك بذلت لى ما تبذل له،يعنى الولاية،وقال خبرنى بعض بنى يسر ، قال قدم الينا ابو عبيدة مرة حاجا ، ومعه امرأة من المهلبيات ، قال وهى جدة «سعيدة» أو عمتها ، قال فلما فرغوا من حجهم ، قالت : يا ابا عبيدة انى أريد المقام بمكة ، قال لا تقيمى ، الخروج أفضل لك ، قال ابن مسروق ، فقلت : وانا اخرج معكم يا ابا عبيدة ، قال ، فقال : أما انت فأقم ، قال فقلت تأمر هذه بالخروج معك وتأمرنى بالقيام ؟ قال لانك انت قريب من مكة ، ونحن بعيد منها ، قال ومسكنهم اذ ذاك بزرة (1) ، قال ابو سفيان يعنى بقوله انتم قريب منها يعنى الطواف وبعيد من شر أهلها كانه يكثر المقام بها للتجارة .

ابو عبيدة يوصى الربيع لينوب عنه فى الموسم

وقال لما بعث ابو عبيدة الربيع للناس أيام مرضه قال له الربيع : يا ابا عبيدة ، قد كنت تحضر أنت ، وحاجب ، وحائظ الوائلى ، فما تكاد ولا تقومون لما يرد عليكم فكيف بى ؟ فقال له ابو عبيدة ، يا ربيع انه ليس بينى وبين الناس سوط ولا سيف ، من جاءك موافقا لك يقول بقولك فبها ونعمت ، ومن أتاك مخالفا عليك فأبعد الله من أبعده وقل بما تعرف ودع الناس لما هم فيه . وقال جاء المختار ابن عوف الى منزلنا فخرج اليه أخ لى صغير كان أكثر من « مجبر » فأخذه وقبله ، فقال له الصبى : يا عمى زوجنى ابنتك ، قال قد فعلت يا بني ، وابنته يومئذ صغيرة ، فلما خرج ابو حمزة وقع فى قلبه مما قال الفتى شىء ، فمضى حتى دخل على ابى عبيدة ، فقص عليه القصة فقال يا ابا

---

(1) اسم قرية وفى نسخ برزة

(2) كذا فى النسخ ، وتعليق ابى سفيان يشير الى ان هناك جملة لم يثبتها النساخ.

حمزة هما على نكاحهما ، حتى يبلغا ، فيعلمان الخبر فان رضيا كان نكاحهما جائزا ، وان كرها فلا شيء ، قال أبو حمزة يا ابا عبيدة فكيف القول في الصداق ، قال ما قال الغلام ، قال وكان أبو حمزة قد قال للغلام يا بني فما تعطيها ؟ قال من سرير جدى الى الباب دراهم ، قال ابو عبيدة فهو كما قال ، ان قال درهم الى درهم الى الباب ، وان قال مرة واحدة أو هكذا لك ، فالقول ما قال ، قلت وهذا كله فيه نظر غير ان أبا عبيدة لا يترك القول سدى .

ابو عبيدة يفحم واصل بن عطاء

وحكى بعض اصحابنا ان واصل بن عطاء المعتزلى صاحب عمرو بن عبيد كان يتمنى لقاء ابى عبيدة، ويقول : لو قطعته قطعت الاباضية ، قال فبينما هو فى المسجد الحرام ومعه اصحابه ، اذ أقبل ابو عبيدة ومعه اصحابه ، فقيل لواصل هذا ابو عبيدة فى الطواف ، قال فقام اليه واصل فلقيه ، وقال انت ابو عبيدة ، قال نعم ، قال : انت الذى بلغنى انك تقول : ان الله يعذب على القدر ، فقال ابو عبيدة : ما هكذا قلت ، لكن قلت ان الله يعذب على المقدور فقال ابو عبيدة ، وانت واصل بن عطاء ، قال : نعم ، قال انت الذى بلغنى عنك انك تقول ان الله يعصى بالاستكراه قال فنكس واصل رأسه فلم يجب بشيء . ومضى ابو عبيدة وأقبل اصحاب واصل على واصل يلومونه يقولون كنت تتمنى لقاء ابى عبيدة ، فسألته فخرج وسألك فلم تجب ! فقال واصل : ويحكم بنيت بناء منذ أربعين سنة فهدمه وانا قائم ، فلم اقعد ولم ابرح مكانى .

ضمام بن السائب

ومنهم ضمام بن السائب رحمه الله كهف اليتامى والارامل ، المفزوع اليه فى النوازل ، فطال ما أوصى عليه

أبو عبيدة في الفتاوى والمعضلات ، فانكشفت باجوبته ظلم المشكلات ، وكان ذا رفق وتلطف ، واجتهاد وتقشف ، حكى أبو سفيان قال : اشتكى ضمام بن السائب شكاة ، فدخل عليه الربيع يعوده ، فوجد رجلا من المسلمين يسمى « عمران » وهو يقول يا ابا عبد الله ان فى نفسى لشيئا وانى لأظيق عنه : ان يكون الله أمر العباد بأمر ثم يحول بينهم وبينه ! قال ، فقال له الربيع يا عمران اخبرنى هل توفيق الله وتسديده واحسانه ومنه ، وفضله على ابى بكر وعمر كتوفيق الله وتسديده واحسانه ومنه وفضله على ابى جهل ؟ قال : لا ، والله ، قال فقال ضمام اشدد يدك يا ربيع يعنى قم بالحجة عليه ، قال ، ثم قال ضمام : ما هو الا ما ترى .

تفنن الحجاج فى تعذيب المساجين

وقال بلغنا عن ضمام حين سجنه الحجاج هو وابو عبيدة قال ادخلنا فى سجن قال فلم يكن يوصل الينا ، ولا يدخل علينا حديدة ولا جلم ، قال وانما كنا نقص شواربنا باسناننا ، وان كان الرجل منا لينفض لحيته فيتساقط منها القمل ، قال وانما كان يطعمنا خبز الشعير والملح الجرش قال ويعمد الى مراكن عظام فيسكب فيها الماء ثم يؤتى بملح فيلقى فى تلك المراكن ثم يضرب حتى تخرج رغوته ثم يقال : يا اهل السجن خذوا ماءكم ، قال فمن أخذ من أوله كان امثل قليلا ، واما من أخذ من اسفله فهو العذاب قال فكان ضمام ربما ضاق فيقول له ابو عبيدة ويلك ما هناك على من تضيق وعلى من تدل ؟ قال فلم يخرجوا من سجنه حتى مات الفاسق .

قال وعمد الى ثلاثة رجال من رؤساء الخوارج فبنى عليهم بيتا من قصب وطلى داخله وخارجه بالعذرة ثم

ادخلهم فيه ، قال فقاموا ثلاثة ايام فماتوا ، ثم وقع الموت فى أهل السجن فبلغ ذلك الحجاج فأرسل الى طبيب له مجوسى فقال له : ويحك ان أهل السجن وقع فيهم الموت وانى لأحب تعذيبهم . قال ، اجعل طعامهم الزيت والكراث قال ابو سفيان ، قال ضمام : لما جاءنا بالزيت والكراث قوينا عليه وسمنا ، قال فيقال للمجوسى ، ويحك ماذا اردت بهذا لو تركتهم فماتوا لكان أروح لهم ، قال وأى راحة لهم في الموت ؟ ولعل هذا ان يموت فيخرجوا ، ومن مات فلا مطمع فيه .

وكان رجل من أهل خراسان من المسلمين وكان بمنزلة عظيمة بأبى عبيدة وضمام والمشائخ ، وله قدر فى أهل بلده ، اتاه يوما ضمام فذكر رجلا من المسلمين فتنقصه ، فقال ضمام : مه ، لا تفعل فعاد فنهره ، قال فقال تبرأ الله منه قال بل يتبرأ منك ، قال ، فقال أتبرأ منى يا ضمام ؟ قال انت احللت لى ما ترى ، والجاتنى اليه ، اترى انك تتبرأ من رجل نتولاه فأتولاك ؟ بئس ما ظننت ، قال ، فانى استغفر الله واتوب اليه ، قال غفر الله لك .

حاجب الطائى

ومنهم ابو مودود حاجب الطائي رحمه الله ، كان بالاجتهاد موصوفا ، وبالزهد والورع معروفا ، وفى ماله حق للسائل والمحروم ، على انه ليس بالأعلى فى تحصيل العلوم ، بيد أنه فى الافاضل معدود ، ورسمه فى أكثر أثارهم موجود .

حكى ابو سفيان قال ، قال المليح : بلغنا ذات ليلة ان فى منزل حاجب مجلسا للذكر قال أبو سفيان وكان المشائخ

لا يحضرون معهم بالليل الفتيان ، قال المليح ، فقلت لرجل من أهل عمان انطلق بنا الى منزل حاجب فلعلهم يأذنون لنا ، قال فسرنا حتى جئنا المنزل ، فأذن لنا ، فوجدنا عنده المختار بن عوف ورجلين أو ثلاثة من المشائخ ، قال ، فقال لى حاجب : يا مليح اذهب انت وهذا العمانى الى بلج بن عقبة فأخبراه بمكاننا ، وقولا له يأتينا . قال ، فسرنا اليه فاعلمناه ، فجاء . قال المليح فصلينا العتمة ثم أخذنا فى المذاكرة ، قال ربما قام أحدهم قائما فيتكلم ما شاء الله ثم يجلس ، فيقوم الآخر كذلك حتى اضاء الصبح ، قال المليح فما رأيت أحدا بعد تلك الليلة ، ولا رأيت قبلها متكلما قائما فى مجلس ، قال وكان شعيب بن عمر من افاضل الفتيان يومئذ ، وكانت اخته تحت حاجب ، قال فجاءه تلك الليلة فاخبر به حاجب ، فقال ، ردوه . قالوا له : يا ابا مودود سبحان الله جاء من السماح فى هذه الساعة وترده ! فقال ، ردوه ، فردوه . قال وكان بين منزله ومنزل حاجب نحو ثلاثة أميال ، قال ، وبلغ حاجبا ان فى منزل عبد الملك الطويل مجلسا بالليل تكثر فيه الجماعة ، ويكون لهم كلام يسمعه الجيران ، قال فبعث اليهم ، وقال : يا عبد الملك ، ارفع عن نفسك ، ما هذا الذى بلغنا انكم تفعلونه ؟ قال انا لنفعل ، فان امرتنا بتركه تركناه . قال فانكب طويلا ، ثم قال والله لان تكونوا تخافون فتعمرون خيرا من ان لا تخافوا وتخربون ، اعمروا مجالسكم فان الله يحفظكم قال فما بلغنا انه ظفر بهم فى مجلس قط . الا انهم كانوا ذات مرة فى عهد زياد أو ابنه اتاهم الخبر بان الخيل تريدهم ، قال فخرجوا مسرعين ، وتركوا نعالهم على باب البيت الذى كانوا فيه ، قال فجاء الشرط فنظروا الى

النعال ، فقالوا لعجوز صاحبة البيت : ما هذه النعال ؟ قالت مكاتب لنا يسأل الناس فيعطى النعال وغيرها ، قالوا تالله ما ذلك كما ذكرته وان بهذا الموضع ريبة ، قال فقال بعضهم ويحكم قد ذكرت العجوز ما ذكرت فلا تعرضوها للبلاء ، فلعلها ان تكون صادقة ، قال فعافاها الله منهم ، قال ولقد بلغنى انهم كانوا يأتون المجالس أيام زياد وابنه فى هيئة النساء فى النقاب ، وغير ذلك ، يتشبهون بالنساء قال وان كان احدهم ليحمل على ظهره جرة بماء ، أو يحمل جملة متاع كأنه بياع حتى يدخل المجالس لا يدعونها لشىء .

اخوانه يتحملون عنه دينه بعد موته

قال أبو سفيان مات حاجب وعليه دين مائتان وخمسون ألفا أو اكثر ، قال فدخل قرة بن عمر وجماعة من المسلمين ليغسلوه قال فقال لهم قرة : يا قوم ، ما تقولون فى دين هذا الرجل ؟ قال فابتدر ثلاثة رجال وقرة رابعهم وضمنوا دينه ، قال ، ودخل الفضل بن جندب وكان من خيار المسلمين وكان موسرا ، فاخبره ، قال فقال لهم الفضل : دينه علي دونكم حتى اعجز عنه ولا يبقى لى مال . فقالوا له شأنك ، فمات الفضل قبل ان يؤدى عن حاجب ، وأوصى الى ابى عبيدة عبد الله بن القاسم ، والى امرأته أم الصلت ، والى حبيب ابن سابور ، والى ابى سنان البنانى ، وكان الفضل لا يولد له ولد ، ولم يدع وارثا ، وكان مولى للازد فلم يقبل حبيب بن سابور ولا ابو سنان الوصية ، قال ومات ابو عبيدة ورد الوصية الى أم الصلت ، وقال فباعت داره بالبصرة ، وداره بعمان ، حتى اوفت ما كان ضمن الفضل من دين حاجب رحمه الله .

وكان للفضل بن جندب على رجال مال ، فوقع ماله عند قاضى البصرة عبيد الله بن الحسن بن أخى أبى الحر ، قال فاردنا ان يثبت عنده ان أم الصلت وصي زوجها الفضل ابن‌جندب فلم يشهد شهودا الا شهودا يشهدون انه اوصى اليها،والى ابى‌عبيدة،والى حبيب بن‌سابور،والى ابى سنان البنانى ، قال وكان حبيب وابى سنان لم يقبلا الوصية قال فلما لم يقبلا الوصية خفنا ان يدخل القاضى من عنـــده رجلين فى الوصية مكان هذين اللذين لم يقبلاها ، فيفسد علينا الامر قال فجئنا الى البيع بن حبيب فسألناه هل يجوز للشهود ان يشهدوا ان الفضل أوصى الى امرأته أم الصلت ولا يذكرون ابا عبيدة ولا صاحبيه ؟ قال ، نعم ، انهـــا اوصي زوجها ، ولا عليهم ان لم يذكروا غيرها الا ان سئلوا فلا بد لهم حينئذ ان يأتوا بالشهادة كما استشهدوا . وان لم يسئلوا فلا بأس عليهم وان لم يسموا غيرها ، قال واما عبد الله بن القاسم فضاق من ذلك وقال لا يجوز ان يشهدوا الا كما استشهدوا ، قال وقال وائل انما الفقـيه الذى يعلم للناس ما يتسع الناس فيه مما سئل عنه ، وأما مـــن يضيق عليهم فكل من شاء أخذ بالاحتياط .

انما الفقيـه من يذكر للنـاس ما يسعـهم ، لا الذى يضيق عليهم

وحكى ابو سفيان عن وائل ، قال : قد قدم حاجب مكة فى العام الذى وقع فيه بين أهل حضرموت ما وقع فى أمر عبد الله بن سعيد ، قال وكانوا قد انكروا عليه أشياء حتى شدوه فى الحديد ، وبايعوا رجلا يقال له حســن ، قـــال وخالفتهم طائفة يكرهون ما فعل بعبد الله بن سعيد ، الا ان ذلك موافقة من جماعتهم ، قال فبعث هؤلاء رجـــالا ، وبعث هؤلاء رجالا ، قال وائل وكنت فيمن خرج يومئذ ، قال فوافقنا حاجبا تلك السنة قد قدم ، قال ، فدخلنا عليه

الخـروج على الظلمـة لا يجب الا على مـــن تطـوع لـه

وهو ارمد قال ، فقال لقد خرجت من البصرة فما ابصر سهلا ولا جبلا ولا أخرجني بعد ما ارجو من قضاء نسكي الا أمركم يا أهل حضرموت ، فانكم قد غلبتمونا ، قال وائل : فقلت رحمك الله يا ابا مودود لا تفعل ، فانا لا نخرج عن رأيك ، قال فقال لي اسكت فوالله ما اريدك ولا أصحابك ، قال ثم تكلم الفريقان ، قال فقال الذين انكروا على عبد الله بن سعيد وبايعوا « حسنا » على الشراء : يا ابا مودود ،من أحق بالقيام المدافع ام الشارى ؟ قال بل الشارى احق ، قال فقال أصحاب ابن سعيد : يا ابا مودود أما اذا شروا فليخرجوا عنا فانا لا طاقة لنا بالحرب ، ولا بما يجرون علينا منها ، قال فقال صدقوا اخرجوا عنهم ، قال فقالوا يوجلوننا شهرا ، قال ، فقال لهم حاجب لا والله ولا ثلاثة أيام الا برضاهم ، قال ابو سفيان وكان حاجب هو القائم بأمور المسلمين في مثل هذه الاشياء من أمر الدين والفتاوى .

يتاخر عن رفقته ليشهد الجمعة

وقال : حبس حاجب ذات سنة فلم يخرج حتى بقى للموسم ثمانية أيام ، فاراد الخروج هو وجماعة معه ، قال وكانوا على نجائب لهم ووافق خروجهم يوم الجمعة ، فأتاه أصحابه فقالوا له : اخرج بنا يا ابا مودود ، قال في نفسي من الجمعة لشيء قالوا سبحان الله ! انما بقي للموسم ما تعلم ، قال اخرجوا أنتم وانا ألحقكم ، قال ، فخرج القوم وتخلف حاجب حتى صلى الجمعة ثم ركب فلحقهم على مسيرة ليلتين من البصرة ، قال وكان حاجب يقول لعبد الملك الطويل فيما يؤدبه فيه : « يا عبد الملك اذا كان احد يعيب عليه المسلمون أشياء تكون بينه وبين الله تعالى فتشاوروا في أمره وعظوه ، وأحضروه مجالسكم ، وارفقوا به جهدكم

ارفق بمن يخطىء فيما بينه وبين الله تعالى

عسى الله أن يتوب عليه،واذا كان أحد يعيب عليه المسلمون في خلافهم في الدين ، وارادته ان يشغب عليهم ويفتق بينهم فتقا ، فأبدوا عورته ، واهجروه ، ولا تحضروه مجالسكم واعلموا الناس به ليكونوا منه على حذر أو يتوب » .

أبو عبيدة عبد الله بن القاسم

ومنهم أبو عبيدة عبد الله بن القاسم رحمه الله ، أحد فضلاء من اقام بالامصار ، وفقهاء تلك الاعصار،والمستعين على اقامة الدين من أولئك الانصار ، لا مقصر ان بدا من احد الاقصار ، وكان ممن طبع على القصد والاقتصار ، قال ابو سفيان : اقام عبدالله بنالقاسم بمكة زمانا وليست له امرأة ، قال فقال له اصحابه يا ابا عبيدة لو تزوجت ؟ قال ما اريد ذلك ، قال فلم يزالوا به حتى فعل ، قال وكانت امرأة من المسلمين موسرة كثيرة المال ، فقالوا له ، تزوجها فانها تكفيك لا تكلفك مؤونة ، قال اما اذا ابيتم الا ذلك فابلغوا مهرها مهر جيلها (1)ولا تنقصوها شيئا قال ففعلوا قال فتزوجها فلما دخلت عليه طابت له نفسها على الصداق كله وتركته له ، قال وكان يأتي منزل بن جندب ومعه قرصان من خبز وملح ، قال وكان الفضل يطيب الطعام ويكثره ، قال فيقول سبحان الله يا ابا عبيدة تفعل بى مثل هذا قال دعني منك والا لم ادخل عليك منزلا ، قال فتركه ولم يلح عليه بعد .

يترك نصيبه في الربع من المال المراب

قال ابو سفيان وكان ابو عبيدة عبد الله بن القاسم تاجرا خرج الى الصين ثم رجع فكأن في بعض ما يتجر به

---

(1) يعني من هن في مكانتها

اشترى قوم عودا ، قال فسألهم ان يشتركوه ، ففعلوا ، قال فاقبلوا يعيبون العود عند صاحبه حتى استنقصوه ، عما كانوا قد اشتروا به ، فظن ابو عبيدة انهم صادقون فيما قالوا ، قال فلما خرجوا من عنده وكان نقدوا الثمن ، ونقد أبو عبيدة معهم عشرين دينارا ، فأقبلوا يمدحون العود ، ويقولون ما رأينا مثله ، قال ، فقال لهم ابو عبيدة سبحان الله ! تعيبون عود الرجل بلا عيب فيه ، ردوا علي رأس مالي ولا حاجة لي في مشاركتكم ، قال ، فاغتنموا منه فردوا عليه ماله .

يدعو عليه بكثرة المال لانه يراه شرا

وقال غضب عبد الله بن القاسم بن سابور في أمر وصية الفضل بن جندب وكان سلفا للفضل ، قال فقال له ابو عبيدة لأدعون الله عليك ، ثم قال اللهم أدخل بيته قناطر الذهب والفضة ، قال فقال يا ابا عبيدة انك انما دعوت له ! قال لا والله ، ولكنني دعوت عليه ، وأي شر أشد عليه من ان يدخل بيته قناطر الذهب والفضة ؟

وقال سمعت وائلا يقول : لما مات ابو جعفر اخذ الناس في البيعة واخذ عليهم ابواب المسجد الحرام، قال وكان عبد الله بن القاسم والفضل بن جندب وعلي الحضرمي ووائل في المسجد فلطف الله بهم فنجوا وخرجوا من المسجد ، قال وائل ، فقلت يا ابا عبيدة لو اخذت ما تراك صانعا ؟ قال تذهب والله نفسي دون أن أعطيهم هذه البيعة .

أبو نوح صالح الدهان

ومنهم ابو نوح صالح الدهان رحمه الله ، شيخ التحقيق واستاذ أهل الطريق ، وناهج طرق الصالحين ، وناقض

دعاوى الزائغين الجانحين ، أخذ عنه الحديث والفروع ، وكان ذا خشية لله وخضوع .

عاتكة بنت ابى صفرة تستفتى جابرا

ابو سفيان قال دخل ابو نوح على عاتكة بنت ابى صفرة وكانت من المسلمات ، فوجدها فى البيت ، فقال كانى أرى مجلس رجل قالت ، نعم الآن خرج من عندى « الاحو ل » تعنى جابرا ، قال وكان جابر يغمز باحدى عينيه من غير علة ، قال فهل ظفرت منه بشىء ؟ قالت نعم سألته عن ثلاثة اشياء كن فى نفسى سألته عن لباس الخفين ، قال ان كنت تلبسينها من حر الارض وبردها وخشونتها فلا بأس، وان تلبسيها لا تبالين ان تنكشفى ، فلا . وسألته عن حلي عندى ليتيمة يقوم بمال فيستعار منى ، قال ان اعرته فانك ضامنة ، وعن عبد كان من أنفس مال عندى وأوثقت فى نفسى أن اعتقته لوجه الله ثم استخلفته عن ضيعتى ، قال اخرجيه ولا تدخليه فى شىء من منافعك ، قلت : هذه وان كانت لمناقب جابر صولا فانما اثبتها هاهنا لتعلم حرص أبى نوح على تحصيل الفوائد من كل من يثق به ، لا يانف عن التقاطها حيث وجدها والبحث عليها فى مغانيها .

. أبو روح ومازن

ومنهم أبو روح ومازن ابني كنانة رحمهما الله ، كانا مطبوعين على الصلاح ، وحب سلوك مسالك النجاح، وخدمة الاشياخ ، وملازمتهم فى الغدو والرواح ، وانهما وان سبقتهما السوابق ، فكلاهما من غير فتور ، مدرك لاحق .

اجتهادهما فى التقوى والعباده

روى ابو سفيان عن يسار صاحب البكر ، قال ابو سفيان وكان من خيار من ادركته انه اخبره عن والدته ،

قال وهى يومئذ ابنة ثمانين سنة ، أنها قالت : « ادركت اخوين من بنى راسب يقال لاحدهما يبرح (١) والآخر مازن ابنا كنانة ، وكانا من خيار من مضى من أهل الدعوة وكانا من نظيرى أبى بلال وعروة ، فى زمانهما ، قال واما يبرح فكان رجلا عابدا مصليا لا يفتر عن العبادة حتى دبرت ركبتاه ويداه ورجلاه وجبهته كركبة البعير ، قال وكان قد اتخذ سربا فى الارض يعبد الله فيه ، قال ابو سفيان قال يسار ادركت سربه ذلك ، وكنا نلعب فيه ، قال فحضرت الوفاة يبرح فقعد مازن عند رأسه ، قال فرآه يجود بنفسه ثم أفاق ، قال : أى اخى اين تراها تعمد ؟ ـ يعنى النفس ـ قال الذى كانت تعبد،قال وأما مازن فانه لما حضرته الوفاة أقبل يجود بنفسه فصاحت بناته قال ، فاناق افاقة ، وقال يا بناتى لا تبكين فان اباكن من ساعة هو الباكى ، أو الضاحك . قال يسار اخبرتنى أمى قالت كنت فى بعض المجالس وهم يذكرون الله اذ ذاك دخل رجل مقنع بثوبه فهوى ، وجلس ناحية من المجلس ، وهم لا يعرفونه ، قال فلما تفرغ المتكلم قام فنزع ثوبه عن رأسه فاذا هو مازن بن كنانة ، قالت فقام قائما فقال : انى لا اخبركم الا بما رأت عينى ، أو سمعت أذنى ، أو عن خير من رأى وسمع ، قالت ، ثم اقتص الفتن المتقدمة واحدة بعد أخرى ، ونبه على من انجاه الله منها ، قالت فما رأيت متكلما مثله ، قلت ويبرح هو المكنى أبو روح فيما زعم لى بعض اصحابنا .

---

(١) لعلهم يحرفون اسمه الى يبرح فنطقت به كما جرت به السنتهم كما سينبه الشيخ الى ذلك .

أبو محمد النهدى

ومنهم ابو محمد النهدى رحمه الله ، المظاهر ، المعالن المجاهد غير المداهن الحافظ للتقى، المفارق للادناس المباين، بصر الله بصيرته الباصرة ، فلم تكن عن هذه قاصرة، ففاز بالصفقة الرابحة ، ووقي الصفقة الخاسرة .

حكى ابو سفيان قال كان رجل من المسلمين يقال له ابو محمد قال كان قد ابصر الاسلام من قبل نفسه ، قال وكان بدأ ذلك انه كان يخرج الى المغازى فنظر الى ما يعمل الناس من الغلول والجور ، فقال ما هذا بفعل أولياء الله وأهل الايمان ، ثم نظر الى صلواتهم وقيامهم بالتوحيد والاقرار بالنبوءة قال وما هذا بفعل المشركين ، فانصرف الى البصرة وكان له مسجد يجلس فيه ويحدث ويقص ويذكر . قال وكان يصف الاسلام ، ويقول : ان أهل الاحداث من القبلة كفار ليسوا بمشركين ولا مؤمنين ، قال فبلغ أمره جماعة من المسلمين فقال بعضهم لبعض : « هذا الرجل قد ترونه وما يصف ، فهلموا بنا اليه لنواصفه هذا الامر ، فلعله يقبل » ، اتته منهم جماعة فواصفوه الامر ، ووصفوا له ما هم عليه ، قال ، فقال هذا هو الحق ومازلت على هذا منذ دهر ، ولم اجد احدا يوافقني عليه وما ظننت اذا ان أحدا يقول بهذا القول ، قالوا بلى ، والله ان لك اعوانا على هذا واخوانا . قال فكان ابو محمد من افاضل المسلمين ، قال وكان يظهر هذا الشأن ويبرح به ، وكان يدعو فى مسجده على خالد بن عبد الله ، وعلى هاشم بن عبد الملك ، قال وكان على البصرة بلال بن ابى بردة بن

ان لك على طريقتنت اخوانا انت لا تدرى

ابى موسى ، قال وكان طريق بلال على مسجد ابى محمد قال فارسل اليه يأمره بالكف عن ذكرهما فلم يفعل ، قال فقال له يا ابا محمد اذا رأيتني مقبلا فكف حتى أمضى عنك فلم يكن يلتفت الى قوله ولا يدع ما هو عليه .

قال ابو سفيان قال ابو محمد النهدى : لا تذكروا الحسن فى شيء من القدر فانى عاتبته فيه ، فقال معاذ الله ان أقول ذلك ، انما أفسد علي قلبى واصل بن عطاء أيام كنت عنده مستخفيا ، فاما ان اقول بالقدر فمعاذ الله ، قال وكان ابو محمد يقول هو أبعد الناس من القدر .

ابو يزيد الخوارزمى

ومنهم ابو يزيد الخوارزمى رحمه الله احد النبهاء الحاذقين والموصوفين بالفضل جملة على الاطلاق ، والمشار اليه فى مشيخة العراق ، والواقع على اماتة الاصفاق ، وعلى الرضى برأيه ودينه الاتفاق ، ذكر عن ابى يزيد : انه قيل له ما تقول لو ان رجلا لقي عالما يقول له ان الامر الذى انت عليه وانت فيه حرام ، فقال له الرجل ، فانا اترك هذا الحرام ، ولكن لا آخذ ذلك عنك حتى اسأل من هو اعلم منك ، فلم يسأل الرجل حتى مات ؟ قال ابو يزيد مات هذا مسلما ، اذا كان فى طلب السؤال تائبا فمات على ذلك .

عبد الله طالب الحق وابو حمزة الشارى

ومنهم طالب الحق عبد الله بن يحيى واصحابه الشراة كأبى حمزة ومن معه من أولئك الشراة رحمهم الله : اما

ابن يحيى فنعم الامام ، الداعي الى نصرة دعوة الاسلام غير ما كان حدث من الجور ، حتى عاد به العدل الى الكور بعد الحور ، فانمحت به ظلم الظلم ، فلم يبق حوله الا داع الى الاسلام أو السلم ، كان اسدا فى نجدة وشجاعة فى دين الله ، وخشية لله وطاعة ، والبحر جودا وعلما ، والطود سموا وصيانة وحلما ، واما ابو حمزة فأشد فى الحرب ، المستعد للطعن والضرب، ليث فى الهيجاء ان ركب، وغيث في الآراء اذا وهب، وبحر عجاج اذا وعظ واختطب، الحصر يعدوه قصر أو أسهب ، ذو رفق ولين لاولياء الله المتقين ، وذو غلظة على الشاقين ، وجميع اخوانهما على هذه الطرائق، متخلقون بمحمود الخلائق، ليس من الكل الا جاهد أو مجاهد، مخالف الارق، ساهد ، قاطع ليله فى الهجود ، بالركوع والسجود ، وتلاوة القرآن والضراعة الى الرحمان والحراسة في سبيل الله ، وكف اعداء الله ، منفد ايام العمر فى احياء العلوم ، وانجاد المظلوم ، ومحو ما ارتسم للباطل من الرسوم ، هاجروا فى سبيل الله الاوطان والمال ، وربوا بانفسهم على اتخاذ النشب والمال وآثروا أولياء الله ، وقاتلوا أولياء الشيطان ، وشرفوا انفسهم ابتغاء الرضوان ، فلم يلتفتوا الى زهرة الحياة الدنيا ، حتى فارقوا ثوب المحيى ، فودع كل منهم حميدا واقل بعيدا (1) ، وسأثبت ما بلغنى من اخبارهم على انها نبذ من بعض آثارهم .

نحن احوج الى العمل لا الى الوصف والقول

روى ابو سفيان ان ابا عبيدة كان فى مجلس يذكر فيه فذكر النار وما اعد لاهلها ، وخوف بها ، ثم ذكر الجنة وما اعد فيها لاهلها ورغب فيها ، قال وكان ذلك ايام

(1) كذا بالنسخ التى بايدينا

عبد الله بن على ، والمختار بن عوف قال وكان رجل من المسلمين يقال له ابو الوزير قاعدا فى المجلس فلما سكت ابو عبيدة وفرغ من كلامه ، وثب اليه ابو الوزير فقال : يا ابا عبيدة لو اردنا الجلوس الى ما كنت فيه لجلسنا الى من هو اوصف لما كنت فيه منك من قومنا، ألا ترى أمر اصحابك وتحض على نصرتهم والعون لهم ؟ فنحن الى ذلك احوج منا الى ما كنت فيه ، يعنى عبد الله بن يحيى ، وابا حمزة المختار ، قال فقال ابو عبيدة يا ابا الوزير انما يتكلم الرجل بقدر ويسكت الى أجل .

اخبار ثورة طالب الحق واصحابه على بنى امية

وروى عن وائل قال لما قدم عطية بن عبد الملك حضرموت وكان مروان بن محمد قد بعثه الى ابى حمزة المختار بن عوف حين ظهر على مكة والمدينة ، قال فلقى بلجا بوادى القرى فقتله ، وكان الفاسق فى عسكر فيه ستة آلاف فيما ذكر ، فتنحى ابو حمزة الى مكة . فلحقه بها فقاتله حتى استشهد ابو حمزة ومن استشهد معه من المسلمين رحمهم الله .

قال ثم خرج القاسم يريد اليمن فليقيه الامام عبد الله بن يحيى بموضع يقال له «حرش» وقاتله حتى استشهد رحمه الله ومن استشهد معه .

قال ابو سفيان وكان بها رجل من بنى كلاب يقال له نافع فجاء الى عطية بن عبد الملك فسأله ان يعطيه جثة عبد الله بن يحيى ليصلبه على بابه ، قال ، ففعل وكان عطية جسيما قال فخرج نافع من بيته فنظر الى الجثة فاذا عليها نور ساطع فلما عاين ذلك أنزله وكفنه ودفنه ، ثم

يتعظ به ميتا فيتوب

ذهب من «حرش» حتى وقع الى الحجاز بقرية يقال لها «القوع» فسكنها ووافق بها قوما من الصفرية فاجابهم الى الصفرية ، قال وكان الشقي يرى انهم على مثل ما مات عليه ابن يحيى ، قال وكان لنافع ابن يقال له محمد وهو الذى يحدثنا بهذا الحديث عن ابيه وكان محمد، قد ابصر ـ ذلك ـ

قال ابو سفيان ، قال وائل فقدم الفاسق عطية بن عبد الملك الى حضرموت ، قال وائل فقاتلناه فتحصن فى قرية حصينة ، فاقمنا عليه اربعا وعشرين ليلة نحاصره ، فلما طال به الحصار وخاف على نفسه سأل الصلح فصالحناه على انَ يرد كل ما كان فى عسكره مما اصابه اصحابه من أموال المسلمين ، قال فدخل المسلمون عسكره فاخذوا كل ما كان لهم ، ويأتيه كتاب مروان بن محمد ان دع ما انت عليه والحق الموسم فصل بالناس ، وأمره بالعجل ، قال وتم الصلح بيننا وبينه قال فخرج منفردا فى ستة نفر فبادر الموسم وعسكره على أثره ، فنزل قرية من قرى اليمن ، فوافق فيها رجلين اخوين من المسلمين ، يقال لهما « ابنا جمانة » فشعرا بمكانه وقالا والله ما جاء هذا الفاسق الا منهزما ، فمشيا اليه فى نفر معهما ، فلم يشعر بهم حتى دخلوا عليه وقتلوه ، وقتلوا من معه ، وحزوا رؤوسهم ، وانطلقوا يريدون عسكر المسلمين ، ولا يشكون ان عسكره قد مزق ، وقتل أهله ، فبينما هم سائرون اذ لقوا عسكر عطية والرؤوس معهم ، قال فسألهم أهل العسكر عن عطية فقالوا قد تقدم ، فسلمهم الله منهم ، ولقد كان احدهم قاعدا فى الجواليق الذى كان فيه رأس عطية ورؤوس أصحابه .

ابو مودود حاجب يتجند لجمع الاموال مددا للثورة

وقال ابو سفيان لما خرج الامام عبد الله بن يحيى ووجه ابا حمزة المختار بن عوف أقام حاجب فجمع له أموالا كثيرة ليعينه بها ، قال فكتب على كل موسر من المسلمين قدر ما يرى قال فما امتنع عليه أحد قال ودعا ابا طاهر وكان شيخا فاضلا قال عليك بالنساء . وأوسط فانا نكره ان نكتب عليهم ما لا يحملون ، قال فانطلق ابو طاهر فيمن انطلق معه من المسلمين قال فلم يأتوا يومئذ امرأة ولا رجلا الا وجدوه مسرعا فيما سألوه ، قال وكان رجل من المسلمين لم يكن احد يرى انه صاحب مال فدفع اليهم ثلاثة آلاف درهم ، قال فقال له ابو طاهر أي اخى العيال فقال الله لهم ، والله ما رأيت منذ كنت وجها مثل هذا انفق فيه ، فاذا وجدته أفأدعه ؟ ولا يرجع الي منها شيء ولكن يا عبد الله لا تخبروا باسمى ما بقيت ، قالوا ففعلوا فلم تمس الليلة الا وجمع ابو طاهر عشرة آلاف درهم ، قال فأتوا حاجبا فاخبروه فسر بذلك ، وقال ان فى الناس لبقية بعد ، قال فاشترى بتلك الاموال سلاحا ووجهه ووجه ما بقي الى ابى حمزة رحمه الله .

لا تكون للرجل منهم مكانة ان لم يرغب فى الشراء

وقال سمعت عبد الملك الطويل يحدث عن ابى حمزة المختار بن عوف الكندى قال ادركت المسلمين ان كان الرجل منهم ما يستزاء فى صلاة ولا فى صيام ولا فى حج ولا فى عمرة ولا فى وجه من الوجوه ، ان عرف منه انه ليس بشديد الحرص فى الشراء سقط مناعينهم ونقصت منزلته عندهم .

وقوع ابى الحر فى الاسر

وقال ابو سفيان ادركت عيسى بن عمر وهو شيخ كبير يحدثنا ان مروان بن محمد بعث الى ابى الحر اذ كان بمكة فأخذ فشد فى الحديد ، واخذ رجل من الرافضية ، يقال

له اصفر فشد في الحديد ثم ساروا بهما نحو مروان قـال عيسى فخرجنا في اربعة عشر رجلا من المسلمين نتبعه قال فلما مشينا اياما ;رسلنا اليه انا ناتيكم الليلة قال فقـال لا تفعلوا، مكة منكم قريبة والطلب سريع،فسرنا على طريق الساحل وغلامه يأتينا بخبره ويأتيـه بخبرنـا ، فمازلنا نطلـب اليـه ونسـأله يدعنـا حتى نخلصـه مـن ايديهـم ، قـال فكـان يأبى ذلـك علينـا حـتى جاوزنا المدينـة بمراحل ، فأرسلنا اليـه انا قـد قربنا من الشام وقراها فدعنا نأتيهم الليلة ، قـال فأبى قـال : فأرسلنا اليه انا نأتيكم على كل حال ، فتباطأ في وضوئـك حتى لا تعجل الرحيل لنقعد مقاعدنا ، قال ففعل فتقدمنا فنزلنا عن رواحنا وعقلناها بعيدا من الطريق ، ثم جئنا امامه الى الطريق فجثمنا عليه فلما دنـوا منـا ثـرنا في وجوههم بالتحكيم والسيوف في ايدينا مصلتة ، فألقـوا بأيديهم وقالوا الامان ، الامان،قال فبادر رجل منا فاعطاهم الامان فشق ذلك على ابي الحر،قال أما اذا فعلتم فلا تختلجوا ولا تهيبوا منهم احدا ، قال فأسرناهم فأخرجنا بهم الطريق حتى أبعدناهم ، خلينا سبيلهم ، واحتملنا صاحبنا وفككنا عنه جامعته ، وفككنا عن الرافضى ، ثم اقبلنا حتى دخلنا مكة ونحن مستخفون ، قال وكان ذلك في أيام الحج ، قال فخرجنا مع أبي الحر الى منى ، ولم نحرم ثم صرنا الى عرفة ونحن غير محرمين ، قال وكنا اذ ذاك ننتظر أبا حمزة يقدم علينا ، قال ولما كان في وقت الرواح الى الموقف اذا نحـن بنواصي خيل ابي حمزة وقد اطلعت ، قال فلما رءاه ابـو الحر أمرنا ان نغتسل ونحرم ، قال ففعلنا ، ثم خرجنا حتى دخلنا عليهم في عسكرهم ، قال وكان عـلى الموسم اذ ذاك

رجل من بني مخزوم يقال له عبد الواحد ، قال فأرسل الخطباء الى ابي حمزة من قريش وغيرهم ومنهم عبد الله بن الحسن ، قال فأتونا في جماعة قال فخرج اليهم ابو حمزة وعمامته خضراء وازار متأزر به منتكب قوسه ومتقلد سيفه ، قال فتكلم أولئك الخطباء فعظموا من أبي حمزة الحج ويوم عرفة ما قدروا عليه واطنبوا في الكلام قال فلما فرغوا من كلامهم ، تكلم ابو حمزة ، فحمد الله واثنى عليه وصلى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أما ما ذكرتم من تعظيم هذا اليوم فانكم لم تبلغوا كنه ذلك ثم ذكر جور بني مروان وما هم عليه من الظلم والفسق والاعتداء قال فافحم القوم ، وسمعوا كلاما لا يعرفونه ، قال فرجعوا الى عبد الواحد فاعلموه بقوله وقالوا خصمنا الرجل ، وما قدرنا على اجابته وليس عندنا ما نجيبه به ، قال فارجعوا اليه واسألوا الموادعة في هذه الايام على ان لا نعرض له ولا يعرض لنا ، قال فرجعوا الينا فاعطيناهم ذلك،قال ووقفنا مع الناس حتى امضينا الى جمع ثم الى منى فنزلنا مؤخر منى في عسكرنا ، قال وكانت حليمة المهلبية اذ ذاك قد حضرت الموسم ، وكانت من خيار المسلمات وفضلاهن وهي أم سعيدة ، فعالجت لهم طعاما فبعثت به مع أبي وافد وابنه وكانا فاضلين،قال واخذهم الحرس،فقالوا معكم السلاح،ففتشوهما فلم يجدوا معهما سلاحا ، قال وكان طعاما كثيرا قال فحبسوهما حتى أصبح فلما اصبح ابو حمزة ارسل الى الوالي فقال له ، قد كان نقض من قبلك فان شئت ناقضناك وان شئت نوف بعهدك ، قال فارسلهما وتم العهد حتى فرغ الناس من مناسكهم ، وساروا الى مكة قال فخرج عبد الواحد ودخل مكة ، قال ابو سفيان وكان

اجتماع ابي حمزة بوفود الحجيج في الموسم

بلج بن عقبة يأتى لرمي الجمار فى الخيل والسلاح ، قال وكان ابو حمزة يقول رحمك الله وما يدعوك الى هـــذا لو جئت متنكرا حتى ترمى، قال فكان يقول لا ، لا افعل ولا آمن غدرهم بنا ونقضهم علينا ، فان فعلوا كنا قد استعددنا لهـــم .

قال فأقام ابو حمزة بذى طوى قال وكان يدخل فيجمع ثم يرجع الى ذى طوى ، قال فاجتمع اليه من نواحى مكـة رجال من خزاعة مسلحون فى نحو أربعمائة رجل ، قـال وخرجوا معهم الى المدينة وكان الذين قدموا من اليمـــن نحو ستمائة رجل ، قال ثم خرج نحو المدينة يريد الشـام ولم يكن يريد ان يعرض لاهل المدينة قال فخرجوا اليـه فقاتلوه بقديد ، قال فمما يراجعهم فيه من الكلام ان يقول انا ندعوكم الى الله والى كتابه فالى من تدعوننا انتم ، قال فيقولون ندعوكم الى طاعة مروان فيقول يا سبحان الله ؟ ! ندعوكم الى طاعة الله وتدعوننا الى طاعة الفاسق مروان ، قال فاقتتلوا فقتل منهم أربعة آلاف قال واصيب مع ابى حمزة يوم مكة ابو عمر وابنه وكانا من افاضل المسلمين . قلـت وقد وقفت فى سيرة عبد الله بن يحيى على الخطبتين اللتين خطبهما بمكة والمدينة متطاولتين بابلغ ما يأتى به خطيب ثم وقفت عليهما أوجز من ذلك قليلا فيما صححته عن بعض خطب من أهل الخلاف ، فآثرت ان اثبتها هنا على نحـو ما صححته عنهم لان شهادة خصمك لك أصح من شهادة اخيك لــك .

يتجه ابو حمزة ومن معه الى الشام فيعترضهم اهل المدينة

خطبة أبي حمزة بمكة

روى رواتهم قال خطب ابو حمزة الشارى بمكة حرسها الله فصعد المنبر متنكبا قوسا عربية ، فخطب خطبة طويلة . فقال :

يا أهل مكة تعيروننى بأصحابى وتزعمون انهم شباب ، وهل كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الا شبابا ؟ نعم ، شباب ، مكتهلون عمية عن الشر اعينهم ناكبة عن الباطل أرجلهم انضاء (1) عبادة ، واطلاح سهر من نظر الله اليهم فى جوف الليل مثنية اصلابهم بمثانى القرآن ، اذا مر احدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى تشوقا اليها ، واذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة ، كأن زفير جهنم فى أذنه وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم ، انضاء عبادة ، قد اكلت الارض جباههم ، وايديهم ، وركبهم ، مصفرة الوانهم ، ناحلة أجسامهم من طول القيام ، وكثرة صيامهم ، يستقلون ذلك فى جنب الله ، موفون بعهده ، منجزون لوعده، اذا رأوا سهام العدو قد فوقت، (2) ورماحهم قد اشرعت وسيوفهم قد انصلتت وأبرقت الكتيبة وارعدت بصواعق الموت ، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، فمضى الشباب منهم قدما حتى تخلف رجلاه عن عنق فرسه ، وقد رمت (3) محاسن وجهه الدماء وعفر جبينه التراب ، اسرعت اليه سباع الارض وانخطف اليه سباع الطير، فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى صاحبها من خشية الله !

---

(1) جمع نضو وهو الضعيف الرقيق الجسم . واطلاح جمع طلح من خلا جوفه عن الطعام

(2) من أفاق اسهم وفوقه وضع فوقه فى الوتر ليرمى به

(3) ابلت وغبرت محاسن وجهه

وكم من كف بانت من معصمها ، طالما اعتمد عليها صاحبها في ركوعه وسجوده ! وكم من خد عتيق رقيق قد فلق بعمد الحديد ! رحمة الله على تلك الابدان وادخلهم بفضله في الجنان ـ ثم قال ـ الناس منا ونحن منهم ، الا عابد وثـن وكفرة الكتاب، وامام جائر . قلت وقد حذف راويها منها كثيرا مما خاطب به أهل مكة من انواع التقريع بما اقـام عليهم الحجة وقطع العذر فاثبتت ما اثبته بحسبه .

خطبـة أبي حمـزة بالمدينـة

روي عن مالك بن انس قال خطبنا ابو حمزة بالمدينة خطبة شككت المبصر وردت المرتاب ، قلت وهذه الفاظ فيها جفاء ، وكان ينبغى ان اسقطها ، لكننى حكيتها على ما هي عليه ، للسبب الذى قدمته ، قال فحمد الله واثنى عليـه وصلى على نبيئنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثـم قال : أوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بكتابه وسنة نبيئـه محمد صلى الله عليه وسلم ، وصلة الرحـم وتعظيـم ما صغرت الجبابرة من حق الله عز وجل ، وتصغير ما عظمت من الباطل واماتة ما احيوا من الجور ، واحياء ما اماتوا من الحقوق ، وان يطاع الله ، ويعصى العبـاد في طاعتـه ، والطاعة لله عز وجل ولاهل طاعته ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ندعوكـم الى كتاب اللـه وسنـة نبيئه ، والقسم بالسوية ، والعدل في الرعية ، ووضع الاخماس مواضعها التى أمر الله بها .

انما خرجنا بغية اقامة الحق

انا والله ما خرجنا اشرا ولا بطرا ، ولا لهوا ولا لعبا ، ولا لدولة ملك نريد ان نخوض فيها ، ولا لثأر قد نيل ولكن لما رأينا الارض قد أظلمت ، ومعالم الجور قد ظهرت ، وكثر

الادعاء فى الدين ، وعمل بالهوى ، وعطلت الاحكام ، وقتل القائم بالقسط ، وعنف القائم بالحق ، سمعنا مناديا ينادى الى الحق والى طريق مستقيم ، فأجبنا الداعي الى الله « ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ظلال مبين » فاقبلنا من قبائل شتى قليلين مستضعفين ، فآوانا الله وأيدنا بالنصرة فاصبحنا بنعمة الله اخوانا وعلى الدين اعوانا .

يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر ، انكم اطعتم فقهاءكم وقراءكم فأحالوكم على كتاب الله عز وجل غير ذى عوج بتأويل الجاهلين ، وانتحال المبطلين فأصبحتم عن الحق ناكثين ، أموات غير احياء ، وما يشعرون .

يا أهل المدينة ، يا ابناء المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ، ما أصلح أصلكم وأفسد فرعكم ! كان آباؤكم أهل اليقين ، وأهل المعرفة بالدين ، والبصائر بالدين ، والبصائر النافذة ، والقلوب الواعية ، وانتم أهل الضلالة والجهالة ، استعبدتكم الدنيا فأذلتكم ، وغرتكم الامانى فأضلتكم ، فتح الله لكم بابا فى الدين فسددتموه وأغلق عليكم باب الدنيا ففتحتموه ، سراعا الى الفتنة ، بطاء عن السنة عمي عن البرهان ، صم عن القرآن ، عبيد الطمع، حلفاء الجزع ، نعم ما أورثتكم آباؤكم لو حفظتموه وبئس ما تورثون ابناءكم ان تمسكوا به ، وأخذوه ، نصر الله آباءكم على الحق ، وخذلكم على الباطل ، كان عدد آبائكم قليلا طيبا ، وعددكم كثيرا خبيثا ، اتبعتم الهوى فأرداكم ، واللهو فالهاكم ، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزدجرون ، وتعبركم فلا تعتبرون .

انحراف الولاة وسوء اعمالهم دعانا الى الخروج

سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فقلتم فهم الذين تعلمونه ونعلمه ، اخذوا المال من حله فوضعوه في غير حقه ، فجاروا فى الحكم فحكموا بغير ما انزل الله عز وجل واستأثروا بالفيء فجعلوه دولة بين الاغنياء منهم، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا في مهور النساء، وفروج الاماء ، وقلنالكم تعالوا الى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم ، وجاروا في الحكم وحكموا بغير ما انزل الله ، فقلتم لا نقوى على ذلك وددنا انا أصبنا من يكفينا ، فقلنا : والله نحن نكفيكم ثم والله لئن ظفرنا لنعطين كل ذى حق حقه فجئنا ، واتقينا الرماح بصدورنا ، والسيوف بوجوهنا ، فعرضتم لنا دونهم فقاتلتمونا فأبعدكم الله عز وجل ، فوالله لو قلتم لا نعرف الذى تقولون ، ولا نعلمه ، لكان أعذر لكم ، على انه لا عذر فى الجهل ، ولكن أبى الله الا ان ينطق بالحق على ألستنكم، ويأخذكم به فى الآخرة ، ثم قال : الناس منا ونحن منهم الا ثلاثة حاكم بغير ما انزل الله ، ومتبع له وراض بعمله . ثم نزل .

فالله يتولى السرائر من عباده ، ويجازى عليها ، فهذا كلام لا مطعن فيه لطاعن ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . الى هاهنا انتهى ما رواه » .

ابو الحر وطريقته الحكيمة فى استصلاح الاحداث

وحكى عن عيسى بن علقمة المصرى قال كان ابو الحر بمكة وكان له غلة تأتيه من البصرة وكان موسرا، قال فكان يأمرهم ان يجعلوا تلك الغلة نقرة واحدة ذهبا ، قال فأوتى بها فقسمها نصفين ففرق نصفها فى فقراء المسلمين وربعها فى نفسه ، وربعا يحبسه لنوائبه ، ولمن يمر به من اخوانه المسلمين ، وفى معونتهم ، قال فكان شاب قد لازم أبا الحر حتى كان هو صاحب أمره ، والذى يلى حوائجه ، قال فأوتى

بغلة تلك السنة ، كما يؤتى بها ، فقسمها نصفين فاعطى الفقراء نصفا وبقي النصف عنده أياما ، ثم انه احتاج الى ثمنه فدعا الشاب فقال يا فلان اذهب بهذه القطعة فبعها قال فخرج الفتى بها فلما خلا به الشيطان ، قال لو قلت لابى الحر انها ضاعت ما سألنى عنها ، قال فأبطأ عنه ثم أتاه ، فقال : ما حبسك ؟ قال إلا ان القطعة نشلت وذهبت قال ابو الحر : ففى الله الخلف ، قال ، ولم يسأله عن شيء ، ولم يعاتبه ، قال فخرج ابو الحر يوما الى السوق ، فمر بالصائغ فاذا القطعة بين يديه موضوعة فاستأذن الصائغ فى النظر اليها ، قال فنظر فعرفها ، ثم وضعها ، ثم قال من أين هذه القطعة ؟ قال ناس من بنى مخزوم دفعوها إلي لأصوغ منها حليا ، قال فانطلق ابو الحر الى المسجد ، ثم مر بالصائغ مرة أخرى ، فقال له الصائغ : يا ابا الحر انى سألت القوم عن القطعة فاخبرونى ان فلانا ـ يعنى الشاب الذى يخدم ابا الحر ـ هو الذى باعها لهم ، قال فبعث ابو الحر للمخزوميين فسألهم ، فأخبروه أن الفتى باعها لهم ، قال فانصرف ابو الحر وكان له مجلس يجلس فيه للذكر يوم الاثنين ويوم الخميس ، قال : فدعا الشيخ الشاب فقال له : يا فلان اذهب الى فلان وفلان عدة من مشائخ المسلمين فأمرهم ان يحضروا فى مجلسنا ، قال : ففعل ، فلما توافى القوم ، قال لهم ابو الحر لا يكون اكثر كلامكم ، الا فى تعظيم الامانة لما عظمها الله ، فان صاحبا لكم قد ابتلي ، قال ففعلوا وعظموا من أمر الامانة حتى انتهى الكلام الى ابى الحر ، فعظم من ذلك ما شاء الله قال والفتى جالس قد غمره العرق ، ودخله من ذلك ما شاء الله ، قال ثم خرج القوم ولم يبق فى البيت الا ابو الحر

والفتى فوثب اليه الفتى ، فقال يا ابا الحر انى بالله ثم بك ، قد والله هلكت انا أخذت القطعة ، قال فقال ابو الحر الله أكبر،هذا الذى اردت هي لله ولك ولا حاجة لى فيها ، قال فاستغفر الله الفتى ، واقام مع ابى الحر على احسن ما كان ، وحسنت حاله حتى مات .

قال واخبرنى على بن علقمة ان شابا كان يأتى ابا الحر ويلزم مجلسه ، ثم فقده ، فأتى الى والدته ، فسألها عنه ، فقالت يا ابا الحر قد والله أخذ فى السفه والبطالة ، وما يأتينا الا من الليل الى الليل ، ونصف النهار ، وقد والله ذهب ما فى يده ، ولم يستتر بشىء ، قال فقال لها ابو الحر اذا انا جئت وهو هنا فأذنى لى ولا تحبسينى على الباب ، قال فلما كان نصف النهار اتى ابو الحر ومعه ستة اثواب وثلاثمائة درهم حتى وقف على الباب فاستأذن فأذنت له العجوز ، فدخل فاذا بالفتى فى ناحية من البيت فى خلق له ، قال وأقبل عليه ابو الحر ، ثم قال له : ما أرى منعك عن ان تأتينا الا العري ونحن اسأنا فى أمرك ، فاعلم انا لا نعود الى مثلها ، فخذ هذه الاثواب فاكتس منها بثوبين ، ولوالدتك ثوبين ، ولاختك ثوبين ، وهذه الدراهم فانفقها على نفسك ، ثم خرج ابو الحر ، قال فرجع الفتى الى احسن ما كان وحسنت حاله ، فلم يزل مع ابى الحر حتى قتل معه يوم مكة .

وعن أبى سفيان ان ابا الحر اهدى له من البصرة بساطا قال فوجد فيه تصاوير ، قال فباعه قال فقال له وائل هذا مما يوطأ أو يتمهد ، فلا بأس به ، فلم يعتبر كلامه حتى باعه، ومن أحسن الاجوبة ما اجاب به ابو الحر فيما ذكر أبو سفيان قال كان لابى الحر بمكة مجلس ، قال فقال له

بعض اصحابه يا ابا الحر إنا لنخاف ان يظهر علينا ، قال : ويحك اما سمعت الله يقول : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) والله يحفظكم .

الاخوة في الدين اقوى من الاخوة في النسب

وذكر ابو سفيان ان ابا الحر كان في المسجد جالسا في حلقة فقدم أخوه الحسن من العراق ، قال فاقبل يريده حتى جاء الى الحلقة ظن انه يقوم اليه ، فلم يقم اليه وأخذ أخاه بيده ، وهو جالس ، قال ولم يكن يراه منذ زمان ، قال فبينما هم كذلك اذ طلع اليه رجل من أهل عمان فلما نظر اليه ابو الحر قام قائما وخرج من الحلقة فتلقاه ، فاعتنقه وقبل صفحتي عنقه ، ورحب به ، قال فسقط في يد اخيه فقال له مودة هذا على غير مودتك لان مودة هذا على الدين وأنت على النسب .

الطبقـــة الرابعـــة 150 ـ 200

الربيـــع بن حبيب

منهم الربيع بن حبيب رحمه الله طود المذهب الاشم ، وعلم العلوم الذى اليه الملجأ فى معظمات الخطب الاصم ، ومن تشد اليه حبال الرواحل وتزم، صحب ابا عبيدة فاغترف من بحره الزاخر ، ولزم مجلسه فكان الاول والآخر ، روى عنه « المسند » المشهور ، المتعارف البركة على مر الدهور ، وله فى الفروع كل قول ومذهب ، اجوبته من المتعمدة فى المذهب ، باين من خالف من محاضريه أهل العدل والصواب ووقف فى الامامة والولاية والبراءة عند موافقة السنـــة والكتاب ، والصواب عندنا فى كل ذلك جوابه ، فان سممت بأصحابه فنحن ـ والحمد لله ـ اصحابه .

يتحرج من معونة تقدم اليه بشرط

قال ابـــو سفيان اجتمع وائل بن ايوب ، والمعتمر بن عمارة ، وجماعة الى الربيع ، فسألوه ان يخرج الى الموسم قال فقال ، لا اقدر وما عندى ما اتحمل به ، فمشوا الى رجل من المسلمين يقال له النظر بن ميمون ، وكان رجلا موسرا من تجار الصين ، اعلموه بقوله ، قال فأتاه بأربعين دينارا فقال حج بها فلم يقبلها منه ، وكان به خاصا ، قال فجاءه وائل والمعتمر فقالا له : سبحان الله يا ابا عمرو تعلم حاجة

الناس اليك ، وكنت اعتللت بانك لا تجد ما تحمل عليه ، فلما جاءك الله بما تتمتع به أبيت ان تقبل ! قال : انه قال لى خذها على انك تحج بها ، ولست اقبلها ، على شرط ، قال فأتوا الى النظر فاعلموه بما كره من قوله فاعتذر ، فقال والله ما علمت انه يكره ذلك ، والآن فخذوها انتم فادفعوها اليه ، قال فأبى ان يقبلها بعد ذلك .

قال ابو سفيان كان ابو عبيدة عبد الله بن القاسم ربما سئل عن مسألة فيقول : عليكم بوائل فانه اقرب عهدا بالربيع .

قال ابو سفيان اخذ ابو جعفر رجلا من المسلمين من أهل الموصل فاستحلفه بالطلاق ان ماله علم برجل اتهم انه عنده ولا له عنده مال ، قال فحلف الرجل ماله عنده قليل ولا كثير فخلى سبيله قال فرجع الرجل الى منزله ، فوجد نعلا للرجل فكتب بالمسألة الى الربيع فقال لا اجيبه فيها حتى يأتى الرجل بنفسه ، قال فقدم عليه فأمر الربيع ان يجمع أصحابه قال فجمعهم فحضر شعيب بن المعروف ، وابن عبد العزيز ، وجماعة ممن حضره يومئذ ، قال فقص الرجل يمينه ، قال فقالوا له الملوك لا يستحلفون على النعال ولا على ما يشبهها، انما حاجاتهم الاموال العين،قال واجمعوا على انه لا شيء عليه ، قال والربيع ساكت لا يتكلم ، قال ، فقال له الرجل ما تقول يا ابا عمرو؟ قال أرى فراقها . قال شعيب يا ابا عمرو وانما الملوك لا يستحلفون على النعال ، قال صدقت ولكن صاحبنا حلف ماله عنده قليل ولا كثير ، وهل تخلو النعال من ان تكون من القليل أو من الكثير ؟ وفى هذه القضية وجوه منها انه استحضر محاضريه المذكورين وشاورهم فى الفتى وذلك لوجهين احدهما لعله ان يكون

اليمين انما تنعقد على العلم ، والاحوط اسلم

ذلك قبل ان يبرا منهما ، فأراد الاشمات بهما ، أو انـــه استحضرهما بعد ان وقعا فيما وقعا فيه فأراد استعجازهما وعندى ان الربيع رحمه الله شدد في جوابـــه ، لان في الجواب الذى اصاب صاحبه مخرجا من ذلك الضيق ، فان يمينه انعقدت على علمه ، ولا علم له بالنعل ، وأيضا فان لفظه عندى ما يلزمه منها الا ما لزمه من ذلك ، فان فيهـا تخصيصا لا يقتضيه قصر الحلف لكن لعل اخذه بالاحوط أسلم .

رأي حيان في صلاة الجمعة ورد الربيع عليه

وقال ابو سفيان اجتمعت يوما انا وحيان بن حاجـب عند الربيع بن حبيب ، فقلت يا حيان أخبرني ما الـذى فرض الله على محمد والمسلمين يوم الخميس ان يصـلي للظهر ؟ قال أربعا ، قال ، فقلت له وما فرض الله عليه يوم الجمعة ان يصلي ؟ قال فرض الله عليه ان يقيم العدل ويصلى في وقته ركعتين ، قال قلت له ولم ؟ أو لم يفرض عليه في يوم الخميس ان يقيم العدل ويصلى أربعا ؟ قال فلم يجبنى بشىء قال فقال لى الربيع اشدد يدك يا محبوب.

مات ولم يوص فاخرج عنه وصية لانه يدين بها

قال ابو سفيان مات جدى من الرضاعـة وكان يسمى المليح ، وكان من المسلمين فأتانا الربيع وكان المليح لـم يوص فأرسلنى الى بنات له ، فقال اقراهن السلام وعزهن عنى في أبيهن وقل لهن : ان المليح كان عندنا ممن يديـن بالوصية ، ويراها حقا عليه واجبا ، وانه قد مات وعليه الامر ولم يوص ، وانى أرى لكن ان تخرجن عنه ألـف دينار في قراباته ووكرا من بر في كفارات أيمانه ، قال ابو سفيان وكنا نرى تركته تبلغ ثلاثين ألف .

قال ابو سفيان ، قال ابو الربيع ، جاءتنى امـرأة في مسألة لم اسمعها من احد ، فقالت ، ما تقول في مسجـد

عليه سلَّم هل للحائض ان ترقى على السلم الذى على المسجد ؟ قال فقال الربيع لا يمسح ذلك ، قال وكان الربيع يقول ليس لها ان تصل المسجد بيدها ، ولا شيء من جسدها ، وان ارادت ان تأخذ منه ثوبا فلتأخذه بعود ، وبما شاءت غير جسدها .

ابو عبيدة يقول : فى الربيع كفاية عمن سواه

وقال لما اصاب ابا عبيدة الفالج وحضر خروج الناس الى الموسم ومضى حاجب الى ابى عبيدة وعبد الله بن عبد العزيز ليبعثه مع الربيع الى الموسم ، قال فابى ابو عبيدة وقال لا افعل ، فقيل له : فالمثنى بن المعرف ، قال نعم فبعث الى المثنى فى ذلك قال ما كنت لأفعل ، أخرج مع الربيع ، والربيع حاله فى فضله وسنه ومعرفته على ما تعلمون ! فما اشير عليكم ان تبعثوا غلاما حدثا مثلى مع الربيع ، فيقال : لم نجد من نبعث الى الموسم الا هذا الغلام وفى الربيع كفاية عمن سواه ، قال فبلغ قوله ابا عبيدة فازداد فى نفسه له محبة ، وازداد عندهم بذلك رضى ، قال ابو عبيدة صدق المثنى ، قال ، فتوجه الربيع للناس يومئذ ، قلت لابى سفيان وكيف لم يخرج حاجب ؟ قال لم يكن صاحب فقه ، قال ابو سفيان ، وسمعت ابا طاهر ذكر الربيع عند ابى عبيدة فقال فقيهنا وامامنا وتقينا ، قال وكان الربيع اذا سئل عن مسألة فقيل ، يا ابا عمرو ممن سمعت هذه المسألة ؟ فيقول : انما حفظت الفقه عن ثلاثة ، عن ابى عبيدة ، وابى نوح وضمام ، هذا قول احدهم . لم يكن يكاد يخفى عليه قول واحد منهم الا انه ربما اشتبه عليه قول من المسألة ، قال ، وقلَّ ذلك .

وقال قدم أبرهة بن عطية من الجزيرة الى البصرة ، فنزل فى جوار الربيع « بالحرسة » فدخل عليه وسلم ، فقال

يا ابا عمرو رجل من اخوانك . فقال من أى بلاد انت ؟ قال من أهل الشام ، فلم يفتش الربيع ، قال وكان يختلف اليه ويسأله عن الفته ولا يحرك شيئا من أمر القدر ، فلبث بذلك أياما حتى دخل على الربيع بعض المسافرين ، وقال له الربيع : سلم على اخينا هذا فسلم عليه ، ثم قال ممن انت يا فتى ؟ قال من أهل الشام قال ما بالشام احد من أهل هذه الدعوة ، فمن أي الشام انت ؟ قال من أهل الجزيرة ، قال لعلك ابن عطية ، قال نعم ، قال يا ابا عمرو هذا ابن عطية الذى أهلك أهل نجران هو وابوه من قبله (I) ، فلا يدخلن عليك ولا تنعمه علينا ، قال فقال له الربيع اسرعت على الرجل،قال فقال ابن عطية يا ابا عمرو ما سألتك قط عن أمر تنكره ، انما اريد ان أسألك عما يحتاج اليه الناس من الفقه من الحلال والحرام ، قال فخرج الرجل واتى (وائل) والمعتمر ، وعبد الملك ، وجماعة من اصحابنا فاعلمهم بحال الرجل ، قال فمشوا الى الربيع مغتضبين ، فدخلوا عليه فقالوا انزلت ابن عطية وقربته ، قال فقال لهم لا يجمل بمثلى ان ارد من يأتينى مع ان الرجل لم يسألنى عن شيء اكرهه ، ولم اكن علمت به ، قالوا فلا يدخل عليك ولا تفته فى مسألة واحدة ، قال فلما غلبوا عليه حمل نفسه على رده ، قال ابو سفيان فاتاه ابرهة كما كان يأتيه فلم يأذن له ، قال ، فبكى وقال ، ما كنت اظن ان الربيع فى فضله وورعه وحاله يرد مثلى ، وانما أسأله عما ينتفع به الناس من أمر دينهم ، قال فارتحل من « الحرسة » الى داخل البصرة .

انما اريد ان اسألك عما يحتاج اليه الناس

(I) أورد القصة صاحب السير ، رحمه الله ، الا انه ذكر اهل خراسان عوض اهل نجران ، وهو انسب للموضوع وابن عطية هذا ممن خالف اهل الدعوة «الاباضية» فى مسالة القضاء والقدر ومال فيهما الى راى المعتزلة ، وكان من تلامذة أبى عبيدة

وائل بن أيوب الحضرمي

ومنهم وائل بن ايوب الحضرمي رحمه الله . صنو الربيع وتلوه . ومن له في حلبة الفضائل مثواه ، فانهما رضيعا لبن التفقه في العلوم ، وفيما – هو – خير ميراث ، فما منهما الا له فيه مقام معلوم ، وان كان لابي عمرو فضل وزيادة ، وشهرة في الافادة ، والاستفادة ، فان لوائل انواعا من حميد الصفات ، أحيى الله بها على يده أعظم الدين الرفات ، من طيب شيم ، وخلق كريم ، واهتبال بالتعلم والتعليم ، فكم من ضال هداه الله به الى صراط مستقيم وسافل أعاده الى احسن تقويم ، فبركته شاملة في حياته ، وبعد الموت ، وآثاره المتقفات بالعراق ، والمغرب ، وعمان ، وحضرموت ، فله الحظ الاوفر في طريقة المتفقهين ، وله في مسالك الصلحاء رتبة وقوانين قد تقدم ما رويناه عن وائل من قوله : انما الفقيه الذى يعلم الناس ما يسع الناس فيه مما سألوه عنه ، واما من يضيق عليهم فكل من شاء اخذ بالاحتياط ، قال ابو سفيان كان عبد الله بن القاسم ربما سئل عن مسألة فيقول عليكم بوائل فانه أقرب عهدا بالربيع رحمه الله .

محبوب بن الرحيل

ومنهم محبوب بن الرحيل العبدى رحمه الله ، احد الاخيار الانجار ، وممن سبق الى تخليد سير السلف الاخيار (I) ، واللف مما يحصل عنده عنهم من الآثار ، وجمع ذلك في سلك واحد بين غرائب الفقه ، وعجائب

(I) يعنى بهذا سيرته التى كتبها فى التابعين ومن بعدهم من ايمة الاباضية رحمهم الله ، وقد اعتمدها صاحب الطبقات ، ونقل عنه كثيرا وهو المعنى بابى سفيان

الاخبار ، وذكر مناقب المجتهدين من مجاهدين فى سبيل الله وأنصاره ، ونبه على مثالب من بدا منه اقصار ، والمشعرين التدابر ، والمولين الادبار ، واعتذر عمن قام عذره واستحق قبول الاعتذار ، هذا وهو ممن صحت عليه الفتاوى وانتفع به مصاحبه من مرحل وثاوى ، وجملة الامر ان مناقب ابى سفيان ، مغنية شهرتها عن المشاهرة ، فقد قامت مقام العيان ، وانه لو لم يؤثر عنه الا عهده الذى جمع فيه المواعظ والحكم والآداب وجعل فيه تنبيها وذكرى لاولى العقول والالباب ، لكان بذلك ما تؤدى النفس من المراقى والمناط ولكان كافيا فى معناه ، عما عداه (I) ، فكتب به الى عبد الله بن يحيى ، وعالج به القلوب الميتة فأحيى . ونصه :

عهد محبوب بن الرحيل الى طالب الحق

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً . أما بعد : فان الله تبارك وتعالى جعل من طاعته طاعة ، من عمل بها كانت له درجة ونافلة ، وزيادة خير ، ومن لم يعمل بها لم يزله عن اسلامه ولا يضره شيء ولم يكفر بها . وعليه حقوق يسئل بلاغها ، وجعل مما نهى عنه زواجر من انتهك حرمتها لم يقبل الله له صنيعا حتى ينتقل عنها . ومن زواجره زواجر من اصاب منها شيئا لم يحبط عمله ولم يكن كافرا ، ولم يحق عليه ما حق على راكب الكبائر الموبقات ، المهلكات ، ما لم يتخذها دينا ، فيذكرها فيصر عليها ، ولا يتوب منها ، وجعل وظيفة طاعته ايمانا بالله واليوم الآخر والملائكة

ليست الطاعة فى مستوى واحد من الاجر والمكانة

(١) هكذا العبارة فى جميع النسخ ، فتاملها

الى آخر الآية (١) وصيام رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا ، والوفاء بالعهود ، واداء الامانة ، وملازمة أهل الحق وفراق أهل الباطل ، فهـذه عرى الاسلام ، ووظائف الدين ، واصل الايمان فمن رغبت عنه نفسه ويتبع غيره يكن من الخاسرين ، فهذه العزائم من الطاعة ، وجعل مـن طاعته الحج بعد الفريضة ، والعمرة، والصدقة ، والصيام بعد رمضان ، وقيام الليل والانصات عند قراءة القرآن فمن بلغه الله هذه كانت له الفضيلة ومن لم يستطعها كان مسلما ، ما استمسك بوظائف ما كان يعرف قبل ذلك من الحق ، وهذا التطوع من طاعته ، وجعل مما نهى عنـه أن لا تشركوا به شيئا ، ولا تعبدوا الا ايـاه ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحـق ، ولا تنكحوا ما نكـح آباؤكم من النساء ، والزنا ، وقذف المحصنات ، واكـل مال اليتيم ، فهذا كله موجب موبق بمن انتهك منه شيئا حتى يتوب الى الله متابا ، وكل معسية اصابها مما نهـى الله عنه وأوجب الله فيها عذابا فى الآخـرة ونكالا فى الدنيا فانه يصير بها كافرا ، لا يقبل الله منه عملا حتى يتوب الى الله متابا . ومما نهى عنه أن الله تبارك وتعالى قال : «يايها الذين ءامنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبى» الآية ، وقال «ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها» «ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض» . «ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله » ، فهذا عيب ودنس مـن اصاب منه شيئا لم يبلغ الكفر ولم يزله عن اسلامه ، ولم تخلع ولايته» ما اجتنب الكبار من المعاصى . وقال : «ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم» ، وقال «اولئك الذين يتقبل عنهم احسن ما عملوا ويتجاوز عن

(١) يعنى آية البر من سورة البقرة

سيئاتهم » . وقال « يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله » ، فهذا اللمم من الذنوب من اصابه وهو مسلم يغفره الله ، وقال : «ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» . ما لم يتخذها دينا يدعو الناس اليها ، ويستتاب حين يصيبها فان ابى واخذته العزة بالاثم وحمية الجاهلية واصر على هذا فعند ذلك تخلع ولايته .

فاتقوا الله ولا تجعلوا كل من نزل به بلاء من الله كافرا فليتب من انزله تلك المنزلة فانه يصير على ما ترك من طاعة الله فاسقا كافرا ، فان العامل للمعصية كالتارك للطاعة . فأذكركم الله العظيم لانفسكم لما اعتقدتم ذلك ، فان لكل منزلة سيرة ، ولكل شهادة حكما ، ولكل حد عقوبة وقد بلغنا ان الرجل يكون فيكم زمانا لا ترون منه الا ما يعجبكم من الرأى ، والاجتهاد ، والنسك . ثم انه يصيب ذنبا فتخلعونه وتحقرونه من غير ان يعلم انكم قد برئتم منه ، ويرى انكم عنه راضون ثم ينكر منكم اشياء لم يكن يراها قبل منكم فياتيكم فينشدكم الله ويسألكم النصيحة وان تبينوا له ما يريبكم ولا يعجبكم،وان ترضوا عنه ، فتكتمون عنه ، ولا تنصحون له ولا ترضون عنه ، وأذكركم الله لم لم تفعلوا ذلك ؟ فانه نقص لكم شديد وعيب فى دين الله ، ولم يكن ذلك فى دين المسلمين قط ، وان كان مابكم من اجل الذى اصاب فان الله يغفر عند التوبة فاذكروا ما تصيبون من الذنوب فان لكم فى ذلك عبرة ان تعتبروا . وتقولون انا ان استتبناه متى يتب فانه يعود ، وما يدريكم ما يحدث الله بين الليل والنهار وما يحدث فى القلوب ؟ فياتيكم تائبا فتردونه كما أتاكم

بينوا للمذنب ذنبه قبل التبرىء منه وابعاده

ولا تتولون عند توبته فاذكركم الله العظيم ألا تشرعوا شيئا لم ياذن الله به،وأن لا تبتدعوا شيئا لم يكن فى دين الله ، ولا سنة رسوله عليه السلام ، ولا من بعده ، وقد اكمل الله الدين ورفع التنزيل ، وكمل الكتاب ولم تجدوا لذلك برهانا ، لا آية محكمة ، ولا سنة ماضية ، أن تردوا على تائب توبته . فاتقوا الله فان ذلك ليس بايديكم منه شىء ، ولا تملكونه ، وقال الله عز وجل : «قل لو انتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لأمسكتم خشية الانفاق»، فان كان ما بكم تقولون يعنى اذا استتبناه من أمر عاد فيه ، فما يضركم من ضل اذا انتم مهتدون بولايتهم حين يتوبون واظهروا لكم المعروف تضلونهم حين عادوا الى ما نهوا عنه ، وتابوا منه ؟ قال الله تبارك وتعالى : «من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما انت عليهم بوكيل» «فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم فى الدين» ، وقال : «فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم» . وان كان ما بكم انكم تردون توبتهم فان تقولوا انهم يخدعوننا فاتقوا الله فان من يخدع بالله يخدع، ومن يخادع الله فهو المخدوع وتخرج ضغنته لوليه ، ولا تأخذوا بالظن فى ذلك . وتتركوا اليقين الذى ظهر لكم ، ولا يكذبن ظنكم يقينكم .

البشر لا يخلون من عيب ونقص

وان كان بكم ان لا تتولوا إلاّ كل مجتهد حريص لا يفتر عن صيام وقيام ولا ترون فيه عيبا فان المرسلين والنبيئين لم يزل بعضهم افضل من بعض ، ولم يكن الناس قط فيما مضى ولا فيما غبر اجتهادهم سواء ولا اعمالهم سواء ، وقد قال الله تعالى : « الذين اصطفينا

من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » وقال «ويؤت كل فضل فضله» وقال : «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات » ، وقال : «ولكل درجات مما عملوا» فاعتبروا من الناس على عهد نبيكم عليه السلام والخلفاء من بعده كل الناس كانوا مسلمين وولايتهم واحدة منهم الضعيف والقصير النظر ، وهم الذين تكرهون ولايتهم ، هم أعلم بالسنة وادرس للقرآن ، واشد اجتهادا من هؤلاء الا ما شاء الله ، ولا تجعلوا هؤلاء الذين كانوا منكم زمانا من أجل ذنب يصيبونه فمن لم يكن منكم[1] غير انه كبر ذنبا واعظم جرما من الذين كانوا منكم ثم تركتموهم ، فلا يعرف دينكم أحد ولا تجالسونه ابدا وان جاءكم مستجيبا فمتى تفعلوا . هذا الذى اخر بدينكم الذى انتحلتموه لا يستجيب له احد، فكل دين لا يستجاب له فهو دين الضلالة ، ان لم تصح مؤاخاتكم فى الله ولا فراقكم ، فاذكركم الله العظيم لا تضيقوا ما وسع الله تبارك وتعالى فانه «يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، ويعلم ما يفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد » . فدين الله واسع يجب ان يدخل فيه ويدعو الله (2) ، فاحبوا ما احب الله ، وارضوا بما رضي الله ، واهتدوا بهدى من هدي قبلكم ، ولا تشدوا من الامور عليكم فتكون لكم فيه هلكة وقد عاب الله تبارك وتعالى أقواما جعل

(1) لعل الصواب كمن لم يكن منكم

(2) لعل الصواب وان يدعى اليه بالبناء للمجهول

صدورهم ضيقة حرجة كانما يصعد فى السماء الى آخر الآية ؟ . (1)

اما بعد فان خير الاخوان الناصحون حين يتناصحون ، وافضل الاخلاء من عطف عن التقوى ، وافضل الاخوان الراشدون فى المضلات ، المذكرون فى الغفلات ، وهذا يوم تناصح الاحباء ، ان الاموات فى سكراتهم يعمهون ، حين عاد الدين غريبا مفقودا ، وعاد أهله غرباء منفيين ، وقد استحوذ ابليس على العباد فهم له جند محضرون ، وقد نبذوا الكتاب جملة من شدة البلاء ، وقد توارثوا نبذه عن الآباء ، حين مالت بهم الاهواء وجعلوا مكانه تحريفا لكاتبه كذبا وتكذيبا ، باعوه بالبخس ، وكانوا فيه من الزاهدين ، فقد أصبح البلاء فى زماننا على الاتقياء ، فى الخاصة والعامة ، فسموا بصدقهم كاذبين ، وبايمانهم كافرين ، وبهداهم ضالين ، فقد بقوا وبقي الكتاب اليوم وأهله غريبين طريديين منفيين نافيين مستغنيين مع ذلك عمن استغنى عنهما ، فيا حبذا ذلك الغريبان الطريدان النافيان المنفيان . والناس اليوم قد اجتمعوا على الفرقة ، وتفرقوا عن الجماعة،فصار أمر سلطانهم بينهم بعد ان كان شورى بينهم وفيئهم بعد قسم الرب دولة وغنيمة ، ليس يلون أمر دينهم الرضى ولا عن رضى اهل الرضى اليهم فى فعلهم امام الكتاب ، وليس الكتاب له بامام ، يدخل الداخل بينهم لما سمع من حكم القرآن فما يطمئن جالسا حتى يخرج من الدين ، لانه يوضع فى يده خلاف القرآن اذا عمل به خرج من الدين ، فينتقل من ولاية ملك الى ولاية ملك ،

معبوب يشكو اهل زمانه

(1) يعنى آية سورة الانعام عدد 125 « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون »

(2) هكذا العبارة فى النسخ

ومن سلطان ملك الى سلطان ملك ، فليس له امام يسوسه ولا على أمر الله يطيعه ، فيبقى متحيرا واشتبهت عليـــه الامور كما قال : لا بصر أهتدى به ولا بصير يقودنى ، فان احتاج الى العلماء والقراء وجدهم يدينون بطاعة الجبابرة، وآخر استحكم حكم القرآن مثل ما عليه الصديقون فاظهر أمر الله ، فصار عند علماء أهل زمانه ضالا اذ لم يوافقهـم على خلافهم لله ، وهو كاليتيم المفرد يستذله من لا يتــق اللــه .

فالناس اليوم على ثلاثة : فرقة تميت الحق وهم علماء السوء طلبا للدنيا وعلوا فيها ، فافتوا بغير الحق ، ودعوا الى أنفسهم فنسبوا أهل سنة وجماعة ، وهم أهل بدعـــة وضلالة ، وقد قال الله عز وجل : « ان الذين يكتمـــون ما انزلنا من البينات والهدى من بعد ما بينـــاه للناس فى الكتاب اولئك يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون » . وامـــا الفرقة الثانية فهو كما قال فيهم الحكيم الصادق : ان لله عبادا رسخ عظم جلال الله فى قلوبهم ، وركدت شفقـــة هيبته فى صدورهم ، وتمكن الحياء منه فى ضمائرهـم ، ووطنت الفكرة افئدتهم ، وتمثلت العبرة بين أعينهـم ، وجرت ينابيع الحكمة من دقائق سرائر اخلاص صدقهـم على اطراف ترجمة ألسنتهم ، فأنار بهم الدين ، وانحسرت بهم ظلم البدعة ، وبادت بهم سواد الضلال ، وارتعد بهم موارق الجهال ، وابت عليهم دعاة العمى ، وازدادت بهـم هدىً نصرة الهدى ، اولئك الذين كفوا عن الدين تأويل الزائغين ، وتحريف الملحدين ، وشكوك المرتابين ، واغلاء المعتدين ، وحيرة المتحيرين بالدين ، الذين فرقوا دينهـم وكانوا شيعا ، احيانا بمصرع الدنيا ، والشراب بكأس

أبنائها ، ودخولا وايغلا في شعاب هلكاتها ، واتيـان في سياسة غدراتها ، وتسليم الدين خشية آفاتها .

أولى بالاقتداء بهم

فاتبع الذين صدقت أقاويلهم افعالهم ـ أو قال اعمالهم ـ وانقطعت من الدنيا آمالهم وكانما سمعوا بآذانهم الى صراخ أهل النار فيها أو تشنيش غليان جماجم أهلهـا ، فهم محزونون وان ابتسموا الى اخوانهم ، وهم المنعمون(I) بسرور الدنيا وان خالطوا أهلها فيها فاولئـك الذين لا تعتريهم سآمة ، ولا تجتريهم رغبة ، ولا ينظرون الى الدنيا بعين نقية ، ولا يعقدون لها على مودة ، ولا يفرحون فيها على زينة ، بل ضربوا في السهم الاوفر ، ولزموا الطريق الاقصد ، وسلكوا السبيل الا رشد ، وهم ائمة التقى ونجوم الهدى ، وامام الدين ، ومنار الاسلام، كلامهم حكمة ، وسكوتهم حجة ، ومباينتهم حسرة ، ومخالطتهم غنيمة ، والاستنان بهم حياة ، والاقتداء بهم نجـاة ، فعليك ايها الزائغ عن طريقهم ، والراغب عن سبيلهم، بالاتباع ، فانه ليس الاتباع كالابتداع ، وعليك بطريق من كان بالله اعلم وبحلاله وحرامه منك أبصر ، ومن طائفتك الشاذة وعصابتك المناكثة التي ليست بهادية ولا مهتدية بل ضالة مضلة ، زائغة عن سبيل الرحمن ، سالكة لسبيل الشيطان .

الشيء يعرف بضده

اعلم يا قارىء القرآن انك لن تتلو القرآن حق تلاوته حتى تعرف الذى حرفه ، ولم تعرف الكتاب حتى تعرف الذى نقضه ، ولم تعرف الهدى حتى تعرف الضلال ، ولم تعرف التقى حتى تعرف البدعة ، فاذا عرفت البدعة في

(I) كذا في النسخ لعل الصواب وهم المتنعمون عن سرور الدنيا

الدين والتكييف ، عرفت الفرقة والتحريف وان من هوى كيف هوى وان علم القرآن ليس يعلمه الا ســـن يخافه ، فابصر به من عمى ، وسمع به من صمم ، واحيي به بعد اذ مات ونجا به من السيئات .

واعلم يا قارئ القرآن ان العهد بالرسول قـد طال ، ولم يبق من القرآن الا رسمه ، ولا من الاسلام الا اسمه ، وان الله لم يجعل ما قسم بيننا نهبا ، ولا ليغلب قويـــنا ضعيفنا ، ولا كثيرنا قليلنا، بل قسم علينا برحمته بالاقسام وبالعطايا بالعدل والاحسان ، فمن اجترأ على الله ممـــن زعم ان له اقساما بين العباد سوى ما حكم به الكتاب ، فبيننا وبينه الحكم ، والعدل ، والشاهد الذى لا تكذب شهادته ولا تبطل عدالته ، فلو كانت الاحكام كما حكم به أهل الجور والآثام لما كان بيننا خصام ، ولا تداعينا الى حاكم كما لا يستأذن بعضنا بعضا فى اللحا والالوان ، وتمام الخلـــق والنقصان ، وقديما اتخذت الجبابرة عباد الله خـــولا ، ودينه دغلا ، وماله دولا ، واستحلوا الخمر بالنبيذ، والمكس بالزكاة والسحت بالهدية ، يأخذونها مـــن غضب اللـــه وينفقونها فى معصية الله .

الحكام الجورة لا يقفون عند حـدود اللـــه

واتخذوا على ذلك من خونة العلم اعوانا ، ومن الوراع اعوانا ، ومن الصناع اخوانا ، ووجدوا على ذلك مـــن المستأكلين اعوانا ، فهؤلاء الاعوان خطبة أهل الجور عـــلى المنابر وبهؤلاء الاعوان قامت راية الفسق فى العساكـــر وبهؤلاء الاعوان اخيف العالم فلا ينطق ولا يفطن بذلـــك الجاهل فيسئل ، وبهؤلاء الاعوان مشى المؤمن فى اطـــراف الارض بالتقية والكتمان ، فهو كاليتيم المفرد يستذلـــه من لا يتق الله، واعلم بانك فى زمان وجد فيه من لا يوجب

الميعاد ، قد رفعت لهم الجبابرة اعلام التكاثر فتنافسوا فيها وتشاحنوا عليها حتى محلتهم الفتن بعبارات القرآن ، فتلك معالم الطغيان وأذنت ـ هم ـ تلك المحلة بالمداوة والهجران . (I)

واعلم ان فى معاينتهم مشبة اشتعال النار ، واحكامهم الحرص والتحضيض على الشهوات وفى معاشرتهم ذم للقناعة وتصغير للنعم ، وهو كما جاء فيهم الحديث مساجدهم فى ذلك الزمان عامرة وانه قد بدل على ما كان فيها من الهدى ، سكانها وعمارها اجابت الى الخطيئة فى مساجدهم فهى اظهر منها فى الريبة لان أهل الريبة اذا رأوا من لا يريد ما عندهم اختفوا بالخطيئة ، فهؤلاء قد بارزوا بالمحاربة ، وكذبوا على الله فى العلانية ، فواحدنا يقول سمعت وما اكذب ، ونطقت وما اكذب ، وذلك انى لم ادرك من الاسلام الا رسما عافيا ، وعلما منقطعا باليا ، فصرت ميتا بين الاموات ، وحيرانا بين المتحيرين، فلو أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر لم اكن للظالمين ظهيرا ، ولا لمن يدين بطاعتهم مواليا ، ولا كنت كالمستعطى بكفه حتى يظهر حكم ربى .

جملة ما يدين به اهل الدعوة ويدعون اليه

الحمد لله الذى جعل فى كل زمان وأوان اقواما يذبون عن دينه ، عارفين بحكمه تابعين لسنة نبيئه أحمد صلى الله عليه وسلم ، اخذ من الدنيا قوته كفافا ، ولم ينازع أهله فيها عفافا ، وقال يدعو الى الله والى كتابه والى سنة نبيئه محمد صلى الله عليه وسلم ، ونجيب من دعانا اليها : الله ربنا، ومحمد عليه السلام نبيئنا، والقرآن امامنا، والكعبة

(I) لعلك تلاحظ ايها القارىء الكريم شيئا من الغموض فى الفقرات الاخيرة ، وهذا هو ما وجدنا فى النسخ التى اعتمدناها جميعا . وما يوجد بين معطتين زيادة منا لتستقيم العبارة .

قبلتنا ، رضينا بحلاله حلالا ، وبحرامه حراما، لا نبتغى به بدلا ، ولا عنه حولا ، وندعو الى فرائض مثبتات، وآيات محكمات ، وانا فى آثارها مقتدون بها ، ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم ، ان الذى ندين لله به الدعاء الى سبيل المقتدين قبلنا ، والاخذ منه بسبيلهم ، والاعتراف فيه لهم بفضلهم الذى فضلهم الله به من سابقتهم ، وفراق الناس جميعا على المعصية وانزالهم حيث أنزلوا أنفسهم ، والسيرة فيهم على قدر منازلهم ، والامر بالمسروف والمعروف طاعة ، والنهى عن المنكر ، والمنكر معصية الله ، وفراق أهله كله مع شهادة ان لا اله الا الله فردا واحدا ليس كمثلــه شيء ومعرفة الموت ، والبعث ، والحساب ، والجنة ، والنــــار والايمان بما انزل الله من كتاب وبما ارسل من رسول ، ونتولى الله ورسوله والذين آمنوا ونخلع ما سواهم ، ونقر له بجميع ما أمر به وجميع ما نهى عنـــه بحــق السمـــــع والطاعة » .

وعنه أنه قال : كان رجل من «ضنو» هو ابن عم المسيب ابن زهير ، وكان صفريا ، وكان من اصحاب شبيب ، وكان الحجاج بن يوسف طلبه فهرب الى البصرة ، فنزل عندنا فى دربنا فى الازد واكتتم عندنا ، قال فدعاه المسلمــون الى الاسلام ، فاجابهم وكان يسمى مصقلة ، ويسمى بعد ذلك بسطاما ، أبا النظر ، فغلب عليه بسطاما ، قال ، فكـــان يقول لهم الى من تدعوننى ؟ فقالوا له : انا ندعوك الى ولاية من علمته انه يقول الحق ويعمل به ، وندعوك الى البراءة ممن علمت انه يقول بخلاف الحق ويعمل به ، وندعوك الى الوقوف عمن لا تعلم حتى تعلم . قال ابو النظر ؟ فلمـــا سممت هذا من كلامهم علمت انه دين الله الذى ارتضاه .

قال ، فقبل الاسلام وكان خيرا فاضـلا ، ولـه فضل فى المسلمين وشرف . قال ويحضر المجالس فأول من يتكلـم هو ، وقد قال الامام افلح رضى الله عنه : عليكم بدراسة كتب أهل الدعوة لا سيما كتب ابى سفيان .

ـ ابو غسان مخلد

ومنهم ابو غسان مخلد بن المعرد رحمه الله احد علماء علم الفروع والكلام ، والمناضلين عن كلمة أهل دعـوة الاسلام ، وممن نجب من اصحاب ابى عبيدة ، وضح يده فى العلوم وأيده ، ان افتى فالشمس مشرقة الشعاع ، وان ناظر فالقمر مقتد فى البقاع ، وهو احد من أفاد واستفيد منه ، ورويت الاحاديث والفتاوى عنه .

قال ابو سفيان جاء رجل الى مخلد بن المعرد فقال له : يا ابا غسان ، ان عبد الله بن عبد العزيز وجماعة معـه يقولون من أفتى الناس بما لا يعلمونه حقا ، فان لهـم ان يقفوا عنه ، فقال له أبو سفيان : انت سمعته ؟ قال : نعم قال فارجع اليه وقل له : يا ابن عبد العزيز ، ما تقول فيما افتيتنا به من أمر حجتنا ، فانا لا نعلم ما تقول حتما ألسنا يجب لنا ان نقف ؟ قال ، ففعل الرجل فقال له ابن عبـد العزيز : انت رجل شغب ، ولـم يجـب بشىء ، فانصرف الرجل الى ابى غسان فاعلمه بذلك ، فقال ابو غسان : ان الذى قال لا يجوز فى الدين ولا يسع نقض ولاية أهـل الدين الا بما يسع مفارقتهم .

ومن هذه الطبقة حملة العلم الخمسة وقد تقدم من ذكر مناقبهم ، وسيرهم واحوالهم ، فى اثناء ما بسط من الانباء للدولة الرستمية ، ما فيه كفاية ، رحمة الله عليهم اجمعين

منهم الامام افلح بن عبد الوهاب رحمه الله هو ومن ولي من ذريته ، قد تقدم أيضا من اخبارهم في مواضعهـا ما اغنى عن اعادته .

ابو عبيدة عبد الحميد الجناونى

ومنهم ابو عبيدة عبد الحميد الجناونى رحمه الله . قد ذكرنا من نفوذه في الامور وامضائه وقيامه بالمدافعة عـن نفوسة وضيائه ، وادائه الامانة ووفائه احوالا مستحسنة المواقع ، مستحلات في المسامع ، الى ما طبع عليه من الورع واطراح الحرص في الدنيا وترك الطمع ، وهو احد علماء نفوسة ، الموصوفين بالاخلاق النفيسة .

ابو زكرياء التكوتى

ومنهم ابو زكرياء التكوتى ؛ وابو مرداس مهـاصر رحمهما الله ، بلغا في العلوم النهاية ، وجريا فى أمـــر الصلاح الى اقصى غاية ، الا ان ابا مرداس ممن هرب،وقنع بالخمول ، واعتمد على ان ما عدا أمر المعاد فضول . وامـا أبو زكرياء ، فكان علما لكل الفضائل ، ومعلما لكل ناهل

وذكر ان ابا مرداس كان يصلي في المسجد اذ سمع قائلا يقول : من يعطيني شيئا الليلة ينجيني ، وكان ذلك في مجاعة عظيمة فلما قضى ابو مرداس صلاته ، قال : ما يقول هذا ؟ فاخبروه ، فقال لهم بادروه فقد اقام عليكم الحجة فابتدروا اليه فوجدوه خلف جدار المسجد ميتا ففرضوا ديته ، فأدى أبو مرداس ما ينوبه منها ، وذكر ابو الربيع عن شيوخه ان ابا مرداس كان اذا اراد زيارة اخوانه بتاهرت يجمع ما بالجبل من أموال الوصايا مما كان فيها من فضل عما عينت له فيحمله معه الى تاهرت ليقوى به بيت مال المسلمين ، ويتوخى في ذلك انتفاع أصحاب الوصايا .

ابو مرداس مهاصر يتحرج من اراقة دماء الموحدين

وذكر ان الامام عبد الوهاب رضي الله عنه قال ، ذاكرت ابا مرداس في الوجوه التي يحل بها أو باحدها اراقة دماء الموحدين ، فذكرت احدها فتنكر وكره ، فأمسكت عن باقيها ثم ذكر الامام أربعين وجها ، وقيل سبعين وجها يحل بها دم من فعل شيئا فكيف ولو سمعها ابو مرداس كلها على تحرجه .

وعن ابي مرداس انه رأى خطأمن غير قصد امرأة مكشوفة الرأس فصام سنة ، كفارة على ذلك لكثرة اجتهاده ، وكان ذلك في ايام الربيع وقد خرج الناس ولم يبق في البلد الا ابو مرداس فنظرت المرأة في البلد فقالت ما بقي في البلد غير أبي مرداس ومثله لا أتحفظ عنه فرقت الدرج ، فرآها ، وذكر ان ابا مرداس فرغ ماء وضوئه فخرج يطلب الماء فطلبه من سبعة أبيات من جيرانه فلما لم يجد رأى أن قام عذره فعدل الى التيمم ، وعنه انه قال قد كفرت جارتنا اليوم مرارا ، وذلك انه سمع صوتها

من خيمة الى خيمة ، وبينهما سبع قامات ، ولعل الذى نسب اليها من الكفر انما هو الفاظ لم يقصد بها الكفر ، وربما كانت ممن لا ينبغى مخاطبتها بالتعليم والارشاد ، فقال هذا القول منه ليسمعه من كان ينهاها ويعلمها، وذكر عنه انه كان اذا قدم تاهرت فحصد الناس زروعهم ، ولقط اللقاطون السنابل التى تبقى بعد اللقاطين ورعي المواشى تعقبهم ابو مرداس فيلقط ما يقوم بقوت عام ، فيعتقد ان الذى بقي بعد اللقاطين ورعي المواشى انما هو متروك .

ستشملنا اللعنة اذا سكتنا عن المنكر

وذكر عنه انه كان بتاهرت ذات مرة فسمع رجلا يدعو رجلا آخر الى الحق ، فلم يجب دعوته وأعرض عنه فجاء ابو مرداس الى دار الامام فجعل يضرب فيها بالحجارة ويقول : بهلة (1) الله اليوم على من سكن هذه البلدة فقال رجل للامام كيف نحن وهذه التى يذكر أبو مرداس ، فقال نحن فى وسطها اذا لم نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، والامام حينئذ مشتغل بغسل يوم الجمعة، وكان ابو مرداس اذا نزلت عنده نازلة من مسائل الدماء كتب بها الى عبد الخالق الفزانى يستفتيه ، فيكون العمل بما يجاوبه به ، وذلك لكونه يرى عبد الخالق اعلم أهل زمانه بالدماء واحكامها .

وبلغنا ان رجلا من اصحابنا من أهل المشرق أقبل من بلاده يريد زيارة أهل الدعوة بالمغرب ، فاجتاز بجبل نفوسة فتصفح احوال اهل الجبل واختبر كل من يأويه اليه منهم ، ثم توجه الى الامام بتاهرت ، ولما وصلها تصفح احوالها واحوال من بها فسأله أهل تاهرت عن جبل نفوسة

(1) البهلة : اللعنة ، والطرد

فقال لهم الجبل هو أبو زكرياء ، وأبو زكرياء هو الجبل .

ابو مرداس كالغزال يفر بنفسه

واما ابو مرداس فكالغزال ، نفسي ، نفسي ، واما ابـــو العباس ففتي مقرعي ـ يصفه بالشدة والنجدة ـ فلما رجع المشرقي الى الجبل سألته نفوسة عن أهل تاهرت ، فقال ليس بها احد غير الامام ووزيره مزور بن عمران .

وبلغنا ان ابا مرداس كلف بأمر آخرته فاضاع أمر دنياه وكان مقترا عليه،يذكر انه شاور بعض اخوانه في التزوج وسأله ان يخطب عليه امرأة تصلح به ، فطاف بالجبل فلم يجد أيما الا واحدة مجنونة فاخبرها أن ابا مرداس ارسله ليخطب عليه امرأة ، فقالت له فانا اجبت خطبته ، قـال فأتي الرجل الى ابي مرداس فاعلمه بما كان من جـــواب المرأة ، وعرفه بحالها ، فقال ابو مرداس اما اذا اختارتني فانا اتزوجها. فتزوجها ابو مرداس ومكث معها دهرا وكانت من افضل نساء نفوسة واحسنهن وارفعهن ذكرا وذلـــك ببركة الشيخ ، وموافقته ، قلت لعل الذى ذكر فى وصفها بالجنون انما هو الوسوسة وشراسة الاخلاق ، أو ممن يجن ويفيق ، والا فكيف ينعقد النكاح على مجنونة لا تفيق ؟ ، وأما ما أذهب الله عنها فلا ينكر . وهي أيضا من الكرامات نحو ما تقدم من امثال ذلك فى هذا الكتاب .

ابو ميمون الجطالى

ومنهم ابو ميمون من أهل ايجطال من نفوسة الجبـــل رحمه الله ، ممن له فى الآخرة رغبة وترغيب ، ولم يكن له فى دنياه أكثر نصيب ، وكان ذا جد في العلم ، والاجتهاد وسعي فى العبادة . ومنافع العباد ، وكان ممن يعـــد فى الشيوخ ، وممن قدمه فى العلم ذا رسوخ ، وكان ذا تفقد

لمواضع المعروف وذا ايثار ، على ما كان عليه من الاتلال والاقتار .

ابو ميمون تصدق فيه فراسة امه

ذكر جماعة من الشيوخ انه كان بجبل نفوسة بايجطال امرأتان ولكل واحدة منهما ابن صغير ، فسألت كل واحدة منهما الاخرى ما ظنك بابنك وما ترين فيه ؟ فقالت احداهما اراه ان يكون عالما ، وقالت الاخرى اراه ان يكون عابدا ، فسألت كل واحدة منهما صاحبتها بماذا استدللت على ما قلت ؟ فقالت أم العابد أرى ذلك لانى اذا كنت فى الصلاة سكن وترك البكاء والتنغص ، فاذا خرجت من الصلاة واشتغلت بغيرها اكثر البكاء والتنغص ، وقالت الاخرى أرى ذلك لانى اذا شهدت مجالس الذكر والعلم سكن واطمأن قلبه لذلك ، ولم يتحرك ، واذا كنت فى غيره أكثر البكاء والقلق ، فصدقت فراسة كل واحدة منهما فكان العالم منهما ابو ميمون المذكور . قيل ، وكانت حلقة تجتمع على ابى ميمون يدرسون العلم ويأخذون السير اذ خطر ببال ابى ميمون ان ينظر فى التزويج من بلد غير بلده ، فمضى ومضى معه تلامذته وهم متمادون على دراستهم واجتهادهم ، ولم يفتروا فى مقام ، ولا فى رحيل فتزوج ابو ميمون وابتنى بامرأته فكان التلامذة مواظبين على درسهم ، عاكفين على عزمهم .

وذكر ان زوج الشيخ قالت : لما رأيتهم اقبلوا أبصرته أقصرهم قامة ، فلما حلقوا عليه وأقبل كل واحد منهم يسأل والشيخ يجيب ، رأيت حينئذ الشيخ أطولهم وأعظمهم .

وذكر ابو الربيع عن ابى محمد عبد الله بن محمد وسمعته من غير واحد ، أنه قال : استودع رجل عند ابى

ميمون وديعة دنانير ، وسافر عن جبل نفوسة وطالت غيبته ، فوقعت في جبل نفوسة مجاعة عظيمة ، واشتدت عليهم الشدة ، حتى اضطروا الى أكل الميتة ، ثم ان صاحب الوديعة قدم ، فقصد دار الشيخ أبي ميمون ، فسلم عليه ورحب به ، فوجد قدرا يفور باللحم ، فسأله الرجل عن الوديعة فقال له : هي حيث دفنتها ، فاحفر عنها وارفع وديعتك . فحفر في الموضع الذى دفنها فيه ، قال المخبر وفي اثناء ذلك وقع في قلب صاحب الوديعة شيء مما يقع في القلوب من التغيير ، وساء ظن نفسه بالشيخ ، لما لم يعرض عليه المقام لتناول الطعام ، وهو قادم بعد طول المغيب ، وبعد عهد بالمزار ، مع ما تعهده في الشيخ من الايثار ، فلم يتمالك ان تكلم بما في قلبه ، ولم يكف عن غربه (1) في عتبه ، حتى اذا استوفى ما عنده ، قال له الشيخ ، احمل وديعتك ، وعد عما سواها ، فان الذى في البرمة مباح لنا وليس لك بمباح ، قال وما هو ؟ قال : الميتة ، اضطرنا اليها الجوع والقرم ، ولست انت بمعدم فقال معاذ الله ان أكون واجدا وتكونوا معدمين حتى تستوجبوا أكل الميتة ، فدفع له عشرين دينارا ، فقبلها منه وأمر بانكفاء القدر ، وعالج من العشرين دينارا ما أكلوا وأطعموا ضيفهم .

معاذ الله ان اكون واجدا وتكونوا معدمين

ابو المنيب محمد بن يانس

ومنهم ابو المنيب محمد بن يانس رحمه الله . المجالد لنفسه ، المتصف بالمآثر في أهل جنسه ، ذو الدعوات المجابات ، والخشوع والانابة ، وكرامات تضاهي المعجزات

(1) الغرب الشدة والحدة ومنه غرب الشباب اى نشاطه وحدته

يخل بالدنيا ، ويفرغ لاعمال الطاعات ، قد تقدم من وصف احواله وما كان عليه من المجاهدة ، والقيام والصيـــام ، وخدمة اصحابه الذين وفدتهم نفوسة مددا للامام، ما يدلك انه أهل لاجابة الدعاء ، لاتسد دونه ابواب السماء ، وهو ممن سمع العلم وسمع منه ، وأخذه عن أهله وأخذ عنه ، لدعائه المستجاب ، وكراماته التى هى العجب العجـاب ، وسنذكر من ذلك ما امكن ، وان أسره فقد ابى الله الا ان يعلن ، ذكر عن ابى زكرياء التكوتى ان محمدا بن يانس كانت له غنيمة لا راعى لها ، فكـان اذا اصبح واراد ان يرسلها الى المراعى يقول لها : انهاك ان تضرى احــدا ، وانهى ان يضرك احد ، أمضى فى حفظ الله . قال فتسرح فتمر فى أوساط الزرع فلا تضر شيئا ، ولا تأكل غـــير الحشيش والمباح الذى لا حق فيه للناس ، حتى تروح على ربها سالمة ، لا يطمع فيها سارق ، ولا يضرها ذئـب ، ولا ضبع ولا سبع .

محمد بن يانس يتفرغ للحسبة

قيل وكان دأبه الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، وكان يتفقد المزارع والجنات والطرقات محتسبا ثواب اللـه ، فمتى وجد أحدا أهم بافساد شىء من ذلك أو بادخـال ضر على أحد من المسلمين صرفه عن ذلك ، وحال بينه وبينه ، وكان لا تمسه غفلة عن هذا الشأن ، ومع كثرة عبادته فقد جعل هذا من أوكدها . قيل فلما كان ذات يوم وجد ثلاثـة اخوة وقد عزموا على ضرر ، قد قصدوا به غيرهم ، وقـــد اخذوا فى عمله ، فنهاهم عن ذلك فقاموا اليه ونالوا منه وعاملوه اقبح معاملة ، فسمعت قبيلته وأهل منزله بالذى ناله من القوم ، وارادوهم بشر ، فنهاهم محمد عن ذلك ، وقال ما نالوا منى شيئا الا وقد نلت منهم أكثر واعظـم ،

فسار احد الاخوة الثلاثة فطلع الى كبار رآها متعلقة بالجبل فوقع ، فلم يصل الى الارض وقد تمزقته جروف الجبل ، فلم يجمع لحمه الا بالابرة فيما ذكر ، ومضى الثاني الى بئر يسقي منها، فسقط في البئر فوجدوا رأسه موشوقا كرأس بصلة بين الصخور ، ودخل الثالث داره فبلاه الله بالانتفاخ فانتفخ حتى انشق بطنه ، وكل ذلك في يومهم الذى كان فيه ما كان منهم الى الشيخ ، نعوذ بالله من العقوق .

كرامة يظهرها الشيخ لرفيقه

وذكر عنه أيضا انه كان له سبعة مساجد بعضها في الجبل و بعضها في السهل فكان لا تفوته الصلاة في كل مسجد منها كل ليلة وهو شيخ كبير .

وذكر عنه رافق رجلين لا ادرى الى الحج ام الى تاهرت ، فلما كانوا ببعض الطريق قال احدهما اتمنى الآن ماء عين كذا ـ يعني عينا ببلده ـ وقال الآخر : أتمنى هاهنا لبنا ، فقال لهما محمد ان كتمتما ما تريانه يحضر ما تمنيتماه ، فحل فم سقاء فصب منه لبنا على الصفة التى تمناها صاحبه ، ثم صب للآخر ماء لا يشكون أنه ماء العين المذكورة التى تمنى ماءها ، وكلاهما من سقاء واحد لم يتقدم فيه غير ماء من مياه المكان الذى كانوا فيه ، وذلك بقدرة الله عز وجل واكرامه وشرفه وخدمته .

قيل ودخلوا في توجههم هذه مدينة من المدن فمرت بهم امرأة في ايدى الشرط يغلونها ، وهى تصيح : أغيثونى معاشر المسلمين ، فاغاثها محمد بن يانس ، وسل سكينه ودافعهم حتى خلصها منهم ، فحملوه الى السلطان وقد هرب أصحابه ، فقال ما حملك على انتزاع المرأة من ايدى خدامى ؟ قال سمعتها تصيح بالله وبالمسلمين ، فلم اتمالك ولم أر في دينى ان اسلمها ، فأمعن النظر فيه طويلا ، ثم

قال : تركناها لله واجـلالا لحقك ، يا حـاج ، فرجـع الى اصحابه فوجدهم مستخفين ، فقال لهم ما حملكم على هذا ؟ قالوا خفنا من سوء عاقبة ما اجترأت عليه ، فقال انما كان قيامى فى الله وهو اعلـم ، فليس بمضيعى ولا خاذلنى ، ولم اغضب لله قط الا ونصرنى ونجانى ثم تلا : « وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهـم ، لا يمسهم السـوء ولا هـم يحزنون » وفى هذه الحكاية ما يدل على انهم انما كانوا فى طريق الحج والله اعلم .

يقـول الشيـخ لـم يغضب للـه قط الا ونصـره

وذكر عنه انه كان اذا مضى الى غار يتعبد فيه يعد زادا قليلا فليبث فى الغار المذكور المدة الطويلة التى يفنى فى بعضها أضعاف ذلك الزاد ، فكانت هذه حالته حتى ساء ظن امرأته وحسبت انه قد تزوج غيرها ، وان التى تزوج هى التى تقوم بطعامه المدة التي يفنى فيها زاده فتوجهت امرأته الى الغار ، فدخلته فى خفية على حين غفلة ، وكمنت بحيث لا يشعر بها بعلها وراقبت الى وقت افطاره ، فلما صـلى ما شاء الله كما كان يصلى قبل تلك الليلة تحول الى شجرة رتم أو تمام فأخذ منها فافطر عليه ، وأكل منه ما اقتات به ، حتى اكتفى فلما وجدت الامر على خلاف ما حسبت ، وعاينت ما عاينت . قالت له أو دأبك على هذا ؟ فقال لها كلى يا امة الله ، فأكلت طعاما نهاية فى الحلاوة ، ثم حملت ما قدرت عليه من ذلك الطعام واتت به الى البلد ، واخبرت أهل البلد بما شاهدت وناولتهم وقالت لهم كلوا فلما ذاقوه وجدوه مرا مضرا .

يقتصر على القليـل من الزاد اثناء تفرغه للعبـادة

ابو خليل اليدركلى

ومنهم ابو خليل من أهل ايدركل رحمه الله ، شيـخ الجماعة النفوسية الاخيار ، وأول من اخذ عن الخمسة

الحملة العلم الاخيار . ومن اثبتت اخباره في مشهور الاخبار ورويت عنه السير والآثار ، ذكر ابو الربيع ان ابا خليل رحمه الله يقول : والله ما انتم الا على الجادة ، ولاتركتكم الا على الواضحة المنيرة ، وما بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير ثلاثة لم ارهم ، وذلك لانه أخذ عن ابن عباس وعن غيره من الصحابة رضى الله عنهم وروايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

شهادة المشائخ له عند احتضاره

وذكر شيوخ من اصحابنا ان ابا خليل لما حضرته الوفاة اجتمعت عليه الشيوخ فقال لهم : كيف حالى عندكم ؟ فقالوا له : خير حال عبدت ربك العمر الطويل ، وتعلمت العلم وعلمته وعلمت السير والاخلاق،فقال لهم : أبهذا تشهدون لى عند الله ؟ قالوا نعم ، قال : اكتبوها هاهنا ، فكتبوها في رقعة ، فقال لهم : اذا مت فاجعلوا الرقعة فيما يلى جسدى تحت الكفن ، فتوفي رحمه الله على مائة وعشرين سنة وعقله محفوظ ، فلما جهزوه جعلوا الرقعة بين جسده وكفنه ، فلما أصلحوا القبر وألحدوه ورمسوه ، وقفوا وخطوا عليه الحريم ، فاذا كتابهم الذى فيه شهادتهم ملقى فوق تراب القبر ، فرفعوه فاذا فيه غير خطهم الذى كتبوه فقرأوه فوجدوا فيه : هو عندنا كما هو عندكم .

وذكر ابو الربيع ان ولدا لابى خليل قتل وترك يتامى فأخذ الشيوخ قاتله ، فقادوه لابى خليل ، ثم سألوه ان يعفو عنه ، فقال لهم دعونى الليلة ادبر رأيى ، فمضوا وتركوه عنده ، فأمر بالجانى فأضجع وذبح ، فلما اصبح غدوا اليه فوجدوا القاتل مذبوحا ، فاستعظموا ذلك وأنبوه عليه . فكان مما خاطبوه به أن قالوا اجتمعت فى قصتك هذه ثلاثة اشياء : ائتمناك عليه ، وسألناك العفو ، واستعنت

يقتل الجاني خوفا على اولاده ان يكونوا جناة

عليه بغيرك ! فقال لهم : أما قولكم امانة فمحال ، والا فما تقولون في رجل اتى الى رجل بمال ، فقال : هـــذا مالك امانة عندك ، هل يأكله ام لا ؟ واما سؤالكم العفو وهـــو خير ، فصحيح ، ولكني خفت على أولادى ان يكونوا جناة بأن يقتلوا غير القاتل أو يقتلوه ، وليس ذلك لهم ، وامـــا قولكم استعنت عليه بغيرى فما تقولون في شأن الضحيـــة هل على من استعان عليها بغيره من جناح .

قلت لعل اليتامى الذى خلف ابنه اناثا لا ذكر معهن ، ولو كان معهن ذكر لكان أولى بالـــدم مـــن أب المقتول ، ولا يصح غير هذا ، اذ لا ينسب الى أبى خليل هذه السقطة على جلالته، وصلاح حالته ، ومكانه في العلم والدين أن يتعمد قتل من لا سبيل له عليه .

يحث اولاده عـــلى ملازمة مجلس العلم والبحث عنه

وروى ان ابا خليل كان يقول للتلاميذ سيروا الى الحلقة واقصدوها حيثما كانت يا كسالى ، فان رجلا قد سار مـــن الجبل الى فزان والى غدامس ، والى الساحل ، رغبـــة فى الحلقة ، وفيما يستفيده ، فلقيه فى الطريق قطاع ، فدافع عن نفسه حتى جرح سبعة عشر جرحا ، فظنوا انه قد مات فتركوه فوجد فى نفسه النهوض فنهض ، ودخـــل موضعا يقال له وعمان ، ومكث فيه اربعين ليلة بلا طعام ولا شراب غير انه يرى فى نومه من يطعمه ويسقيه ، وخرج مـــــن الموضع وهو أصح شيء ، وكأنه لم يصبه ألم ، وذلك بفضل الله وحسن نية الرجل وجميل قصده .

ابان بن وسيـــم

ومنهم ابو ذر أبان بن وسيم النفوسى ، رحمه اللـــه ، طـــود العلم الشامخ وحصـــن الـــورع البـــاذخ ، ودع

أهل الدنيا بعد حين ، ورجع الى الله فهو فى حلبة المفلحين وأحيى السنة من البلى وذلك ببركة الصالحين وكان ذا سعة في المال والعلم وممن وسع أهل زمانه ما لديه من المعروف والحلم ، فكان أمضى من الحسام متى أفتى ، جامعا من المحامد لمعان شتى ، وقد أوتى من كرامات الاولياء ما أوتى أمثاله ، لم تزل ملازمة الصلاح أحواله ، مصدقة اقوال افعاله .

كان الشيخ يجل ويحترم من يتعلم العلم لله

كان ابان ممن قرأ على ابى خليل وكان معه طالب آخر يعرف بابن مؤنسة ، يقرآن جميعا على ابى خليل ، فكان أبان متى دخل على الشيخ فوجده مضطجعا أو متكئا أو مستغشيا ثيابه انحفز واستوفز (I) ، وجلس مستويا ، فاخرج رأسه من ثيابه احتفالا به ، واهتبالا لشأنه ، واذا دخل عليه ابن مؤنسة فوجده على أى حال كان ، بقي عليه لم يتحرك ، ولم يتحول استخفافا به ، فكانوا على هذه الحالة الموصوفة مع كل واحد منهما ، حتى قال حفيد الشيخ أو ابن اخت له هل علمت يا شيخ ان قد تكلم فيما تقابل به كل واحد من تلاميذك ؟ قال له الشيخ بالبربرية «يا مبتلى» أفطنت لهذا يا بنى ان ابانا يتعلم العلم لله ، وابن مؤنسة انما يتعلم العلم ليؤذى به ، ويؤذى. فكانا كما تفرس فيهما الشيخ رحمه الله . وذكر ان ابانا تزوج امرأة فلما انعقد عليها نكاحها زارها فى بيتها ، ورام ارخاء الستر عليها هنالك ، فلما وصل بيتها استأذن عليها . ففتحت الباب فقالت من هذا فقال انا ابان قد زوجنيك وليك ، فأغلقت الباب فى وجهه ، وقالت انك وان كنت أمينا لمحتاج الى أمناء . قلت ولعمرك ان هذه لمن زلات العلماء ، وان المرأة

(I) جلس مستويا متهيئا للقيام

لأولى بالصواب منه لوجوه كثيرة ولم نذكر هذه الحكايـــة لتطلع منها (على) عورة الشيخ بل لتعلم انها نظرت بمرآته واستضاءت بنوره ، وشملتها بركتــه ، وكــان الاولى أن يعلمها بذلك وليها ، وشهود عقد النكاح ، وحينئذ يحاول في أهله ما شاء ، ولئن فعل فانه لم يأت اثما ولا حاب حوبا.

ومما شكره عليه الشيوخ بجبل نفوسة انه رخص للناس في ثلاث مسائل : افتى فيها وشهد له فيها كلهم بالصواب، الاولى ان النساء قد كن في رمضان متى كن في انتظـار أيام الحيض اذا اقبل الليل يوقدن النار الليل كله خشيـة ان يفاجئهن الامر ولا علم عندهن ، فكان ذلك اشـد شيء عليهن تعبا ونصبا ، فقال لهـن ابان ايما امرأة منكـــن احست شيئا من ذلك فلتجعل علما فكل ما رأت على علمهـا بعد الصبح فاستدلت به ، حكمت بذلـك ، ويجزيهـــا . الثانية ان نساءهن المرضعات كن يرين ان وضوءهن منتقض بأفواه أولادهن فمتى ارضعن اعدن الوضوء في كل وقت صلاة لاجل افواه الرضع ، فقال لهن ايما امرأة حفظت فم ولدها ومسحته فارضعت وهي متوضية فلا ينتقض وضوؤها. الثالثة انهن اذا عملن غزلا قد صبغها اليهودي ، فمستـه رأين ان وضوءهن قد انتقض لمسه ، لان اليهودى نجس ، فقال لهن ايما امرأة مست صباغ اليهودى فليس عليهـا الا غسل يديها ، وليس عليها اعادة وضوء .

ابان سهل للناس في ثلاث مسائل شددوا فيها

ذكر غير واحد ان بدأ أمر ابان بن وسيم ، ورجوعه الى الله وتركه ما كان فيه من الخوض في غمرات الدنيا ، انه كان هو واخ له اسمه سعيد يكنى ابا محمد مريضين ، وكان أخوه أسن منه ، وكان متقدم التوبة فاضطجعا في غـــار واحد ، وكان مضطجع أبي محمد داخل الغار ، وابان مما

مكانة اخيه تحفزه على التعلم والاجتهاد رغم الكبر

يلي باب الغار ، وكان الشيوخ والعواد يدخلون لعيادة ابى محمد فيدخلون ، ويتجاوزون أبان ، وينتهون الى سعيد ، فيجلسون اليه ، ويؤنسونه ، ويحفون به ويختلفون اليه ويسالونه عن حاله ، وعما يشتهى، فاذا كان عند انصرافهم دعوا الله ان يشفيه ، ثم يتجاوزون على أبان لا يختلفون وغايتهم ان يقولوا كيف حالك يا ابان ؟ يا ضعيف ؟ وربما دعوا له بالشفاء . فكان ذلك لما اراد الله به من الخير والصلاح زجرا له عما كان عليه ، وردعا ، فاذا سألوه هذا السؤال قال : فان فرج الله على أبان سيريكم ما يصنع وتقفون على خبره ، ان شاء الله . وفرج الله عليه فوفى بما اعتقد ، وتاب ورجع الى الله تعالى ، فكان فى حلقة أبى خليل مواظبا للدراسة ، عاكفا على القراءة ، والمطالعة ، حتى بلغ الغاية بالعلم والورع والاجتهاد فى العبادة .

لكل زمان نذير وانت نذير زمانك

فبلغنا ان شيخه ابا خليل قال له يوما وقد اعجبه ما هو عليه واستسر بما انتهى اليه ، اعلم ان لكل زمان نذيرا ، وانت نذير زمانك ، يا ابان افت الناس بما لا بأس به من الرخص يكون ذلك لهم عذرا ،عند مولاهم ، فسأله رجل عمن أكل يوما يحسب انه أكل ليلا وهو صائم فاذا هو أكل بعد الصبح ، فتجهم له واغلظ عليه ، وشدد حتى بدا فى لسانه تلجلج والتواء ، وقال يحمل احدكم الشره والنهم حتى يأكل صباحا ، ثم يطلب المخلص ، ثم افتى له بأن صومه لا ينهدم ، وأمره ان يقضى يوما مكانه .

تحفظ من المطر لطاعتها لزوجها

وذكر ان ابنة لابان جاءته زائرة فصب مطر غزير يمنع من التصرف ، فقال لها بيتى الليلة عندنا ، فقالت لم يأذن لى فى المبيت ، انما اذن لى فى الزيارة فقط ، تعنى بعلها ، قال فتمادى المطر يهطل وأقبل الليل ، فعلم الشيخ

ان الذى قالته هو الواجب ، وان امتناعها من اجابته هو الصواب ، فقال لها اذا فسيرى فى حفظ اللـه وستـره ، فمضت الى زوجها ومنزله بعيد فأدركته والمطر يضرب ولم تقطر قطرة مطر ، ولا وقعت على ثيابها ، فمرت بناس فى سباط المنزل قد حبسهم المطر ، وجمعهم هناك ، فلما رأوها وكيف حفظها الله عز وجل بدعوة والدها ، جعلوا يتعجبون ويذكرون الله عز وجل ولطفه بعباده الصالحين .

كيف كان النـاس وكيف اصبحوا

ومما حفظ من كلامه فى ذم الزمان واهله ، انه قال : (قد ادركنا الناس الذين هم الناس محادثتهم ذكر اللـه تعالى ، وزيارتهم فى الله تعالى ، ومعانقتهم فى الله تعالى ، ومحبتهم فى الله تعالى ، وبقينا حتى ادركنا ناسا محادثتهم ذكـر الدنيا ، وزيارتهـم لتقاضى الحوائج ومعانقتهـم نطاح) (1) ومن كراماته ان ذئبا اذاه فى بستانه فدعـا عليه ، فوجده من الغد منتفخا ، وذكر ان ابانا قال يومـا لابى عبيدة عبد الحميد علينا ولاية الاشخاص فأبى له ابو عبيدة ، فلما رآه ابان كذلك دخل بيته وأخـذ سـلاحـه وخرج ، وقال له لتعتقدن هذا وتدين به . قال فلما رأى أبو عبيدة صريمته وعزيمته، قال من أين أخذتها يا أخى ؟ قال : أخذتها من الذى أوجب علينا طاعتك يعنى الامام عبد الوهاب ، فقبل ابو عبيدة الحق وتبين له .

ــ ابو مهاصر موسى بن جعفر

ومنهم ابو مهاصر موسى بن جعفر رحمه الله . شيـخ النسك والتبتل ، والمكرم بالدعاء المستجاب ، المتقبـل ،

(1) يعنى انهم يتعانقون بابدانهم ، ومشاربهم وأفكارهم مختلفة ، فعناقهم كانـه نطاح لا لمحبة واخوة

رفض شهوات النفس وباعدها ، فبان بأسنى المنازل ،
واستوجب الرقي في درجات الافاضل ، ازدرى أهل الدنيا
وهم يرون أن قد ازدروه ، وباع حظه منها حين بذلوا فيها
نفائسهم واشتروه ، وتحقق ان من اشترى الدنيا غبن ،
وجاء عليه الدرك ، فمن عرف ما طلب هان عليه ما ترك ،
وما هو فى تحصيل النوم بذى تقصير ، ولا باعه فيها
بقصير ، الا ان النسك اغلب عليه ، والمجاهدة أقوى
يقينه .

يذم البادية لانه لا يتمكن فيها من الطهارة

حدث جماعة من المشائخ ان ابا مهاصر خرج سنة من
السنين الى البادية فى أوان الربيع ، هو ، وعمروس بن
فتح رحمهما الله ، فلبثا اياما على غير ماء فى برية من
الارض، لا يجدون ما يتوضأون به، انما كانوا اذا حضرت
الصلاة تيمموا وصلوا ، وتكدر خاطر ابى مهاصر لذلك ،
حتى قال ذاما لهذه الحال : قلوب تربو عليها الشحوم مما
سمنت ، ووجوه تعلوها الغبرة ، قلت سلامة الدين مع أهل
الوبر ، انما الدين فى المدر ، والله لا يجمل بنا ان نترك
الدين لاتباع شهواتنا ، وانى لاخاف ان اكون ممن عاب
الله عز وجل ، فقال فيهم : « أضاعوا الصلاة واتبعوا
الشهوات فسوف يلقون غيا » . فرد عليه عمروس بان قال
له : ليس فى ذلك ما تخافه ، فقد اباح الله التيمم عند
الضرورة ، فابان ذلك فى كتابه وعلى لسان نبيئه صلى الله
عليه وسلم ، وذلك فى ابتغاء الفضل ، وقطع الفيافى
المجاهل من الارض، وقال : «ابتغوا من فضل الله» وقال :
«عابرى سبيل» وقال «فلم تجدوا ماء» فلم يقنع ذلك جميعا
ابا مهاصر بل ارتحل راجعا الى منزله ، قيل وانه استصحب
معه من الزبد وغيره ما يتحف به أهل منزله ، فلما وصل

جعل يهدى الى كل دار من ديار قريته ما امكن ، حتى لم يبق بقريته احد الا وقد قات من ذلك ما قدر له ، حتى يهودى ضعيف كان معهم ساكنا ، فأناله من ذلك ، وقال اليهودى : وانا أيضا لم ينسنى اللهم لا تنسه من رحمتك برحمتك ، فقال عند ذلك ، وهذا ما اردته منك يا يهودى يعنى الدعاء ، قلت ولعله اراد ما يعطفه ويلين ، فيدخل الاسلام ، والا فمثل ابى مهاصر لا يجهل قوله تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله » قيل وجمع ابو مهاصر من الصبيان فاعطاهم حتى هرة كانت معهم ، وقد قيل جروة فدعا له الصبيان ربهم ، ولقد شوهدت الهرة عند اختلافهم وهم فى الدعاء شائلة يدها معهم كهيئة الداعى الى الله تعالى فيما ذكروه . فقال من شاهد ما شاهد : ان الله خلق الرأفة والرحمة واسكنها قلوب المومنين ، وخلق القسوة والجفوة وأسكنها قلوب الكافرين،وجواب أبى مهاصر قد حكي مثله عن ابى مسعود رضى الله عنه .

لم تضحكون من اتاني وقد اقامت عليكم الحجة ؟

وحدث الشيخ أبو نوح عن غير واحد ان ابا مهاصر كانت له أتان حج عليها سبع مرات ، وعادته اذا خرج متوجها الى الحج ، سار حتى اذا وصل مصلى له كان يتعود الركوع فيه ، فيقف هناك يدعو الله ، فتنهق الاتان هناك نهقة ، فنهيقها يعرفه اهل قريته بانفصاله ، ثم لا تنهق حتى يعود ، فاذا عاد ووقف بذلك المصلى يصلى ، فيدعو فتنهق ايضا ، فيعرف اهل قريته انه قد رجع ، فيضحك عوامهم وجهالهم ، ويقولون اتسمعون اتانه نهقت ؟ فيقول لهم ابو مهاصر : لم تضحكون بها وقد اقامت عليكم الحجة ، وانقطع عذركم فى استطاعة السبيل ؟ وذكر ان أبا مهاصر

خرج ذات مرة فى بعض شؤونه فمر بغزالة ترضع طلاها ، فلما راته ذعرت ، وفرت ، وعزلت طلاها ، فقال لها انا ابو مهاصر ، ارجعى الى ولدك ، فرجعت. وذكر انه سمع نقنقة ضفدعة فنـــزل اليها فوجد علقة متعلقة بعينها فنزعها ، وقال آذتك يا ضعيفة ؟ فأومت برأسها : اى نعم .

أبو عثمان المزاتى

ومنهم ابــو عثمــان المزاتى الدكمى ، رحمــه اللــه . ذو الايثار والسخاء ، وكرامات الاولياء ، المفــزع اليــه لاستجابة الدعاء ، المقصود فى الشدة والرخاء ، سلك فى النسك والزهد أنهج المسالك ، وتحرى جهده فيما يبعــده عن المهالك ، واما العلم فليس هو هنالك . وابو عثمان هذا ممن سكن بجبل نفوسة ، وليس الجبل قديما له بدار ، لكنه نزله فاستقر خير استقرار ، ووسعه ما وسعه فى الايسار والاعسار ، ولمصيره كاحدهم غلب على اسمه ما غلب عــلى ذلك اللسان ، فكان اسمه مشهورا باللغــة النفوسية ، فاذا ذكروه قالوا (باثمان) .

باثمان يتعظ بالحيوان الذى يسعى ولا يــدخر

فمن كرامته ما ذكر ان مجاعة وقعت بجبل نفوسة،فكان عند باثمان غرفة موسوقة شعيرا ، فخــرج يوما يستقى ، فلم يجد على البئر أحدا يستعين به ، فنظر فاذا ذئب فقال له باثمان بلسان البربرية كلاما ترجمته بالعربية ، لم نجد اليوم على الماء سواك ، فهلم فامسك لى فم السقاه يا آفــة الغنم ، فانطق الله الذئب فاجابه باللسان ايضا بما ترجمته انا ساع فى تحصيل معيشتى ، اذ لست مثلــك يا باثمان ، تدخر الشعير الحولى، فذكر ان الذئب اقبل حتى ادخل رأسه بين علاقة السقاء ، وأمسك بفمه فم السقاء ، فملأ باثمان

سقاءه، وسار الذئب وانقلب باثمان الى البلد ، فألهم ان ذلك تنبيه من الله عز وجل ، وعناية به ، فعمد الى الغرفة فتصدق بجميع ما فيها .

باثمان يدعو الله فيستجيب له

وذكر ان الجبل اقحط سنة من السنين ، ولباثمان بستان فجفت اغصانه وتساقطت اوراقه ، فقالت امراة باثمان لابن له ، سر الى ابيك ، فقل له يدعو الله ان يسقي بستاننا فقد هلك ، وسار الصبى حتى قدم على ابيه فلما رآه قال أبعثتك امك لاستقى لكم البستان؟ من غير ان يعلمه الصبى بشىء ، فقال له نعم ، فدعا باثمان ربه فارسل الله سحابة فحامت على بستان الشيخ فسقته ، حتى فاضت جسوره ، وسكوره (1) ، فأصبح مهتزا ، مخضرا ، ولم تجاوز السحابة بستان الشيخ ، فاجتاز به شخص كثير الاصابة بالعين ، فنظر الى اخضراره، فقال عجبا لهذا البستان كانه فى النيل ولم يلبث ان جف وذبلت اشجاره ، فبلغ الشيخ ذلك فدعا على العائن بان يميته الله فريدا بلا وصية ، فيل فخرج من منزله فغدا الى الحصادين فوجد فى طريقه ميتا ، فريدا، وقد كتب وصيته فنسفتها الريح ، وقيل بل دخل فى سرب يحفر طفلا ، فانهدم عليه ، ومات . وعلى كلا الخبرين قد علم ذلك من نفسه متقدما فلم يغض طرفه ، ولم يكف لسانه ، والا فاى ذنب على من نظر مستحسنا خلق الله ، أو تكلم متعجبا من صنع الله .

نساء يتمنين التفانى فى خدمة الغير رجاء ما عند الله

وذكر الشيوخ ان ثلاث نسوة صالحات مجتهدات اجتمعن يوما بجبل نفوسة، وتحدثن فامضى بهن التحدث الى الامانى حتى قالت احدا هن : أتمنى لو ان الله ساقنى الى قوم جهال

(1) جمع يسكر بالكسر ما سد به النهر ، أو ساقية الماء .

فأعلمهم ما يحتاجون اليه ، من امور دينهم ، فيرحمنى الله بما اعلمهم، من فضل العلم والتعليم. وقالت الثانية اتمنى ان لوآوى الي نفر من المسلمين فى ليلة ذات مطر وبرد وقد بللهم المطر ، وتمكن منهم البرد والجوع ، فانهض فاعالج لهم ما يذهب عنهم البرد والجوع ، فيرحمنى الله بهم ، لفضل الصدقة وحرمة الصالحين . وقالت الثالثة اتمنى لو تزوجنى رجل ذو غلظة وفضاضة فيحملنى ما يعجز عنه مثلى ، ويكلفنى من خدمة فوق طاقتى ، ويؤذنى بانواع من سوء العشرة ، فاصبر على ذلك واطيعه ، فانال بذلك خيرا فيرحمنى الله لفضل حسن التبعل ، والصبر على الاذى قيل ، فقضى الله عز وجل امنية كل واحدة منهن .

منزو بنت باثمان وامنيتها المتعبة

وكانت المتمنية البعل السوء العشرة ، منزو بنت باثمان فانكح باثمان بنته رجلا من قومه مزاتيا ، فلما تزوجها ركب على جمل له ومضى ، حتى مر بنساء على ماء ، فقال ان كانت منزو فيكن فانى لا آذن لها في المقام بعدى، وكانت فيهن فقامت فاخذت رداءها فارتدت وسارت فى اثر بعلها، حافية ، راجلة، فمشت حتى وجيت (1) ، فصارت اذا رفعت قدما اذ الدم فى موضع القدم ، الى ان ينزلا ، فاذا نزلا قامت وابتدرته بردائها فوسدته ، فكان ذلك حاله ، وحالها حتى وصلا وطنه ، فبنى لها بيتا بنبذة عن الناس ، فكان يسيء اليها ، وتحسن، ثم تزوج عليها امراة ، فكان ما تلقاه ابنة الشيخ من سوء العشرة فى زيادة ، وكان الذى يبدو منها من الاحسان والصبر فى زيادة ، فلما كان ذات يوم اذا قافلة لاهل جادوا قد مرت بها ، فتكلمت بكلام له وزن فى غناء البربر ، وترجمته (ألا احد يزورنى فى الله

(1) رقت قدمها واذاها المشى حافية

فيذهب غم النفوس ، ويزيل الوحشة ؟) فوقع كلامها فى مسامع بعض أهل القافلة فحدوا بها جمالهم ، حتى وصلوا جادوا ، وتذاكروا كلامها ، ففطن بذلك ابو زكريا يحيى ابن يونس السدراتي ، فعلم انه كلام بنت الشيخ ، فمشوا في جماعة من المشائخ يندبهم الى زيارتها ، حتى تيسر له مراده من ذلك ، فخرج اليها المشائخ ، ومعهم باثمان ، حتى وصلوا اليها فوجدوها منفصلة في قميص تصلح خيمتها ، خارجا من الخيمة ، فقال لها ابو زكرياء اني لأختار ان اجد جنازتك خارجا ولا اراك على هذا الحال واستتابها ، فتابت مما كان منها ، ومكثوا عندها ثلاثا فارادوا الانصراف ، فرغبت اليهم فى اقامة ثلاثة أيام أخرى ، ففعلوا فلما مضت ست ليال ، وأرادوا الانفصال واجتمعوا لوداعها قالت لابى زكرياء : انصب لى هاهنا قدمك لاذكركم بها ، وتذهب عني الوحشة ، ففعل ، فاكفأت عليها قدحا ، فقالت له ازلت عنى الوحشة ، وعلمتنى العلم يا سدراتى ، لا عطشت يوم المرورات ، فقال لها : لا تقولى يوم المرورات بل قولى يوم الشدائد ، لان المرورات المفاوز فى الدنيا ، ـ والشدائد ـ ما يكون فى الآخرة ، ثم قال باثمان يا بنتى سبق القضاء بان انكحتك من لا احبه ولا تحبينه ، فعاملك بما أرى فلا تجزعي ، ولكن اصبرى فانى ارجو الله ان لا تنصرم عشرة أيام الا ويموت من يموت ، ويفرج الله عليك ، وينقطع عنك النصب ، وهذا القول بكلام بربرى موزون أيضا ، قال فودعوها ومضوا ، قيل : فلما كان العاشر من يوم وداعها أورد بعلها ابله على بئر لهم ، فجعلوا يمتحون ويسقون حتى انقطع الرشاء وسقط الدلو فى البئر ، فهم

احد عبيده بالنزول الى الدلو ، فابى الا ان يكون هو الذى ينزل ، وذلك لما سبق في علم الله ، فنزل وشدها ، ثم قال لهم:ارفعونى فرفعوه الى ان حادى بحفير فى البئر ، فاذا حنش عظيم قد رصد له ، فاغرفاه ، بيض عيناه ، فناداهم : أنزلونى ، فانزلوه ، فرجع الحنش فى غاره ، ثم قال لهم ارفعونى فرفعوه فلما حادى أيضا موضع الحنش اذ هو قد رصد له ، فقال أيضا : أنزلونى فأنزلوه، فلم يزل حاله : انزلونى ، أرفعونى حتى أيقن بالهلاك وقال لهم : ارفعونى ، فلما قابل مكان الحنش اخذه وجذبه الى غاره ، فما سمعوا الا تضعضع عظامه ، وكفى الله المؤمنين القتال .

وقد ذكر الشيخ ابو نوح : انه حين جلبها يسيران نهارهما ، فاذا نزلا قامت من حينها فعالجت العشاء بنفسها وأصلحت جميع شؤونها ، ثم قامت الى التهجد فلا تزال راكعة ساجدة الى طلوع الفجر ، فتصلى الصبح ، فكان هذا دأبها الى أن وصلت منزل بعلها .

وذكر المشائخ ان باثمان صحب ابا مهاصر موسى بن جعفر ، يريدان التوجه الى الحج وابو مهاصر يتوهم انه خرج معه مودعا له ، حتى وصلا مصلى أبى مهاصر ، فوقفت به اتانه ، فدعا الله ، فقال له : إبق فى حفظ الله يا باثمان فقال له باثمان : أو تقول ذلك يا موسى بن جعفر ؟ أو ترى انى اقيم بعدك ؟ لعلنا نرعى الابل والغنم فقال أبو مهاصر فاذا عزمت فتوكل على الله ، فاصطحبا ومؤونة باثمان على ابى مهاصر، حتى قال له رجل ممن سار معهما الى الحج ، أترك باثمان الي لأقوم به ، ففعلوا ، ومضوا ، وباثمان يمونه الرجل المتكلف بمؤونته . حتى

سوء تصرف العجائز

وصلـوا أرض الحجاز ، فقالت عجوز للمتكلف بباثمان : دع هذا ، فالى متى تحمله ؟ فاخذ بقولها ، وخلى باثمان ، فعاد الى أبى مهاصر ، كمـــا كان أولا ، فبقيت فى نفس باثمان مضاضة من كلام العجوز، فتكلم بما معناه : وصلنا أرض الحجـاز ، وموضع كرب النفوس ، فذهبت المــرأة وثبت الدين لمن كان عليها فياسيل اياك ، اياك الرجال ، ودونك العجائز ــ لا تدع منهن من يعبر . أو كمـا قال ، قيل فارسل الله سيلا فهلك فيه ثلاثمائة عجوز ، ولم يضر أحدا من الرجال ، قيل ، وقد حفظ من كـلام عمر رضى الله عنه فى العجائز ما ينبغى معه الحذر منهن ، روي عنه انه قال : لان اجد فى بيتى سبعين سارقا ، احب الي مـــن أن أجد فيها عجوزا واحدة ، وان كان هذا من غير هــذا المعنى .

روى ان باثمان زارتــه ابنته « تكفــا » فلما أرادت الرجوع صحبها أبوها ليبلغها الى منزل بعلها ، وقد قيــل ان ذلك انما كان فى وقت اهدائها لبعلها ، فاصابها مطر وكانت على اتان ، فقالت يا والدى انى اخاف على ثيابى البلل ، وانت تعلم حال العروس ، واحتياجها الى الثياب الجديدة ، ومــا ينبغى لمثلها من النظافــة والنقاء ، فمــا الحيلة ؟ قيل فدعا الله ان يحوطها ويسترها ، ولم يبتل شىء من ثيابها ، وابتل باثمان وأتانه وما ركبت عليه ، قلت وما ذلك على الله بعزيز .

ــ مهــدى النفــوسى

ومنهم مهدى النفوسى رحمه الله . قوم الجدال. ومدره النضال . المقدم فى علم البرهان والاستدلال ، المحتج على

امكان الممكن ، واستحالة المحال ، وعلى الفرق بين الحلال والحرام ، ولنعم حشو الدرع اذا دعيت نـزال ، الرادع لقيام أهل البدع والضلال ، قد مضى من ذكر انبائـه فى وفوده على الامام ، وما كان من ادحاضه حجج الملحدين ، فى ذلك المقام ، ما هو مشهور فى الآفاق ، ومغن عن زيادة اعلام .

وذكر مشائخ ان مهديا هو أحد من صـد من مكائـد نفاث ، وقمع أن يشيع فى نواحيه تلك الاحـداث ، حتى ضرب بعضهم الامثال ، فيما شوهد من تلك الاحـوال ، واستحسنت احوالهم وسارت مسـير الشمس وان كان فى وضعها والفاظها بعض اليسير ، فانا اعتذرنا عنها . انما وضعها واضعها باللسان البربرى ليتناقلها البربر ، فكالهم بصاعهم لم يطغف ولم يبخس ولم يعد من الالفاظ مـــا يفهمونه ، ولا اعرب ولا اغرب بحيث يتوهمونه ، ذكروا عن ابى مهاصر بن جعفر رحمه الله وكان شديد الغضب فى الله وان كان فى العلم ليس بمنتهاه ، انه ضرب مثلا فى نفسه فى نفاث ، وقال تنبح جروة ابى مهاصر لئـلا يأكل الذئب الغنم ، وقـد كاد يأكلها حتى اتت سـلائق «ويغو» فهرب الذئب وأمنت الغنم ، يعنى الجروة نفسـه لضعفه فى العلم ، ويعنى بالذئب نفاث بن نصر ، ويعنى بالغنم نفوسة، ويعنى بالسلائق مهديا ، وعمروسا ، وهما من منزل يقال لـه : ويغو ، يعنى باكـل الذئب الغـنم ، استحواذ نفاث عـلى اهل الجبل ، واستفزازه اياهـم بان يدعوهم الى ما احدث من التبديل ، واعتقد من الاضاليل.
فصادفت الفحلين ، فجعل اللـــه بهما كيده فى تضليل
وأرسل الله من بيانهما طيرا ترميه بحجارة من سجيل .

ابو مسور يصنيتن

ومنهم ابو مسور يصنيتن النفوسى رحمه الله . احد الشيوخ المجتهدين فى أفعال البر ، المخلصين فى العلانية والسر ، أكل الدهر عليه وشرب ، وعمرت معانى قلبه ، وان كان بنيان جسمه قد خرب ، أفنى العمائم الثلاث ، وليس بغير محاسبة نفسه اكثراث ، ولئن كان دون غيره فى درجة العلم ، فقد فاق فى الورع ، والحلم .

الشيخ عمر حتى صار غريبا فى غير جيله

كان مما حفظ من اقواله : اذا وقعت الفتن امسكنا ايدينا ، واموالنا ، والسنتنا ، وعيوننا ، وارجلنا ، ووكلنا امر قلوبنا الى الله عز وجل ، وفوضنا امرنا اليه، قيل وكان هذا الشيخ قد عمر حتى بلغ الغاية فى السن والهرم ، وكان يقول عشت حتى لم اجد فى الايام ما أريده ، ولا فى نفسى ، ولا فى الاخوان ، ولا فى الاولاد ، ولا فى القبيلة ، فأدعو الله ان يريحنى مما انا فيه ، وقال : الشيخ أبو نوح لم يقل هكذا ، وانما كان فى زمان الامام عبد الوهاب رحمه الله وعاش بعده زمانا فلعله لما ضعف جسمه وقل ما بيده وقصر عما كان يبدى من الصلات وفقد ما ادرك فى ريعان الشباب ، من مرضي الحالات ، لامه اولئك الاقارب ووخزوه بشبات ألسنة كاذناب العقارب ، وانكروا ما عرفوا من معرفته وعرفانه لما عدموا مع العدم ما كانوا وجدوه حين الجدة من احسانه وتغير الزمان بتقلب الحدثان ، وكتم ما اصابه احتسابا ، واعتقد ان يدخر بكتمانه ثوابا ، فغايته أن قال : لم أجد من نفسى ما أحب . ولما سمع المشائخ هذا الاعتذار استحسنوه ، وحفظوه عنه ، واتقنوه ، وتحققوا صوابه ، وايقنوه ، لان الشيخ فى غير جيله غريب ، مخطىء ولو

انــه مصيب . وكذلك أنــا لمــا استحسنتها واستصوبتها اعطيتها حقها من الترتيب ، وهذبتها .

ابنة الشيخ وآراؤها المصيبة

وذكر ان ابنتا له سألته عن مسألة من مسائل الحيض ، ووصفت له امارات من ذلك ، ثم قالت له أترانى ان اصلى بهذا أم لا ؟ فقال لها : الا تستحي منى يا ابنتى ؟ فقالت اخشى ان استحيت فى أمور دينى ان يمقتنى الله تعالى يوم القيامة ، فاستيقظ الشيخ فقال لا يمقتك الله يوم القيامة يا ابنتى ، قيل وكانت ابنته هذه عظيمة القدر فى أهــل زمانها ، وممن يروى عنها الفــوائد الكثيرة ، فمما روي عنها مع ابيها أيضا انها جلست معه ذات يوم ، حتى قال المسلمون افضل من اقوالهم ، فقالت هى : أقوالهم افضل ، لان المسلمين يموتون وتبقى اقوالهم ، ينتفع بها بعدهم ، الا ان كنت تريد فضل الاجسام على الاعراض،والا أفعالهم والدين افضل المخلوقات . قيل وجلسا يوما يتحدثان وقد غسلا ثيابهما ونشراها للشمس ، فنظر الشيخ الى صفاء الثياب فقال تمنيت ان الله عــز وجل طهر قلبى كطهارة هذه الثياب ، فقالت : تمنيت ان يكون بيدى تطهير قلبى فاطهره كهذه الثياب ، وارسله الى مولاه ، فقال لها : انك لأبلغ منى حتى فى الامانى .

ابو محمد عبد الله بن الخير

ومنهم أبو محمد عبد الله بن الخير رحمه اللــه . شيخ التقى والاخلاص ، والمتحرى مسالك الخلاص ، المعمر فى الطاعة ، الذى لم يخل من العبادة يوما ولا ساعة . وكــان عالما كبيرا ، فاضلا أثيرا ، كانت الامثال تضرب به ، فمنها انهم كانوا يقولون : من ضيع كتابا كمن ضيع خمســـة عشر عالما مثل عبد الله بن الخير .

ذكر انــه ذات مــرة اصــابه سعال فأمــر ان يتداوى باصطباحة حليب ناقة ، وكانت عند افلح بــن العبــاس ناقة فكان يجيئه كل صباح بحلبها ، فجاء يوما فرأى زيتا يسيل على ساق زيتونة ، فقال ما هذا ؟ فقال حضر غدائي فقــدم ملثوثا بزيت في اناء مشغــوب مرئب بالحديــد ، فاصابت يدي حديدة فرفعت يدي فاذا دم فاكفأت الانــاء بما فيه على الزيتونة ، فقال له : أخطأت ولعل دمك لــم يســل الا بعد ان رفعت يــدك ، لان العلماء يقولون اذا النجس يتوجه من تسعة وتسعين وجها ، والطهارة من وجه واحد ، غلبت الطهارة ، فما جعل الله علينا في الديــن من حرج . وكان اماما لمسجد موضعه وكان ثقيل السمــع فجعل يجهر في صلاة السر ، حتى يسمع من خلفه قراءته وقال له يحيى بن يونس ما يسعنا في الصلاة خلفك وانت لــم تكلف الا ما تسمع ؟ فقال لــم اكلف سماعك يــا ابن يونس ، وتمادى على ذلك ، فلما أسن وضعف صار يجلس جلوس قومنا ، فقال له ما حال صلاتنا خلفك وانت لــم تكلف الاطاقتك ؟ فلما سمع ذلك منه تاخر فلم يؤم بعدها رحمــه اللــه .

الطهــارة تغلب النجاســة مهما وجدت لها وجهــا

ابو زكرياء يحيى بن يونس

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن يونس رحمه الله . كان من أهل الورع والزهد ، وممن اخذ نفسه بالمعهود والجهد ساعيا في الصلاح ، داعيا الى طرق الفـــلاح ، هاديا الى الرشاد . مغيرا للفســاد ، متحيز القطريات اين تصوب ، ليس لمناهل بره غورولا نضوب .

ذكر ان أبا زكرياء كان من عادته اذا صلى صلاة المغرب وصل بينهما وبين صلاة العشاء بالركوع والسجود حتى

صــلاة الشيخ وتبتله ليــلا

يصلى العشاء ثم ينفل ما اعتاد التنفل به ، ثم يوتر ، ثم يحتاط لجميع الصلوات ، فكان هذا دأبه رحمه الله . وقد ذكر مثل هذا عن أبى زكرياء بن أبى مسور اليراسنى رحمه الله .

الشحيح محروم من خير الدنيا والآخرة

وذكر ان يحيى بن يونس زار عجوزا تدعى أم زكار ، وكانت صالحة مجتهدة ، فوجدها هالكة جوعا ليس فيها الارمقا ، وذلك فى سنة مجاعة وبؤس ، فسمع من قولها : أشتهى لبنا ، قيل ، فمضى أبو زكرياء الى شيخ يقال له باكبت ، فاستدعى منه لبنا واعلمه بمحتاج أم زكار اليه وشهوتها فيه . وكان باكبت المذكور رجلا مكثرا ، ممسكا ، بخيلا ، فقال : والله لا نبيض لها به مصرانا ، وعنده اذ ذاك وضبان عظيمان مملوءان لبنا . لا يمخضها الا امتان تمسك كل واحدة منهما بعروة من عرى الوضب لعظمهما ، فلما ايس أبو زكرياء من خير باكبت رجع وعالج للعجوز حيسا وجاءها به وقد وجدها قد اختلفت اسنانها من الجوع ، وجعل يحتال فى تحصيل الحساء فى فيها بعود شيئا فشيئا حتى عادت نفسها وقوي رمتها ، فقالت من هذا الذى أنتنذ عظامى من الجوع ؟ أنقذ الله عظامه من النار فاستوت جالسة ثم ابتدرت الانتقال لصلاتها وطاعة الله ربها ، فأنت ترى ما نسب الى أبى زكرياء فى هذه الحكاية من الفضائل فانها اشتملت على فصول من الصفات المحمودة . ذلك لتعلم ان الرجل ونظراءه انما كان همهم أمر آخرتهم ، لا يعوقهم عنه عائق ولا يطرقهم من الاغترار بزهرة الحياة الدنيا طارق.

وهم الذين تجرعوا افاوق الغصص رغمـا ، وتبدلوا بعـد راحـة الانفس غمـا ، وصاروا بعـد صفـو العيش الى كدره ، وكل ذلك بقضاء الله وقدره ، فانهـم ادركوا عصر الظهور وهو احسن الاعصار ، وبدلوا بـه وسلبوه ذلا فى آخر الاعصار ، وفيهم من قبض وشمس الامامة عند الطفل ، وبعضهم لم يافل الا وبدرها قد أفل، كانوا فى ظل عدل الامامة ، فصاروا يغتبطون لسـاعة يجدون فيها السلامة ، ومع ذلك فلم يضرهم ما هم فيه ، على الاجتهاد فى سخط ما أسخط الرب ، وبذل الاجهـاد فيما يرضيه ، فمنهم الامامان محمد ويوسف رضي الله عنهما وقد نبهت على ان مناقبهما جمة خطيرة ، وقد تقدم ذلك ، مع ذكر اسلافهما عند التاريخ والسيرة ، وهاهنـا ندبت تعيين ايراد ما في فضائل افلح ومحمد وعبد الوهاب، فانها على انفرادهما فى اصل الكتاب .

الامامان محمد بن إفلح وابنه

ذكر أن محمدا رضي الله عنه لم يال الامامة الا بعـد أن الف تأليفا مشتملا على اربعين جـزءا فى الاستطاعة ،

الائمة الثلاثة يجمعون بين العلم والصلاح

وان اباه رضى الله عنه لم يلها حسب ما تقدم الا وقد جلس لثلاث حلق فى ثلاثة انواع من العلم ، وقام فى الامامة تسعة واربعين سنة ، وماأعاد خطبة قط . وانه قد كان اراد السفر الى (جوجو) فسأله أبوه رضى الله عنه عن مسائل الربا ، فتوقف فى مسألة واحدة لم يجب عنها ولم يعرفها ، فأمره أبوه بالرجوع من السفر ، فقال له أقم لئلا تدخل علينا الربا . فرجع ، بعد ان تجهز وأبرز رحله ، وهذا على ما هو عليه من التناهى فى العلم خشي أبوه ان يرتطم فى الشبهات وفى ذلك كله ما يشعرك بفضيلة كل واحد منهم رضي الله عنهم .

عمروس بن فتح

ومنهم عمروس بن فتح رضى الله عنه ، بحر العلوم الزاخر . المبرز أول السباق وهو الآخر . الضابط الحافظ المحتاط المحافظ ، لم تشغله المجاهدة فى الله عن دراسة العلوم، ولم يلهه التبحر فيالعلم عما تعين عليه من مصادفة تلك الهموم ، فكابد وكابر ، وصادر وصابر ، لازم الدرس والاجتهاد ، ثم رابط على الجهاد ، يتلقى السيوف بالصدر والمنحر ، يقيم هامته مقام المغفر ، حتى انتظم فى سلك من (تحسبهم أمواتا وهم احياء عند ربهم يرزقون) « لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون » فلحق بالنعيم المقيم ، بعد ان خلف شيعه واتباعه منتهجين الصراط المستقيم ، وهو الذى لولاه لدثر معلم المذهب وانطمس ، وعفر اثره واندرس ، لتمسكه ببقية الحوائج العظائم وتصحيحه ما قيد عن الخراسانى ابى غانم (1) ، وله مصنفات فى الفروع والعقائد ، تولت

(1) يشير الى ما قام به من نسخ مدونة ابى غانم الخرسانى بمعونة اخته وسياتى خبر ذلك

فوائدها الصدور والقلائد ولم تزل الامثال مضروبة به ، بعلومه وآدابه ، وحبال ذوى الآمال متعلقة باهدابه ، اذ كان علم الدين يقتدى به ، وذكر ابو الربيع سليمان بن عبد السلام عن اشياخه ان عمروسا كان اعلم أهل زمانه .

عزم على تاليف كتاب فى الفقه يـرد كـل مسالة الى احد الاصـول الثلاثة

بلغنا انه هم ان يعلق تأليفا فى الفقه لـــم يسبق فى طريقته عزم ان يفرق العلم على ثلاثة اوجه : التنزيـــل . والسنة . والرأي . وما يتعلق بكل واحد منها من المسائل فيرتب كل باب من ابوابه ويبنيه على القواعد الثلاثـــة ، وصرف الى ذلك وجه العناية والاكتراث ، حتى يكـــون تأليفه طرازا لما صنف فى علوم شرائع الاسلام ، فلم يقدر الله بذلك بل قضى له باعجال الحمام ، ونرجو به ان يكون له ثواب ما نواه ، فجزاه على الكمال والاتمام .

وذكر عنه انه كان ذات يوم جالسا فى مجلس الحكم ايام أن ولاه القضاء ابو منصور الياس،اذ حضر مجلسه خصمان فطلب احدهما الآخر فى حق تعلق به عليه ، فلمـــا ادلى بحجته سكت المطلوب . فقال : للمطلوب اجبه فلم يجب ، فكرر عليه ثلاثا ، فلما رآه لا يجيب وتبين له لدده قام اليه فركضه برجله ، فقال له جلساؤه عجلت يا عمروس فجمع عمروس اصابع يده ثم اطلقها ، وقال لهم كم هذه ؟ فقالوا خمس ، قال : هذه منكم عجلة اذ اجبتم قبل ان تعدوها ، ثم قال لالياس ان لم تأذن لى بقتل ثلاثة فخذ خاتمك ، قتل مانع الحق ، والطاعن فى دين الله ، والدال عـــلى عورات المسلمين .

وذكروا ان جماعة قطاع اغاروا على رفقة فاستباحوها جميعا وخلوا سبيل اصحابها ، ثم صحبوهم الى جبل نفوسة

فلما انتهوا جميعا الى الجبل ، وابو منصور اذ ذاك وال . قال ، وعمروس قاض ، فتشاجر أصحاب الرفقة والقطاع وترافعوا الى ابى منصور ، فكلهم يدعى الرفقة ، وينسبها الى نفسه ، فحار فى امرهم ورفعهم الى عمروس ، فقال احكم بينهم ، فعزل عمرو .ن أهل الرفقة ناحية وجعل يسألهم واحدا واحدا ، عن رحله ، وجملته ، وعدده ، وصفته ، وعلامة متاعه ، وقيد مقالة كل واحد منهم بشهادة ، ثم استحضر القطاع ، فسألهم كما سأل الاولين وقيد مقالة كل واحد منهم أيضا بشهادة ، ثم أمر بحل الحمولة واستخراج ما فيها ، فوجدوا وفق ما قال اصحاب الرفقة ، ووجدوا قول القطاع مختلفا مخالفا ، متناقضا ، فقال عمروس لالياس هؤلاء اصحاب الرفقة ، واولئك اضيافك ، فانزلهم . يعنى بذلك عن حبسهم ، وتنكيلهم فحكم بحمولة الرفقة لاربابها ، فردها عليهم .

وجلس معه ذات مرة داود بن ياجرين ، وماطوس بن هارون رحمهم الله ، فتحدثوا حتى جرى بينهم ذكر أهل الصدق ، وأهل الكذب ، وذكروا أهل شروس ، فقال الشيخان ان أهل شروس لا يكذبون فاظهر عمروس اجازة شهادة كل شروسي فعاتباه على ذلك فقال لهما انما حكمت بشهادتكما ، اذ زكيتما جميع أهل شروس ، فقالا : ما اردنا ذلك ، فوقف عن الحكم بشهادة غير المعدلين ، قلت وعمروس أجل من ان يتجاوز الى هذا القدر أو ينسب اليه هذا التهاور ، ولعل الشيخين لما قالا فى أهل شروس ما قالاه ظهر له ان فى ذلك القول مجازفة ، اذ برءا من الكذب جميع أهل شروس جملة من غير تعديل ، وتأدب ان يواجههما بالمناقضة فسلك بهما طريقا يرجعان به الى الصواب من

غير تخطئه ولا توبيخ ، وهذه احدى فضائله ، لا ينسب اليه غير هذا .

استنساخ عمروس لمدونة ابى غانم

وذكروا ان ابا غانم بشر بن غانم الخراساني خرج من المشرق متوجها الى المغرب ليفد على الامام عبد الوهاب رضي الله عنه ، ومعه مدونته المشهورة التى رواها عن تلاميذة ابى عبيدة رحمه الله ، وقيد سماعها عنهم ، فاجتاز على جبل نفوسة فاستودع عمروس الكتاب المذكور ، وتمادى لى تاهرت بعد ان استأذنه عمروس فى انتساخ الكتاب المذكور فلم يأذن له،وعمروس حينئذ حدث فحسن عمروس الظن وحمله الحرص في العلم على انتساخه،فواضبه وعكف على النسخ واخته تملى عليه ، وكان اذا جلس للنسخ فى موضع لازمه حتى تدركه الشمس،فينتقل الى الظل والاصل فى يدى اخته، وعينه فى الكتاب لا يتحول حرصا فى احياء العلم ، فما رجع ابو غانم من تاهرت الا وقد أكمل عمروس انتساخ الكتاب ، ورده فى المكان الذى وضعه فيه . فلما تناول الكتاب، رأى فى احد اجزاءه نقطة حبر فقال أاسترقت هذه ؟ قال نعم ، سمانى سارق علم ، اخبارا لا أمرا وكان الكتاب فى اثني عشر جزءا ، وفى اثر هذا كان ما كان من تلف ديوان تاهرت غصبا وحرقا ، ولولا تمسك عمروس بهذا الكتاب لم يبق لاهل المذهب بجهات المغرب ديوان يعتمد عليه ، وذلك بحسن نية عمروس ، وبركته ، ويمنه .

اجتماع عمروس بالشيخ ابن محبوب فى مكة

وذكروا ان عمروسا كتب وصيته فى كتاب ، ودفعها لاولاده وورثته ، فقال لهم : هذا كتاب وصيتى فاعملوا بمضمونه ، وانا خصمكم بين يدى الله . وذلك ـ والله

اعلم ـ عندما كان مرهقا الى الخروج للقاء العدو بيوم وقعة قصر «مانو» ، وفيها استشهد، حسب ما تقدم ذكره ، فلم يعقب من ورائه الا خيرا ، وانتقم الله من اعدائه الاغالبة ومزقوا كل ممزق قتلا ، وغرقا ، وكان مصرع البغي مرتع وخيـــم . (1)

وذكروا ان عمروسا واصحابه توجهوا الى بلاد المشرق حجاجا فلما نزلوا مكة وجدوا بها محمد بن محبوب رحمه الله ، فدخلوا عليه في مجلس فوجدوه مع اصحابه، فسلموا عليه ، فهش بهم وقربهم اجـلالا للجنس ، دون معرفـــة الاشخاص . فلما تبوأوا مقاعد المذاكرة ، سأل عمروس ابا عبد الله عن مسألة ، فقال : ابن محبوب ان كان ابو حفص فى شيء من هذه البلاد فلا يصدر هذا السؤال الا عنه ولا يرد الا منه ، فقالوا له : انه هو السائل ، فرفع ابـــن محبوب مجلس عمروس لما عرفه ، وزاد دنوه من مجلسه ، ثم جعل عمروس يسأل فى مسائل الدماء عن مسألة بعـــد مسألة ، حتى قال له ابن محبوب : هذا من مكنون العلـــم لا يعلن به فى قوم جهال . فعند ذلك قال عمروس لاصحابه احفظوا السؤال واحفظ لكم الجواب ، حتى نقدم عـــلى اخواننا فنخبرهم بما حفظنا ، ففعلوا ، فلما قدموا بلادهم قال لهم عمروس : هلم ما تكلفتم به ، فقالوا له : لم نحفظ شيئا سوى قولك احفظوا المسائل لنرد بها على اخواننا . ثم ان عمروسا اعادها مسألة ، فمسألة ، عن آخرها .

ام عمروس توكله على وصيتها وهو صغير

وذكر ان ام عمروس حضرتها الوفاة وعمروس رضيع فاوصت بوصايا وأشهدت بها شهود الوصية ، فقالوا لها الى من تفوضين تنفيذ هذه الوصية ؟ قالت الى ذلك الـذى فى

---

(1) لعل فى النسخ تحريف ، والمؤلف يشير الى قول المتنبى : والبغي مرتع مبتغيه وخيم

مهدى ، فاشارت الى عمروس ، فكان خليفتها على الوصية قيل فلما كبر عمروس و بلغ مبلغ الرجال شرع فى وضـــع الوصايا مواضعها ، وتنفيذها فى وجهها ، حتى لم يبق منها شيء ، قيل وانه لما وجد فى الوصية الحج توقف عنه، واشكل عليه الامر وجعل يسأل فى جهات نفوسة عن احوال والدته فلم يجد من يعرف حالها وتولاها غير امرأة واحدة، فتولاها لذلك وحج عنها ، اخذ فى ذلك بقول من قال ان الحجـــة تقوم فى ولاية الدين بـشهادة النساء والعبيد اذا كانوا ممن يقبل قوله ، وتقوم به الحجـــة ، ولم يستجز ان يحج عنها اخذا بقول من يقول بان من يحج عن غير متولى فانه غير مرضي الفعل ، ولا مشكور الحال ، فهذا الذى اوجـب توقفه لا انه استصعب الحج ، ولا استعظمه ، والا فالامر يسير .

ذكر الاشياخ ان أهل جبل نفوسة كانوا فى ذلك الزمان اكثر الناس حجا فكانوا يحجون بنسائهم وذراريهـم حتى انهم ولد لهم فى ركب واحد ثلاثمائة مولود ذكر ، فما ظنك بعدد من لم يولد له ذكر ، ومن لم يولد له اصلا ومن ليس معهـــم .

ـ الشيخ ابو معروف ويدران بن جواد

ومنهم أبو معروف ويدران (1) بن جواد رحمه الله . ناهيك بابى معـــروف ذى الآثـــار والمعروف ، الموصـــوف بدراسة العلوم والمطروف ، الراقى ذراها البواذخ ، المتقن لما اخذ عن ابى خليل وغيره من المشائخ ، المنتفع بما تعلم

(1) اثبته صاحب السير باسم ابو معروف ويار بن جواد

وعلم ، المصيب متى رقم أو تكلم ، وله في النوازل والاسئلة المعضلات اجوبة بديهة ، كاشفة اشكال المشكلات ، وكان متى قصده آمل فاز بالامل لانه جمع ما بين العلم والعمل .

لغز في مسالة ارث

ذكر ابو الربيع ان ابا معروف دخل عليه رجل يسأله عن مسألة معضلة ، فوجده مريضا مرضه المتصل بوفاته رحمه الله ، فسأله الرجل عن المسألة وهي : ثلاثة رجال ونساؤهم ثلاث دخلوا بستتهم على مريض فقالوا له : أوص في مالك ، فقال بما ذا أوصي ؟ ومالي يصير بينكم بالميراث اسداسا ، لكل واحد منهم سدسه ، فقال ابو معروف ذلك رجل ترك اما واختين لام وثلاثة بني عم له ، وقد تزوج احدهم الام وتزوج الآخران الاختين .

يصون مال اليتيم بحيلة

وعنه رحمه الله ان صبيا يتيما جاءه كالمستغيث ، فقال له : يا عمي رأيت سيف ابي في يدي دلال في السوق ليبيعه ، وانما ناوله اياه بعل اختي وحقي في السيف باق فاستحضر ابو معروف الدلال فقال له : أشهر نصيب الابنة دون نصيب أخيها . ففعل ، فلم يجد من يسومه بقليل ولا كثير ، فكان ذلك سببا لصونه على اليتيم .

وروي ان المعز امير القيروان اهدى سيفا لمشائخ الجبل يريد تشتيت أمرهم ، واختلافهم ، لا التحافهم والطافهم فلما وردت عليهم هدية عدو الله ، اختلفوا . فقال بعضهم ردوه ، فهو أولى به لان صاحب الريبة احق بالوقوع فيها ، وقال بعضهم : لا تفعلوا ، فان ذلك عون له على ما هو عليه من الباطل والجور ، وقال : آخرون اكسروه وادفنوه . فهؤلاء كلهم رأيهم مقصور على التحرج والورع والخمود على

الوقوف دون الشبهات لان ذلك شأنهم وما رابوا عليه لا يزيغون عنه . قيل : وقال آخرون امسكوه ، فان عطايا الملوك جائزة لمن يأخذها ما لم يلامس أمورهم الفاسدة . فهو المشهور عند جمهور الامة ، قيل ، واصيب من ادلى بهذا الرأي فى بصره لما جاءهم من الفتيا بما لم يعهدوا العمل به ، فقال ابن ماطوس الحمد لله الذى جازاه فى ان جعل له عقبوبة ذلك فى بدنه ، وما يختص بدنياه.، ولم يجعل له عقوبة فى آخرته ، قيل والمصاب ببصره هو أبو معروف .

ابو معروف يفقد بصره

قيل ولما أصيب ابو معروف ببصره وجه كتابا الى الشيخ عبد الحميد الفزانى ، وكان عالما كبيرا من أهل الدعوة ، وكان قاطنا ببلد السودان ـ يستمد منه دواء العين ، فلما ورد عليه كتابه قال عجبا لهذا الشيخ اعطأه الله دواء لداء الذنوب وهو يسأل ما يزيله عنه . فبلغ قوله ابا معروف فقال : اترى الفزانى يهزأ بى ويعدنى صبيا يرضع ابهامه ؟ .

فعبد الحميد انما يعنى اجر المصيبة والسلامة مما يكتسب بالعين من الآثام ، وابو معروف يرى انه حرم بفقد البصر انواعا من الخير ، كالاعتبار ، والتعجب بصنع الله عز وجل ، ومطالعة كتب العلم ، والمشي الى بيوت مجالس الذكر . وكلاهما ذهب مذهبا حسنا ورأى رأيا مصيبا.قلت اما كونهم اعتقدوا ان الذى اصابه عقوبة على فتياه مع علمهم انه لم يخرج عن اقوال العلماء غير انه مال الى الاسهل وترك الاحوط فانهم عدلوا الى ما قاله قبل المشائخ فى امثالهم ، وحفظ من أقوالهم ، حسنات الابرار سيئات المقربين، فكونه تكلم بالعلم حسنة بالنسبة الى من لا يلتفت

للعلم ، وكونه ترك الاحوط سيئة بالنسبة الى احوال من اعتاد محاسبة نفسه ، والا فحاشهم ان يعدوا كلام العلماء سيئة على الاطلاق .

وذكر غير واحد من اصحابنا ان ابا معروف كان تاجرا حينا من الدهر جالسا في دكان دأبه ايما وزن لاحد من الناس زاده من نفسه خروبة ، واذا اراد ان يأخذ لنفسه من احد نقص خروبة ، فلما حضرته الوفاة أوصى بعشرين دينارا احتياطا من تباعة الميزان . وذكر ان ام ابى معروف مرضت فدخل عليها لتوصى فاستفتت شهود الوصية في وصيتها ، أى الوجوه أولى ان يصرف فيه اكثرها ؟ فقالوا : كفارات الايمان ، قيل : فاوصت بثلاثمائة كفارة ، فانفذ أبو معروف جميعها .

يحسم النزاع والتهور بحسن تصرفه

وذكر ان رجلا رمى طائرا بحجر على غصن زيتونة ، فتطاير بعض الحجر فاصاب رجلا فقتله ، وذكر في زمان ابى معروف فترافع اليه أولياء القاتل والمقتول فأخذ أبو معروف القاتل اليه ، فقال أولياؤه يا شيخ ان صاحبنا لم يتعمد ، انما رمى الطائر ، فقال لهم أبو معروف : امسكوا ، واصبروا لئلا ادفعه بمرئ منكم ولا قدرة لكم على رده ، قيل وكان اولياء المقتول يقولون ادفع الينا يا شيخ قاتل ولينا فانه قتل مظلوما ، فيقول لهم : امسكوا واصبروا ، والا دفعته الى اخوانه ولا تقدرون على رده ، ثم حكم بالدية ، فكان الذى خاطب به كل فريق من الخصماء قطعا للتشاجر والاختلاف ، وكان توقفه لما علم في المسألة من الخلاف حتى حكم بينهم بما رآه أسد الاقوال ، وتفرقوا على ايسر الاحوال .

يلوم شيخه لانه رآه على صورة غير لائقة

ومما يذكر من تواضعه وبرائه من الكبر ، ومحافظته على السير ، وانصافه من نفسه ، ما حكي ان ابا مسور اليراسنى فى مدة قراءته على شيخه ابى معروف ، تيممه يوما فوجده فى بستان له يعمل فيه بيده ، وهو محتزم سراويل ليس على بدنه غيره ، فانه لما أخذ فى العمل خلع عنه ثيابه ، فحين عاين التلميذ شيخه على هذه الحالة لم يرضها له ، فاخرجه الخطة (1) فجعل الشيخ يتوب ويستغفر معترفا بالخطا اعترافا استوجب به الرجوع ، ثم ان ابا مسور أراد لومه ، فقال له : قد كان اللوم متوجها قبلى قبل التوبة واما بعدها فقد ارتفع اللوم .

ابو منصور الياس

ومنهم ابو منصور الياس رحمه الله ، الملاين المتخاشن الجامع اطراف المحاسن ، جمع الانفة والسيادة ، والتواضع والزهادة فهو لأولياء الله اطوع من النعل وأخضع واحلى من العسل وانفع ، وعلى اعدائه اشد من الجبل وامنع ، وأمر من الموت وافضع ، وفى منازل الشرف اسنى من النجم وأرفع ، وفى بحر العلم والجود افيض من اليم وأوسع ، ان قام فى الله فالرئبال حول الاشبال ، وان دافع فالحمام للحمام (2)، ولى فعدل ، وقال ففصل، يرعى حقوق الله حفظا ، ولا يرى فى ذات الله لذى حظ حظا .

وكانت له كرامة فى أهل مذهبه ، فقد جعلها الله باقية فى عقبه ، ذكر المشائخ انه لم ينقطع من بيت ابى منصور وذريته ثلاثة اشياء ، ولم تتبدل منذ فارقوا النصرانية ،

---

(1) يبدو ان فى العبارة سقطا . فهى هكذا : فاخرجه الى الخطة . أو فالزمه الخطة

(2) الحمام بالضم · السيد الشريف

ثلاث مكارم لم يخل منها آل ابى منصور

ورجعوا فى دين الاسلام الى الوقت الذى وقع فيه ذكرهم بذلك ، وهى : الصلاحية ، وزريعة القمح ، وتناسل الغنم الاولى بدعوة سابقة ، والثانية والثالثة بالورع والتحرج وذلك كله بمساعدة وتوفيق من الله عز وجل .

وذكر ان رجلا تاجرا مات بغتة فى أيام ولاية الياس ، فلم تمكنه الوصية ، وكان معروفا بودائع الناس ، قيل ، فطلب الناس ودائعهم ، ورفعوا أمرهم الى ابى منصور الياس ، فسأل طريقا يتوصل به الى معرفة ما يدعيه كل مودع منهم ، فاشتدت عليهم طريق الشهادة ، واستقبح ان يحكم بغير بينة ، واستقبح ان يمنع المدعين ، فطلب بتلطف رأيه وسياسته طريقا الى الحكم بدون الشهادة، فقال : هاتوا رحله وأرزمته فاحضروها ، فكل من وجد لـه اسما على شىء حكم له به ، والا منعه ، قلت وأراه انما حكم فى القضية بهذا الحكم لانه لما تعذر عليه اقامة البينة ، رجع الى الحكم بالوجهين وفى احدهما ضعف فى المذهب ، لكنه رجع اليه عند الضرورة وهما العادة والشهادة على الخط .

الام اولى بالحضانة واحق

ومما يذكر من اطراحه حقوق الآدميين ، واسقاطه حظوظ ذوى الحظوظ رعيا لحقوق الله تعالى ، ما يذكر ان امرأة عم لابى معروف رفعت ابا معروف الى مجلس ابى منصور طالبة نفقة ابنة لها هى ابنة عم ابى معروف يتيمة فتخاصما ، فقال : ابو معروف لابى منصور : وانما أضم الي ابنة عمى ، انها بعد كبيرة . فقال له ابو منصور : لئن فعلت لانكلن بك حتى تكون هزؤة لفتيان أهل ويغوى ، قلت وهذا على ظاهره ليس بالمرضي فى جانب ابى معروف فانه اجل واورع من ان ينسب الى ان يعامله والى الامام بمثل هذه المعاملة ، وهذا عندى اذا صح فانه محتمل اما

ان يكون وصيا على ابنة عمه ، أو اتهم الكافلـــة بانها لا تحسن تربية اليتيمة ، ولا تحفظ عليها نفقتها ، ولا هي أهل لحظانتها . فهو أولى بكفالتها بالقرابة والايلاء وانه قد ثبت ذلك بالبينة فكان أبو منصور أراد تنزيه ابى معروف عن هذه القبيحة ورأى الستر على الحرائر اجمل . واما ان يكون ابو معروف اراد بذلك ان ينكحها نفسه ورآها ابو منصور صغيرة مع يتمها ، وفى نكاحها خلاف ، فأراد ابو معروف ارتكاب اضعف ما قيل ، وتحرى ابو منصور الاخذ بالاحوط . فكلاهما قصد مقصدا جميلاوقد تقدم منوصف احواله السنية عند ذكر الدولة الرستمية ، ما يدلك عـــلى علو شأنه ومكانته فى الفضائل ومكانه .

الشيخ يعقوب بن سهلون

ومنهم ابو يوسف يعقوب بن يوسف بن سهلون السدراتى المعروف بـــالطرفى رحمه الله . العالم الفقيه ، الفطـــن النبيه ، اليقظان الذكي ، الورع الزكي ، ذو الجهاديـــن الاكبر والاصغر ، والاجتهادين المصلى والدفتر ، كـــان يلقب شيخ الرأى الناصح ، وكانت قراءته على الائمـــة بتاهرت قبل انطفاء تلك المصابح . وهو الذى استشاره الشيخ عيسى بن يرزكشن فى نزوله بتالا ، وهى اذ ذاك عامرة ، فقال تصلح للناس والعبادة ، ولا يخلو مـــن ذى حافر الى اريغ ، والى وارجلان ، فنزلها وبلغ فيها مبلغـــا عظيما ، وذريته بعده .

ولما حضرت الوفاة أبا يوسف قال له ابنه أوصني قال له : لاأراك تقبل الوصية يا ابن الرديئة فتردد فى ذلـــك ثلاثة أيام فلما رأى جده قال له : لا يكن ندبك الناس الى

وصية الشيخ لابنه

الخير أوكد من ندبك نفسك اليه ، ولا يكن غيرك اسبق الى الحرث منك ، وكن للناس كالميزاب وكالسيل للادران وكالسمار للماء .

وقصده رجل من دمر في مجاعة يسأله ما يتبلغ به ، فقال له عرفني بارخص ما في السوق ، فاعلمه برخص الجمال ، وكانت بيده اربعة وعشرون دينارا وديعة ، فقال له : اشتر بها جمالا ، فاشترى بها ثلاثة جمال ، وأمره ان يعزبها في أرض مزرعة مربية بين وارجلان واندرار موضع يقال له : « ايفدانن طوم » وزوده ، ففي أيام قليلة صلحت احوال الجمال ، فوافق ذلك قدوم رب الوديعة فقال له سق أحد الجمال فسومه، فبلغت قيمته أربعة وعشرين دينارا ، فباعه ودفعها لصاحب الوديعة ، وقال للدمرى بع احد الجمال واشتر بثمنه ما تحمل على الآخر الى اهلك ، وبادر أهلك ، وسر في حفظ الله . قلت ومن شأن العزابة وأهل المذهب قديما اذا وضع عند احد منهم وديعة ان يستأذن ربها في التصرف فيها في المصالح بغير تعد فيها ، فاذا أذن تصرف . وفعل ابي يوسف من هذا النوع .

وذكر انه كان في مدة قضائه كان يقضي بين الناس وهو يعمل اشغال داره لا يلهيه شيء عن شيء ، وذلك لذكائه وقلة كبره ، وكان منتهى الفتيا بوارجلان ، وله مصلى معروف بوارجلان لاستجابة الدعاء . هو بين تينمصيون ، وتينماطوس بمقربة من بئر الاجر .

ابو محمد ملي

ومنهم ابو محمد ملي الايدرفي ، رحمه الله . ممن يعزى الى الورع والصلاح ، لا ممن ضرب في المدارسة

بقداح ، أو اديرت عليه من راح المذاكرة اقداح ، الا ان التقوى اظهر حاله ، « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

يابى ان ياكل طعامه لانه يحمل له شهادة

ذكر ان ابا محمد ملى كان يحفظ شهادة بحق رجل نفوسي ، فلما اراد منه ان يؤديها عمل طعاما واستدعاه اليه ، فلما وضع بين يديه ، ذكر له الشهادة واعلمه انه يريد اداءها . فلما ذكره فيها وعلم ان الطعام انما كان بسبب الشهادة المذكورة ، قال له : ارفع طعامك فان عندى لك شهادة ، فقال له كل يا شيخ ، فابى عليه ، فقال له كل واشهد انى تركت لغريمى مالى عليه من حق شهادتك فانصرف ، فاحضر ابو محمد قمحا صالحا واستدعى الرجل المذكور . فقال له خذ هذا الطعام فاصرفه فيمن تراه محتاجا والقمح انما احتاط به لما اتلف من الطعام بسببه ، فحمل القمح مساعدة للشيخ وصنع منه طعاما ، وحمل ابو محمد معه زيتا وكسى به الطعام ، وقال للرجل كل انت ، وعيالك ، ومن عندك .

وكان ابو محمد احد المستجابين دعاءهم ، الكثير اجتهادهم ورفعتهم فى درج الكرامات ، وسنائها . فمن ذلك ما ذكر انه كانت له بقرة يحلبها وعادتها اذا اصبح قامت امرأته فتناولت القدح فتحلبها ساكنة لا تتحرك ، ولا تنفر ، فلما كان ذات يوم قامت اليها لتحلبها على حسب العادة ، فركضتها برجلها ، فانكب القدح ، وتبدد اللبن ، فقامت المرأة فذكرت ذلك لبعلها ، فقال ما هذا الا لنازلة سوء شنيعة نزلت بالجبل ، فأخذ عكازه ، وخرج مبادرا ، فأتى جمع أهل الجبل ، فوجدهم محتفلين على رجل ينكل ويجلد ، فسألهم عن شأنه . فقالوا له : جاء فيه كتاب من الوالى . فقال أبسواد فى بياض تهرق الدماء يا نفوسة ؟ أو قال

تغير النعم من سوء تصرف الناس

يا معشر المسلمين ، فقالوا لعمروس جاوبه ، فقال اذا قيل الحق بطل الجواب ، قال ثم سألوا فوجدوا الرجل المكتوب فيه غير هذا المظلوم ، فلما علموا انهم قد تعدوا وانه بريء قوموا جنايتهم عليه ، وغرموها .

يتحرج من اخذ غلة ارض حرثها بدون رضى صاحبها

وذكروا انه حرث ذات سنة أرضا فلما حصد الزرع ودرسه وصير الحب فى التلاليس اذا برجل قد وقف على الشيخ ، ومعه ولده ، فقال له الرجل : اللهم انك تعلم انى لم أذن فى حرث أرضى ، ولا بعت ولا وهبت ، وانها لارضى لم تخرج عن ملكى ، فقال الشيخ لابنه افرغ الطعام لربه ففعل ومضى الشيخ وابنه راضيين بسلامة دينهما .

الشيخ سعد بن ابى يوسف

ومنهم سعد بن ابى يوسف رحمه الله ، ذو الاخلاق الحميدة ، والآراء السديدة ، والاجتهاد فى طلب العلوم لا يعتاقه (١) عنها الا ما ليس فيه بملوم ، قرأ على الامام افلح وتخدم فاستفاد وافلح ، وحافظ على طريق امامه ، وتساوى حاله فى زمن رحيله عنه ومقامه ، وفى بواجب البيعة لما نكث الناكث ، ولم تمل به عن الطاعة علائق الشهوات ، وقد مضى فى السيرة الرستمية من ذكر صفته واخلاقه ، ما يدلك على طيب شيمه وكرم اعراقه ، ومن تمسكه بعصم الدين واسبابه ، ما تعرف به سبقه فى ضروب من الفضائل على كثير من اضرابه ، وتقدم له من المناقب ، ما هو أضوى من النجم الثاقب .

الشيخ ياكرين وداود بن ياكرين

ومنهم الشيخ ياكرين وداود بن ياكرين رحمهما الله ، شيخا نسك وزهد ، واجتهاد فى العبادة وجد .

(١) هكذا فى النسخ ، ولعل الصواب لا يعوقه عنها

وقد ذكر انهما خرجا ذات سنة من السنين الى البادية في فصل الربيع ، فكانا متوافقين ، فلما عزما على الافتراق أو قبل ان يفترقا قال ياكرين لداود ، أوصني يا أخي، قال لا تستنج بيمينك ، ولا تنزل أهلك الا في موضع الدراء والسترة ، ولا تسكن ازواجك في بيت واحد . وغيرهم كثير أخفاهم الخمول ، وحب الاختصار .

الشيخ ابو مسور يسجا

منهم ابو مسور يسجا بن يوجين اليراسنى ، رحمه الله الشريف المنصب الكريم المنسب ، الطالب ارفـع مطلـب، الكاسب انفع مكسب ، الناهج اوضح طريق ومذهـــب ، العاجز كنه أوصافه كل بليغ أوجز أو أطنب ، خدم الدين فخدمته الدنيا ، ورفضها فنال منها الدرجة العليا ، طلب العلوم فحوى عيونها ، وورد مناهل الخير والصلاح فحاز معانيها ، فكان موئلا للقاصد ، ومنهلا للوارد ، والقاطع سبيل الفساد ، والهادى الى طريق الرشاد ، بيته فى المذهب اكبر البيوتات ، لم تزل مذ لم يزل مخصوصا بالبركات ، ولم يزل قط منهم نقات مقتفية آثار الآباء نجباء الاعقاب وقد مضى من مناقبه، وذكر كريم مذاهبه، فى اثناء الكتاب ما هو كاف ، ولو اقتصر منه على ادنى باب ، وسنذكر فى هذا الفصل نبذا من اخباره التى هى علم فى الفضـــل ، دالة على ما كان عليه من السيادة والنبل .

الشيخ ابو مسور يعرض عن شاتمه حسما للفتنة

فمن ذلك ما يذكر انه حضر مجلسا حضره جمع وافر من أهل جزيرة جربة ، وهبيتها ونكارتها ، وكان فيمن حضر من النكار رجل يقال له : خلف بن احمد ، وهو خال لابى مسور ، فكان النكار يقعون فى ابى مسور . يقولون : رجل غريب ما عسى ان يكون له من القدر ؟ فى انواع من قبح القول ، وضروب من الهمز واللمز، بحيث يسمع ، وبحيث لا يسمع ، فكان يتغافل عنهم وينزه سمعه من ان يصغي اليهم، وينزه لسانه عن مجاوبتهم، فبلغ ذلك أهل المذهب فى الاقطار ، فاستعظموا ذلك ، قيل وكان حينئذ أهل الجزيرة اذا اختلفوا كان محفلهم واحدا ، وهبيتهم ونكارهم ، فبينما هم ذات يوم مجتمعين وقد احتفل مجلسهم ، اذا بكتاب قد ورد الى ابى مسور من قبل زواغة البادية ، ومن معهم من الوهبية ، فقرأ الكتاب فاذا فيه قد سمعنا يا شيخ ان النكار يقعون فيك ويهمزون ويلمزون ، ويتحركون فى أمرك ويتحاولون اذاك فان صح ذلك فاخبرنا نلق عنا ثيابنا ونصرخك ، وليس علينا غير الازر والسلاح ، رغبة فى نصرتك ، وقرعا لمن يرومك ويحاول ضيمك ، فقال : لم اسمع بهذا أو لا لى به علم . قيل ولم يفرغ من قراءة الكتاب المذكور الا وكتاب آخر قد ورد من جهة دمر ، فقرأه أيضا فوجد فيه : يا شيخ بلغنا ان النكار يتحركون ويسيئون اليك ويلوكون امرك ، فان صح ذلك فاخبرنا نصرخك بعسكر يكون أوله عندك وآخره عندنا ، فقال ابو مسور ما لى بهذا علم ، ولم يفرغ من قراءة الكتاب الثانى الا وكتاب ثالث قد ورد من جهة جبل نفوسة ، فيه مثل ما فى الكتابين المتقدمين ، الا انهم قالوا فان صح ذلك فاخبرنا نكسر أغماد السيوف ونصلك

والسيوف مصلتة فى ايدينا ، فقال لا علم لى بذلك ولم اسمع به ، وكل ذلك فى مجلس واحد كما ذكر ، كانهم تواعدوا ، وكل ذلك لرغبتهم فى نصرة الدين والذب عنه وكثرة الحزم والتحفظ عنه ، وعن القبيلة ، قيل فكان خلف ابن احمد بعد ذلك يقول : ابن اختى امامنا اجمعين ، لحمى ودمى ، رئيس الكل ، وجعل يكرر ذلك في مجالسه ، وحيثما حضر ، وكان عميد القوم وفقيههم .

رای العالم له جانب من الصواب

قيل اختلف ابو مسور والنكار فى مسألة وخلف غائب حينئذ عن جزيرة جربة ، فلما قدم سأله عنها أصحابه واعملوه بما قالوه فيها ، وبما قاله ابو مسوز ، فقال : اخطأتم واصاب يسجا ، فبلغ ابو مسور قوله لهم فقال لهذا أو امثاله يقول العلماء : لا يعوج قول عالم ، ولو انه مخالف .

ما ينبغى ان يقرا على المحتضر

وسئل ابو مسور عما يقرأ عند احتضار المريض . فقال ما سألنى عنها احد منذ فارقت ابا معروف الى اليوم ثم قال : قول الله تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى) .

ومن حسن اخلاقه ودهاءته ما ذكر انه وضع طعاما بين يدي التلامذة بعد ان غسلوا ايديهم ، وخرج ولم يقل لهم كلوا ، فامسكوا عن الاكل حتى دخل عليهم بعد وقت فوجد ايديهم مرسلة ، فقال ما لكم لم تأكلوا ؟ خشيتم ان اغرمكم ، كلوا وان شئنا غرمناكم . ومات له ابن فجاءه الشيوخ يعزونه ، فجلسوا يتذاكرون ويوردون ما فيه تسلية ، فقال لهم الشيخ : اخبرونى ما الصبر الجميل ؟ وكيف صفته ؟ فقالوا له الجواب من عندك : فقال : هو

الصبر الجميل وصفته

ان لا تظهر المصيبة فى وجه صاحب المصيبة ، ولا يبين من بين جلسائه ، ثم قال هذا صعب ، فهل ايسر منه ؟ فقالوا الجواب من عندك ، فقال لهم : ما لم يتغير وجهه ويسدم ، ويوجم ، ثم قال وهذا صعب ، فهل أيسر منه ؟ فقالوا وما هو ؟ قال ما لم يصح ويدع بالويل والثبور ، لأن البكاء قد يكون بالرأفة والرحمة فى النفس .

الشيخ سحنون بن أيوب

ومنهم حسنون بن ايوب رحمه الله . فقيه أوانه ، وعمدة مكانه ، علقت عنه مسائل ، وفتاوى فى كثير من النوازل ، ورويت عنه في العلوم روايات ،وكان يعد في أهل الداريات . وله آثار محفوظة غير منسية ، بل منتشرة فى الجهات الطرابلسية ، الا انى لم احفظ له سيرة ، ولا وقفت فى تعاليق له على مسألة من مسائله صغيرة ولا كبيرة ، وليس ذلك بباخس حظه فى الفضل ، ولا قاعد به عن أولية السبق ، واولية الحصل ، فانه فى الائمة الثقات المثبتة اسماؤهم فى صدور الطبقات،وقد اذنت بل رغبت لمن يقف على هذا الكتاب من الفضلاء ، ان يثبت له فيما يحفظه عنه من طيب الانباء فليعلق فى حاشية الكتاب،وهو ان شاء الله مأجور متاب(1)

ابو الخطاب وسيل

وكذلك ابو الخطاب وسيل بن ستتن الزواغى رحمه الله (2) معدود فى هذه الطبقة ، مذكور فيمن افنى بدنه فى العبادة ، وماله فى الصدقة،موسوم بسمة الصلاح

(1) راجع سير الشيخ احمد الشماخى ص 292 ط البارونى

(2) ويثبت ايضا باسم وسيل بن سنتين كما تقدم

وتسميته ، مرسوم في ديوان علماء وقته ، لا بطيئا في السباق ، ولا قاصرا عند اللحاق ، هذا فيما أدركتهم يتداولون ، ويتعاطون من أوصافه ويتناولون ، وما يخرجني الى الخطة اذ لم احفظ عنه رواية ، فأطرز برد طبقته بما امكن عنه من ذلك ولو حكاية ، فيكفى نهلها عن العل ، ويكون لى جهد المقل . (1)

الشيخان ابو القاسم مخلد وابو خزر يغلا

ومنهم الشيخان ابو القاسم ، وابو خزر ، الوسيانيان رحمهما الله ، لا يمكن فيهما مزيد على ما قدمناه فى هذا التصنيف ولا يحتاج مع شهرتهما الى زيادة تعريف ، فانهما اماما اهل التوحيد ، وفخر من نشأ بقسطيلية وغيرها من بلاد الجريد ، ولكل واحد منهما اخبار ساردة وفضيعة ، فاطلب ذلك فيما مضى من الشيعة ، وسنذكر هاهنا مسائل وقع بينهما فيها اختلاف وكل اصاب سهمه الغرض وما ضاف ، (2) فمن هذه المسائل ما نبهنا عليه وسنذكره ، والخير لايسأم من يكرره .

لا تتسرع الى الحكم السيء ما وجدت احتمالا

فمن ذلك رجل قال : لا اله فسكت ، ولا حول ولا قوة ، ما الحكم فيه ؟ فقال : ابو خزر ، أشرك ، لانا انما يلزمنا الحكم بالظاهر ، وقال : ابو القاسم بل فى المسألة احتمال ، لعله يعنى لا اله فى الآوثان ، واضمر فى نفسه تتميم الكلام ، ولا نظن بالمسلم الا خيرا ، ولا نخرجه الى الشرك بالأحتمال ، وهذا كما قيل عن الأمام افلح رحمه الله : أن

(1) النهل بالتحريك مصدر نهل شرب اول مرة والعمل والعلل : الشرب مرة ثانية ، او تباعا

(2) اخطا وعدل عنه

من دين الله ان احدا اذاجاء بوجه يحتمل وجوها حمل على أحسنها .

الام اولى الابوين بالبر واحق

واختلفا في الأبوين ايهما اعظم حقا قال ابو خزر الأب اعظم حقا ، لانه المأخوذ بحقوق الولد ، وقال ابو القاسم بل الأم اعظم حقا لأنها اعظم مؤونة ، فقد قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما سأله عن ذلك سائل : فقال التى حملتك بين الجنبين ، وأرضعتك بالثديين ، ووسدتك الفخدين ، قلت ، وهذا انما هو مجرد حكاية ، ولا ينبغى لكل واحد منهما على مكانه في العلم وجلالة القدر ، ان ينكر ما قاله صاحبه او يعتقده خلافا ، بل لكل وجهة يصدقها ما يجرى من أحكام الميراث ، وما قاله صلى الله عليه وسلم لما سأله سائل يا رسول الله من أحق الناس منى بالصحبة ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك ، فالأول لأبى خزر ، والثانى لابى القاسم أفترىان أحدهما يجهل ما تمسك به صاحبه ؟ ؟ .

حكم من لم يجاهد نفسه ولم يحملها على الجد

وذكر أيضا أن ابا خزر قال : من جاهد نفسه من أهل الدعوة فاما نال خيرا ، واما لم ينله ، وأما من لم يجاهدها فلا ينال خيرا . فقال ابو القاسم فى الاول انه ينال خيرا على كل حال ، وفى الثانى محتمل ، قلت : وهذا أيضا غير بعيد من الاول ولكل واحد منهما تاويل يحمل عليه لفظه ، لا يمكن ان ينكره الآخر ، ولا ان يعتقد خلافه .

ابو صالح جنون بن يمريان

ومنهم ابو صالح جنون بن يمريان رحمه الله . ذو الورع والسخاء ، وبركات صالح الدعاء ، وهو احد الابدال، واصحاب الكرامات والاحوال، واحد أقطاب الدين

وثمال اليتامى والمساكين ، ان لم يكن مقدما فى العلوم فمقدم في المعارف ، وان لم يكاشف أجسام الدواوين فهو لا رواحها مكاشف ، بل ان قيس بسواه فى عمله ودرايته وجد سواه يقصر دون أدنى طلقه ، فكيف بغايته . وقد مضت في هذا الكتاب جمل من أخباره ، ونكت من حميد آثاره .

حال الشيخ يوافق ما يقال عنه

وذكر ان ثلاثة من فقهاء جربة أحدهم ابو صالح بكر بن قاسم ، والثانى ابو موسى عيسى بن السمح ، والثالث ابو زكرياء فصيل بن ابى مسور ، توجهوا الى جهة ريغ ووارجلان زائرين اخوانهم وأهل دعوتهم ، قيل فوصلوا وارجلان ودخلوا على أبى صالح وصافحوه وتبركوا بمشاهدته ، ثم تساءلوا فيما بينهم عن حال أبى صالح ؟ فقال احدهم لما رأيته توليته ، وقال : الثانى لما عانقته توليته ، وقال الثالث لما تكلم توليته ، قلت وهذا مستحسن من وجه ومستقبح من وجه فوجه الاستحسان حسن التوسم من مثلهم فى مثله ، ووجه الاستقباح اذا حمل على ظاهر ما رواه الراوى ، كونهم انما تولوه بعد هذه المشاهدة من رؤية وعناق واستماع كلام ، أتراهم كانوا قبل ذلك يبرأون منه ؟ ويقفون فيه ؟ بل لم يزل قبل ذلك وبعده أهلا لتوليتهم ، فان حمل اللفظ على ظاهره لم يصدق عليه المعنى ، لكنهم أرادوا ــ والله أعلم ــ انهم لما شاهدوه مع ما كان متقدما عندهم من توليته شاهدوا منه مصداق ما تقدم عندهم ، فانه تقدم على طريق السماع ، والاستفاضة ، فلما شاهدوه تحققوا ذلك عيانا ، لايحمل كلامهم على غير هذا .

قيل وأوصى بنيه بثلاث ، وكل واحدة منهن تشتمل على ثلاث ، فتلك تسع ، قال : يابنى اذا كان ابان غلتكم فولوها بأنفسكم ، ولا تولوها غيركم ، حتى توصلوها موضع حرزكم ، فان لم تكونوا أصحاب غلة ولم يكن لكم بد من شرائها فاشتروها ما دامت في أصولها ، ولا تتركوها حتى تصل الحرز فيصعب اخراجها ، فان لم تكونوا اصحاب غلة ولا قادرين على الشراء وتنزلتم الى طلبها فاطلبوها قبل دخولها الى الحرز ، يسهل اعطاؤها ، والثانية ان كنتم فى بلد فاول ما تلتمسون لأنفسكم وأموالكم المسكن . فان من سكن في غير مسكنه فاما ان يكون غنيا ، واما ان يكون فقيرا ، فان كان غنيا ووسع على نفسه سماه الناس مبذرا ، وان ضيق سموه مقترا ممسكا ، وان كان فقيرا قالوا ليس وراء هذا الا الدخول والخروج ، وان كان في مسكنه يستر على غنائه وفقره ولا يعرف الناس له عيبا . والثالثة اذا اقبل الشتاء فحصلوا كسوة شتوتكم ، فان من بات مبيت سوء ليلة واحدة لايخلفها أبدا والذى تخلفونه من مجرد ثيابكم وخلقها فيه بقية ومنفعة ، فان أعين الناس وألسنتهم متسلطة على من معهم ، يتحسسون للكبيرة والصغيرة ، وهذه الوصية ليس فيها من أمور الدين شىء الا النهي عن اضاعة الحال والمال ، وفي ذلك مصالح كثيرة ، ومنافع جمة .

وصية الشيخ ابى صالح لبنيه

وذكر ان ابن عم له كتب اليه كتابا من المغرب : يا ابن عمى ايتنى ، فانك قمت فى أرض الفقر ، فان عندنا أرضا كريمة ، قدر الكساء يحمل البعير وسقه حبا ، فأجابه ابو صالح : يا ابن عمى ايتنى ، فأن عندنا أرضا قعدة الرجل يحمل البعير وسقه عسلا ، وفي هذه الحكاية حسن الجواب

منابت النخل أغنى من مزراع القمح

المسكت ، وفيها ما يدل على القناعة ، وعلى الرصانة ، وعدم الطيش .

للرجل الفقير ان ياخذ زكاة زوجته لا العكس

وذكر ان رجلا من أهل قصر بكر ، أحد قصور وارجلان كان رجلا مقلا ، وله امرأة كثيرة المال ، فسأل ابا صالح ، هل يجوز أن يأخذ زكاة امرأته ؟ فتوقف عن الجواب تحرجا ، الى ان قدر الله بوصول أبى نوح سعيد بن زنغيل الى وارجلان ، حين فراره من أبى تميم الشيعى ، فسئل عن المسألة ، فاباح ذلك ، وأعلمهم أن للرجل ان يأخذ زكاة مال امرأته، وليس للمرأة ان تأخذ زكاة بعلها . وهذه المسألة مشهورة ،ليس في هذه الحكاية ما يدل على قلة علم أبى صالح ، بل يدل على ورعه وتنزهه .

وذكر ان ابنا له ، اشترى كتابا ، فكان يقرأه على أبيه ، فكان أبو صالح يخاطب الكتاب ويقول : باعك من يعرفك واشتراك من لا يعرفك ، وهذه الحكاية تدل على ان هذا الكتاب كتاب عجيب ، وان الولد ولد غير نجيب ، ولكن خاطب ابنه بما يفهم من هذا الوجه ، ولم يقابله بقبح الزجر .

تضربه المراة فيصبر لذلك احتسابا

ومما يذكر من سعة صدره ، وقلة ضجره ، وكثرة صبره ، انه جلس ذات مرة مع امرأته وهى تعجن عجينا ، فخاطبها بكلام لم يقع منها موقع الموافقة ، فلطمته حتى ارتسمت آثار اصابعها فى خد أبى صالح ، فتكدر خاطره، فلم يمكنه الشكوى الى احد ، ولم يكن له بد من الشكوى الى شيخه أبى يوسف يعقوب الطرفى ، فجاءه شاكيا فلما بثه حاله ، قال الشيخ أترى هذه ؟ واشار الى زوجته ، فقال :

ما لها ؟ قال : ضربتني البارحة بمقلى فصيرته طوقا في عنقي ، فقال أبو صالح انت ، انت ، يريد أنت أصبر مني ثم والله لا اشكوها بعد اليوم .

الشيخ ابو محمد جمال المدوني

ومنهم أبو محمد المدوني رحمه الله ، فقيه الاسلاف ، المتلافي في سيرهم حين التلافي ، الشامل ما اشرف على الشتات ، المؤلف للجمع بعد ما صدر الاشتات . تدارك المريض فاقامه ، وقد أراد ان ينقض فرده الى احسن حاله ، وعالجه بحسن رأيه وايالته ، فالممسك فيه به اقتدى ، وهو من السباق في العلم والورع والندى ، وله في معاملاته أمور سنية ، وأحوال مرضية .

يختلفان لاجل كتاب فيفصل بينهما الشيخ براى مصيب

ذكر أبو الربيع ان رجلا من مزاتة قارض رجلا بمال فكان يتجر به ، فبينما هو ذات يوم في بعض شؤونه ، اذا بكتاب تفسير القرآن لهود بن محكم الهواري يعرض للبيع، فاشتراه وجاء به الى رب المال ، فقال له اني اشتريت هذا الكتاب وهو لي دونك ، وانما لك راس المال ، فقال له رب المال : بل هو لي دونك ، وانما لك نصيبك من الربح ، ان كان في متجرك ربح ، فتخاصما وتشاتما ، حتى قامت مع كل واحد عشيرته متعصبة ، وتآمروا على القتال ، وتواقف الفريقان وقد اشرفوا على ان يتفانوا ، فبلغ ذلك أبا محمد جمالا ، فجاء مبادرا ، فقال : ايتوني بالكتاب الذي أراكم تريدون ان تقتتلوا عليه ، فأتوه به ففتح وقصد موضعا منه ، فاذا بين النصفين ورقتان بيضاوان ، ففصل ما بين النصفين ، وضم الى كل نصف ورقة بيضاء ، وقطعه بسكين واعطى لكل واحد من الخصمين نصفا ، وقال من شاء منكم

الآن اكمال الكتاب فلينسخ النصف الذى فاتـه فاصطلح الفريقان ، وافترقا على خير ، وزعم بعض الناس ان منتسخ الكتاب تفرس أو كشف ان امره يؤول الى تفرق بالحديد ، فاحتاط عليه ، وترك ورقتين غير مكتوبتين ، وهذا الذى زعموا لا حاجة بنا اليه ، وانما المقصود مـا ذكرناه من بركة هذا الشيخ ، وحسن سياسته .

يشح على نفسه وعياله ، فيطعمه الشيخ قسرا

وذكر ان أبا محمد جمالا ، كان جواره رجل من أهل البادية فى سنة مجاعة ، وللرجل صرمة ، وقد أضر بـه الجوع ، وشحه المطاع مانعه ان ينحر منها ناقة ، فيطفىء سغب نفسه وعياله ، فبلغ ذلك أبا محمد فجاءه فوجده فى خيمة لا حركة له من الم الجوع ، فقام أبو محمد احتسابا فى الرجل وفى يده حربة ، فدخل فى ابله فعمد الى ناقة كوماء لم ير فى ابل الرجل احسن منها ، ولا اسمن منها ، يريد أن ينحرها ، فرآه صاحب الابل ، فقال : لعل غيرها يا أبا محمد ؟ فأبى الا تلك التى قصـد اليها ، فنحرها بحربته ، فلما نحرها قال لهم : قوموا ، وكلوا ، فلما أصبح اغارت عليهم غارة ، فاكتسحت أبل الرجل ، فلولا ان الله عز وجل لطف بهم ببركة الشيخ لماتوا جوعا . قيل تبلغوا بشحم الناقة ولحمها ، وسدوا فاقتهم تلك السنة الشديدة .

على العالم ان ينظر للجاهل ما يصلح به

وذكر ان عاملا خرج على عشيرة أبى محمد من قبل السلطان ، فكان هذا العامل يماكسهم ، ويشدد عليهـم ، فلما كان يوما من الايام قال لهم العامل : ان اعطيتمونى اليوم كذا وكذا مضيت عنكم ، وان بت الليلة ضاعفت عليكم ، وكلما بت ضاعفت ، قيل فلم يدفعوا له شيئـا ، ولم يعبأوا بقوله ، فكان يضاعف عليهم فلما رأى أبـو

محمد العامل يضاعف عليهم الغرامة كل ليلة ، ورأى قومه غير مكترثين به حماقة ، وخرقا لا قدرة وعزا ، قال للعامل وخدامه : قفوا على ترع الاحياء ، ولا تتركوا مالهم يسرح ، فلما رأى أصحاب الاموال ماشيتهم ياكل بعضها بعضا جوعا ، أدوا الى العامل ما لزمهم ، وانصرف فجعل جهالهم يطعنون فى الشيخ ، ويعيبون فعله ، حتى قال قائلهم : ما هذا الا معونة الظلمة الفجار ، على الضعفاء والمساكين . فقال لهم أبو محمد : لله على العالم ان ينظر للجاهل ويدله على ما فيه سلامة دينه ودنياه .

يقنت فى الصلاة وهو لا يرى ذلك موافقة للجماعة

وعنه انه كان يصلى بجماعة اكثرهم اهل الخلاف ممن يرى القنوت فى الصبح ، فكان أبو محمد يقنت بآي القرآن التى فيها الدعاء الذى فى آخر سورة البقرة ، وكالآية من آل عمران ، « ربنا لا تزغ قلوبنا » الآية ، وما اشبه ذلك . لعلمه ان ذلك لا يفسد الصلاة على مذهب الامتناع من القنوت ، فكانوا يشكرونه ويثنون عليه وقيل : بل الذى فعل ذلك فتوح بن أبى حاجب المزاتى ، وهو ايضا من طبقة أبى محمد فى العصر والتحصيل للعلوم . وعن فتوح رحمه الله انه سمع رجلا يطعن فى دين الوهبية من المخالفين فغضب ، واخرجه ذلك واحنقه حتى قال ما ههنا احد من أولاد المشومات ؟ فسمعه جماعة من شبان مزاتة وفتاكهم ، ممن يغضب لغضبه ، فعلموا انه عرض بفعلة تفعل بالرجل وانه رأى ان دمه مباحا ، فلما كان اليل نام الرجل فى أعلى داره فتسوروا اليه وخنقوه حتى مات ، وذلك فى بعض قرى بعض الزاب ، فلما مات رموا به فى الزقاق فلما اصبح وجده الناس لا روح فيه ، ففتشوا ليجدوا فيه اثر جرح او ضربة فلم

يجدوه ، فقالوا : والله ما قتله الا الملائكة ، قيل ثم ان الفاعلين لذلك مروا بالشيخ بعد عام فوجدوه يدرس زرعا ، فقالوا يا شيخ هل هنا أحد من أولاد المشومات ام لا ؟ يذكرونه فعلتهم ، فاثنى عليهم وشكر فعلتهم .

حكم طهارة ما صنع من نبات الارض بالزمن

وذكروا ان جماعة من المشائخ توجهوا نحو طرابلس ، فركبوا البحر ، ونزلوا بجزيرة جربة ، وحضروا بها مجلسا ، قد حضرته فقهاء أهل جربة ، ومشيختهم ، كأبى مسور ، وامثاله ، فتذاكروا فى الطهارة حتى وردت بينهم مسألة فوقع فيها الاختلاف بينهم ، وهى : ما كان من نبات الارض من الثياب هل يطهره من النجس ما يطهر الارض والنبات ، لانها من جنسها ، ام لا ؟ فاجتمعوا على ان الثياب كلها حكمها فى ذلك اذا نجست حكم واحد، لا يطهرها الا الغسل بالماء ، لا يطهره سواه ، بخلاف العناصر ، فخالفهم ابو محمد جمال وحده ، فقال لهم : حكم الارض ونباتها وما يعمل منها من ثياب جميعا واحد ، يطهرها تداوم الشمس والرياح عليها ، اذا ابرزت المدة الطويلة ، ما لم تبق عين النجاسة قائمة ، قيل فنبهه بعض اصحابه واعلمه بما كان من اتفاق الجميع وان اتفاقهم هو الصواب ، فاقام ابو محمد الحجج على صحة مذهبه وقوله ، ولم يرجع عنه ، فقال لهم ابو مسور كفوا عنه فان العالم كالاجدل (1) اذا حلق ضرب .

ما نقل عن الشيخ وقيل عنه وهو فى طريقه الى الحج

وذكر انه توجه الى المشرق للحج فصحبه الشيخ مطكداسن ، وعبد الله بن الامير ، ومع ابى محمد جمال حينئذ اثنى عشر جملا ، فاراد عند الركوبان يحملها

(1) الاجدل العقاب ، يريدان العقاب اذا حلق فى الجو ضرب فيه واوغل شبه به العالم يتوسع فى الحجج ، وذكر العلل .

فاستدعى مطكداسن ليعينه ، فقال : ليس ذلك من شأني ، قال وما شأنك اذاً ؟ قال الدواة والقلـــم ، وحسبك باني كتبت احد عشر كتابا في عشرة ايام فاستحسن ما أجابه به ولم يكلفه شططا ، وساروا حتى نزلوا مدين فرأى رجــلا يطفف الكيل فلطمه ، فقال « أوفوا الكيل ولا تكونوا مــن المخسرين » ، فرفع اليه رأسه وقال ، فينا والله نزلـــت يا مغربي ، وانما خاطبهم ابو محمد بالآية لانهم المخاطبون بها ، ولما قضوا مناسكهم ، ورجعوا الى بلادهم كان فيمن جاء لتهنئتهم عبد الله بن مانوج ، فقال لابن الامير لما رآه سالما في ماله ونفسه لعلك يا ابا محمد ما اصبت في سفرك هذا بشيء ؟ فقال قد سلمني الله وعفاني من ذلك ، فقال لــه ابن مانوج : قد كنــت اود لو احتسبــت بشيء تصاب بــه فاصبــح احد عشر جملا من جماله جيفا . وانما قصد ابن مانوج في ذلك وجوها منها قوله صلى الله عليه وسلم : «من يرد الله بـه خيرا يصب منه»،ومنها خشية العين ، ولم يكن ابن مانوج ممن يتمنى العطب لاخيه في الله تعالى ، بـــل أراد ما يوفر به الاجر .

سليمان بن زرقون وابن ماطوس

ومنهـــم سليمان بن زرقـــون وابن ماطوس رحمهمـــا الله ، كانا بدرى الفراقد وكلاهما مطلب للناشد ، ومعلم للراشد ، ان تباعدت بقاعهـــما فـقـــد جمعهما أصــل واحد ، وعصر واحد ، ولكل منهما تأليف في علوم الديــن كم هـــدى الله بهما من المهتدين ، ونفى بهما مــن فساد المفسدين ، وقد تقدمت لابي زرقون في هذا الكتاب اخبار وسير ، فيها مقنع لمن عليها اقتصر ، وسنذكرها هنا مـــن أخبار كل واحد منهما ما امكن،فكلاهما مستملح مستحسن.

التعبد بدون علم يوقع في الخطا

ذكر ان سليمان بن زرقون رحمه الله كان مسافرا ومعه رجلان من اصحابه ، ممن ينتمي الى العلم والصلاح ، وحضر وقت صلاة من الصلوات ، فاجتازوا على غدير ماء ، وذلك في فصل يجمد فيه الماء من شدة البرد ، فلما وقف عليه ابو الربيع توقف وغلب على ظنه انه وجب عليه العدول الى التيمم ، ولا يتعمد بالقاء نفسه الى التهلكة ، ونزل احد صاحبيه الى الغدير فغسل يديه ، واقتصر على الزيادة على غسل اليدين ، لما وجد من ألم برد الماء ، ونزل الثالث وغسل في محزر فشج عصبه ، ووقع ملقى فنزلا اليه فلفاه في ثيابه ، وحملاه وقالا له : ألا تهون على نفسك التيمم لصلاة واحدة ؟ فتيمم الآن لصلوات ، فأى الاثنين الأفقه عندك ؟ وانى لاراه ابا الربيع واما صاحبهمافتعبد بلا علم .

الفاهم لعلة الحكم هو الفقيه لا المتمسك بالفاظه

وذكر ان ابا صالح اليراسنى وابا موسى ومن معهما من التلامذة ، ساروا الى ابى الربيع سليمان بن ماطوس ، ليقرأوا عليه ، فاقاموا يقرأون عليه ما شاء الله ، ثم انتقلوا الى موضع بافريقية يقال له « سلام ليك » فاقاموا به يدرسون الكتب زمانا ، ثم انهم رجعوا الى ابن ماطوس ليعرضوا عليه ما قرأوا في تلك المدة فلقوا بكر بن أبى بكر بنفزاوة ، وصحبهم ، فساروا الى وقت صلاة الظهر، ومعهم رجل ، فقال لهم ما الذىأصلى أقصرا أم تماما ؟ فقالوا كلهم صل صلاة المقيم ، حتى تجاوز ستة اميال . الا بكر بن أبى بكر فقال له صل صلاة المسافر اذا نويت خروج ستة أميال ، ثم مروا بامرأة تغسل صوفا نزع من شاة ميتة فقالوا لها ، لا يطهر صوف الميتة حتى يترب فى سبعة امكنة بسبع أتربة ، وسبع قضبان ، ثم يغسل بعد هذا ، فقال لها بكر اغسلى صوفك كما تغسلين غيره من الصوف ، ولا

يلزمك مما قالوا شيء . وقالوا في رجل تميم ويده منجوسة ان اليد تطهر وان التراب ينجس ، فقال بكر ان اليد تطهر وان التراب لا ينجس ، فقالوا له فأين ذهبت نجاسة اليد ؟ قال ذهبت بين الضربات . فساروا حتى وصلوا ابن ماطوس فاعلموه بالمسائل الثلاث ، وبجواب بكر ، فقال لهم : الفرسطائي عالم ، ثم أخذوا في تصحيح ما قرأوه ونظروه على ابن ماطوس فصححوه في ستة اشهر ، ورجعوا الى اهاليهم ، وهذا بمناقب بكر بن ابي بكر اشبه ، واولى ، وذكر ان ابن ماطوس قال لبعض من يرد عليه من بعض نواحي بلادهم . بلغنا عن رجال منكم انهم يأخذون الصدقات ويردون منها على من اخذوها منه ، فأزجرهم فانه مما لا يرضى الله تعالى .

الشيخ أبو سهل الفارسي

ومنهم ابو سهل الفارسي رحمه الله ، غلبت عليه هذه العزوة الفارسية وليس بفارسي ، وانما هو نفوسي ، ولا شك ان امه رستمية من بيت الامامة ، فغلب نسبها عليه واشتهر به ، وقيل هو رستمي ، ابا واما ، وان اباه ولد لميمون بن عبد الوهاب رحمه الله ، تمسك من العلوم بسبب ، فليس برأس فيها ولا بذنب ، الا ان الغالب من أحواله ، همل الدموع ، والتلهف على فائت ليس له رجوع ، فجعل هجيراه مراثي الدين واهله ، والبكاء عليه بوابل الدمع وطله ، حتى دونت الدواوين من كلامه ، وانتشر في الآفاق حسن نظامه ، وقد اعجز المراثي بما اوعظ ، فلها بذلك في النفوس احسن موقع واوفر حظ ، وجميع ما حفظ من ذلك فانما هو بلسان البربر ، واكثره بالصواب

حدا ، فقف على دواوينه تكن عليه مترجما ، ولا ترمهـا اذا لم تجد لها مترجما .

الديوان الذى نظمه بالبربرية وهو فى جزائر بنى مزغنه

وعن ابى زكرياء يحيى بن ابى بكر ان رجلا من العرب من موالى لواتة قنطنار ، يسمى سعيدا ، اطلع الى البادية فانتهى الى موضع ابى سهل ، بمرسى الخزر ، وقيل بمرسى الدجاج ، وهـو الصحيح ، وهـو بجـزائر بنى مزغنان ، قال فاكرمه وسأله عن أهل الدعوة ، فقال له أي فن يسرهم ان ادونه لهم ؟ قال انتظم لهم بلغة البربر كلاما يكون فيه وعظ وتذكير وتخويف ، وكان ابو سهـل فصيحا بلغـة البربر ، ولقد كان ترجمان جده الامام افلح ، وقيل بل

ترجمان خاله يوسف الامام ، قال فقيد له اثنى عشر كتابا فى المواعظ ، وفيها جمل من توأريخ أهـل الدعـوة ، فاختلس النكارى شطرها ، وبقى له ستـة اجزاء فكان اذا أراد قراءتها ادخل رأسه فى ثيابه وقرأها على الناس حذرا عليها ، فلما كان ذات يوم قرأ منها الفاظا دلت على انـه اتحف بها أهل الدعوة ، فأمر الشيوخ خلوف بن وحنـين ان يخاصم ويطالب سعيدا محتسبا فى حق أهل الدعـوة ، حتى يسترج لهم منه هديتهم ، ففعل فكتب منها العزابة ، ما كتبوا ، فلما أخذت قلعة بنى درجين واحرقـت احرق ما وجد من هذا الكتاب ، وحينئذ تلافى ابو عبد الله مـا تحصل فى صدور العزابة فقيد منها اربعة وعشرين بابا ، فلذلك قد تجد فيها قلة الاتزان والزيادة والنقصـان ، وذكر ان قبر أبى سهل بالموضع المذكور ويزار حـتى ان صنهاجة كانت حينئذ تزوره ، وربما قال قائلهم : انطلقوا بنا الى قبر النادب ذنبه ودينه ، وهذا ممـا يصحح انـه بجزائر بنى مزغنان ، لانها بلاد صنهاجة .

الطبقــة الثامنــة 350 ـ 400 هـ

ابو نــوح سعيــد بن زنغيــل

ومنهم ابو نوح سعيد بن زنغيل ، رحمه الله ، لا مزيد له على ما تقدم فى الكتاب من المناقب ، فلكل فصل منها فى دجى العلم شهاب ثاقب ، هو فى الاوصاف الحميدة نهاية ، فاطلبها فى موضعها ففيه كفاية .

أبو صالح بكر بن قاسم

ومنهم ابو صالح بكر بن قاسم اليراسنى ، رحمه الله ، أنجب من طالع ودرس ، وأحد من احيى ما كان عفى ودرس، جبلته طلب الصلاحية والعلم ، وسمته الاعتصام بالوقار والحلم ، نوره يلتاح صامتا أو متكلما ، وبركته ظاهـــرة متعلما أو معلما ، فبهمته انتشرت الخـيرات ، وتـلاميذه المفيضون للبركات ، وكان احد من يوصف بالاجتهـــاد والتصميم ، لا فرق فى الحق عنده بين العدو والحميم .

ذكر ان ابا صالح نكل برجل من تلامذة ابى مســور ، فاقبل الرجل مستغيثا بابى مسور ، شاكيا اليه ما لقي من أبى صالح ، فقال له : الا ترى ما بى ؟ فقال له ابو مسور وطن نفسك على ما تلقى من ابى صالح وامثاله ، فـــان المسلم فى الحق كالحديدة المحماة ما أوقع عليها احرقته ، وما

الصبــر على الحـق اولى

وقعت عليه أحرقته والحق أحق ان يتبع ، وان كان مرا . قيل : ثم تعين على الرجل المذكور حق من الحقوق مرة ثانية فعيد به الى ابى صالح ، فنكل به مرة ثانية ، فجاء الى ابى زكرياء شاكيا اليه ، كما شكى الى ابيه ، وكان من قوله : الا ترى ما فعل في وضربنى مبينا[1] فانتهره ابو زكرياء وتهجم فى وجهه ، وقال له : لا واخذ الله الشيخ فيما ترك قبلك من الحق ، فان اباك جاءنى شاكيا بك ، وذكر انك ، تنتف لحيته ، وما ذلك بقليل .

شدة الشيخ على الجناة

قيل وكان ابو صالح فى أول أمره بالبادية ، فى موضع يقال له « ازارق » وهو اذ ذاك شديد على العصاة ، حديد على العتاة ، ومع ذلك كان لا يضرب السراق من صنهاجة متى عثر عليهم تقية ، لا مداهنة ، وكان متى وقع عليه جان بين يديه ، وثبت عليه حق ، أخذ خشبة عظيمة ، قد اسردت فيها حلق ، وسلاسل ، فجعل رجل الجانى فى حلقة من تلك الحلق ، ثم يقلب الخشبة على رجليه لئلا يهرب ، قيل فكانوا بالليل يصيحون صياح التيوس ، من شدة الحر والبرد ، مع ما هم فيه . قيل ، فلما اشتد الحال فى البادية ، وكثرت الزلازل ، واضطرمت نيران الفتن ، انتقل الى جربة ، فعمد الى تلك الخشبة وما معها فرماها فى بئر ، فتكلم فى ذلك بعض العزابة ، وقال ، ما دعاه الى رميها فى البئر ؟ فقال لهم ولده ابو محمد انما اتخذ ذلك ليصرفه فى الوجه الذى أراده له ، واذ تخلى عن ذلك فلا ينبغى ان ينتفع بمافى غيره .

العرف له اعتباره فى المعاملات

وذكر ان رجلين اختصما اليه بجزيرة جربة ، احدهما باع للآخر سلعة بستين ولم يسم أي الجنس هى من الاثمان فقال المشترى انما اشتريت بقراريط الحندوس ، وقال

(1) فى نسخة مائتين

البائع انما لى عليه ذهب ، وقال المشترى لا اعرف الذهب فقال ابو صالح للبائع : خذ منه ما ذكر ، والا فخذ سلعتك لان أهل جربة انما يعرفون التبايع بالحندوس، ولا يعرفون الذهب . قلت وهذا الحكم شبيه بالصلح ، ولعله عرف ان البائع كان من بلاد جرى العرف فيها بالتبايع بالذهب ، وعرف ان المشترى لا يعرف الا الحندوس ، فاكتفى عن البينة واليمين بما عرف ، والنظر الى اشبه قوليهما ..

الحق لا يختلف باختلاف الناس فى مذاهبهم

— قيل وكان لرجل نكارى على رجل وهبى دينار واحد دينا ، فمات الذى عليه الدين فخلف ابنا عزابيا ، ولم يترك مالا يورث عنه ، سوى شاة واحدة ، فطلب النكارى دينه من ولد الميت فقال : ان غريمك لم يخلف الا شاة ، فبعها وخذ منها دينك ، فقال النكارى : بع انت ، وادفع لى : فقال : بينى وبينك ابو صالح ، فترافعا اليه ، فلما قربا من مجلسه قال النكارى للعزابى ، سر اليه أنت ، وحدك ، واستفته، فما أفتى به أمضيته على نفسى، ورضيته فجاء العزابى ، وعرفه ما بينه وبين صاحبه ، فقال ابو صالح صدق صاحبك ، بع وادفع اليه الثمن ، فقال بعض من حضره من العوام هذه اعانة للنكارى على الوهبى ، فقال لهم ان الحكم لا يختلف .

الحكم فيما اذا تخلى الورثة عن التركة للغرماء

فقال ابو محمد لو كان ابو صالح تتبدل فتياه لتبدلت فى هذه القضية ، واخذ بقول من قال ان الورثة اذا اخلوا بين التركة وبين الغرماء فليس عليهم غير ذلك ، قلت ، والوجه فى المسألة ان كان المديون لا مال له غير الشاة ، ان يجتهد الحاكم فى النداء ، حتى تبلغ اقصى غاية قيمة الوقت ، ولا يكل ذلك الى احد من الخصمين ، فانه أرايت ان باعها ولد المدين باقل من قيمتها ، ثم قام عليه غريم آخر ،

فحاصص الغريم الاول فيما أخذ أليس قد ضيع بذلك حق الغائب والحاضر اذا كانت فى البيع حطيطة اليهم ؟ اللهم الا ان تطوع الوارث بقضاء جميع الدين سواء كان فى التركة وفاء أو لم يكن .

وذكر ان ابا صالح سار ذات مرة فى بعض شؤونه ومعه ابنه ابو محمد ، فلما كانا ببعض الطريق وجدا شاة لا يدرى أحد منهما لمن هي والشاة على آخر رمق ، فقال أبو صالح لابنه : اذبحها ، فامتنع ، فكرر عليه ، فامتنع . وكان الشيخ راكبا فنزل عن مركوبه ، فذبح الشاة ، فتركها ، وانصرف ، فقال لابنه أبى محمد انتم أهل هذا الزمان لا تجزون على أحد صغيرة ولا كبيرة ، ثم قال لابنه : اقطع لى قضيبا اسوق به الحمار ، فقطع له قضيبا ، فاستحسنه والقى الذى فى يده ثم قال هكذا المتروك الذى يسميه العلماء متروكا .

وذكر ان أهل الحى شكوا اليه شاة تشرب من الآنية ، فقال ايتونى بها ، فاتوه بها فضربها ضربة واحدة بين أذنيها ، فصاحت صيحة منكرة ، فلم تعد بعد ذلك الى شرب اللبن .

شفقة الشيخ على الحيوان

وغاب عن أهله ذات مرة فى بعض شؤونه وخلف ناقة له وعليها الصرار ، فلم ينزعوه عنها ، فلما قدم وجد خيط الصرار قد اثر فى غارب الناقة ، حتى أحدث فيها قرحا ، فاستعظم ذلك ، واظهر غضبا ، وابتدر ليحل الخيط عن الناقة ، والصديد يقطر على كمي جبته ، فقال ابو محمد : وكنت اضم كميه لئلا يصيبهما الصديد ، فانتهرنى وقال : تنح عنى لا بأس بذلك .

يتحمل الشيخ المشاق للابقاء على السير الصالحين

وذكر ان ابا صالح سمع بالنكارة انهم استولوا على جبل دمر بحلقة كانت لهم تطوف في الجبل فتكدر خاطره ، فتوجه اليهم بالحلقة ، ومعه ابنه ابو محمد وذلك في سنة ممحلة ، وكان الشيخ يكابد الجوع والوعر ، وصعود الجبل كل ذلك في الله واحياء لسيرة المسلمين ، وابقاء لذكرى الصالحين ، وفي ذلك كان ولده أبو محمد يرفده من ورامية لما صعد الجبل ، لئلا يقع ، حتى وصل الى رئيسهم ومقدمهم « زيرى بن كملين » فعاتبه ابو صالح وقال له ما هذا الذي بلغنا عنكم يا زيرى من مرور النكار عليكم وحلقتهم بين اظهركم وانت بالحياة ؟ فقال له زيرى : ان عذرنا يا شيخ بين أما سمعت المثل السائر في كلام البربر ؟ وخاطبه ببيت بربرى ترجمته : المرأة متى لم يزرها بعلها ابتغت السفاح ، وهذا الكلام له بالبربرية وزن ، وطلاوة ومساغ ، غير ما يظهر من تركيبه بالعربية . وقال له الشيخ منع من ذلك شجة الزمان ، وما يدركنا من الشفقة عليكم ، فقال له زيرى فترفعون ازوادكم ! فخصمه وأصاب ، لان الله اثنى على المؤمنين فقال : « ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ، ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيض الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين » . ومن اعظم الجهاد الجهاد في الدين .

الشيخ يفضل تاليف اهل المشرق (عمان)

وكان ابو محمد يقرأ على ابنه مختصر ابن محبوب فكان ابو صالح يقول ، هذا كلام محقق ، فقيه ، أصولى ، ولم يقع منه هنا الا الجزء السادس وهو سبعون جزءا . هذا منه تحريض على العلم ، وعلى تحصيل الدواوين . وذكر عنه انه كان يقرأ عليه الكتاب المعروف بالنسخ الثلاث في

الحيض ، وكان كلما قرأ في النسخة الاولى ، يقول : هذا الفقيه العالم ، وفى الثانية يسكت لم يمدح ولم يذم ، وفى الثالثة يقول : خلط ، خلط ، ذلك ليعلم ان تأليف أهل المشرق مفيدة ، دون ما سواها .(2)

ومن فضيلته ان رجلا من نفوسة يدعى ابا يخلف، وكان عندهم بجربة ، وكان هذا النفوسي متقنا لمسائل الحيض ، فمتى وردت مسألة من مسائل الحيض على أبي صالح رفعها الى ابى يخلف ، فتكلم فيها بما عنده بعد ما يقول لا ارى نفسى اهلا لذلك ، ويسأل من ابى صالح الجواب .

وذكر انه لم تسمع منه لفظة شرقط الا مرتين، احداهما انه سئل عن بئر اذا كانت فى الجنان هل هى عيب ؟ فقال هى شر العيوب ، (1) والاخرى ذكر له رجل وكل رجلا ان يزوج له ، فزوج له اربع نسوة ، فقال : هو شر الوكلاء ،

وذكر ان رجلا نكاريا سأل الشيخ ابا صالح هل تجوز الصلاة بثوب واحد ؟ قال : نعم ، اذا كان ساترا ، فقال النكارى انما عنيت الشاشية ، فقال ابو صالح انما قلت لك اذا كان ساترا ، وسأله مبكتا ، أيجوز صوم العيد ؟ فقال : لا ، قال فلم تصومون يوم الجمعة وقد علمتم انه عيد ؟ قال : أرايت ان كان فى رمضان ، فلم يجد جوابا .

الرخص العلان التى افتى بها

وذكر ابو صالح قال : ما افتى سليمان بن ماطوس قط فى رخصة الا فى ثلاث مسائل : احدهما ان من باع سلعة بقراريط وهو يعنى دراهم الحندوس ان ذلك جائز ، لان القراريط فى أوزان الذهب ، والدراهم فى الفضة ،

(1) كان وجود البئر فى الجنان عيبا لان الناس يقصدونها للسقى ، ولا يمنع الماء عن المحتاج اليه ، فيكون ذلك البستان عرضة لافساد الدواب ، ولا يمتنع عن الايدى .

(2) هكذا العبارة فى النسخ ، فتامل

الثانية رجل تحقق في اعضاء وضوئه نجاسة ، أو في عضو واحد منها فتوضأ حتى انتهى الى موضع النجاسة فجعل مرور الماء على العضو النجس ازالة للنجاسة ، واداء لفريضة الوضوء ، ان ذلك يجزيه ، ولو لم يقصد . فقال له أبو محمد ، لا أعلم هذا الا ان ترجعوا الى جواب غيركم . والثالثة رجل سأل من رجل خمسين دينارا قراضا وخمسين سلفا ، فأتاه بمائة دينار جميعا ، ودفعها له ، ولم يبين ما للقراض ولا ما للسلف ان ذلك جائز .

يجوز الرجوع الى الرضى بعد الانكار لا العكس

وقال ابو صالح في امرأة عقد نكاحها وليها فانكرت ، ثم رضيت ، ان ذلك جائز لان لها ان ترجع الى الرضى بعد الانكار ، ولا يرجع الى الانكار بعد الرضى ، في قول أبي عبيدة رحمه الله ، فقال له ابو محمد النكار أولى بالصواب في هذا الجواب ، فقال له : النكار أولى من ابي عبيدة بالصواب يا هذا ؟ فقال : لا ، ولكنهم أخذوا بقول أبي نوح صالح الدهان ، وهو اظهر واصح ، فصادفه النكار فرجحوه .

وذكر ان رجلا من ولد ابي مسور متخلفا ، خرج من جربة الى بلاد أهل الدعوة ، يستجدى ويستعين ، فعظمت مصيبته على أبي صالح ، لكونه خرج في شيء لم يخرج اليه سلفه ، فعز على ابي صالح ان يجتمع عليه فيه مصيبتان الاستجداء وان لا يعرف قدره ، فجعل يسأل كل من يرد عليه من النواحي التي توجه اليها ، ويبحث عن منزلته عندهم ، وهل عرف له حظ أم لا ؟ وهل اكرم أجلالا لآبائه ؟ فقال له ابنه ابو محمد : ان فلانا لم يبلغ قدره هذا الاهتمام الذى اهتممت له ، قال ، فقال له أبو

يهتم به تقديرا لابيه

صالح يا هذا لا تقل هذا ، فان ذلك ابن ابى مسور ، «وكان ابوهما صالحا » .

وذكر ان تلميذا من تلامذة ابى صالح كان يقرأ عليه كتابا بحضور رجل نكاري يرد عليه ، وأكثر الرد عليه فى غير موضع الرد ، ففهم أبو صالح عن النكارى انه ينتفخ بما ليس عنده ، فقال للتلميذ : ناول الكتاب من هو اجود منك قراءة ، فناوله النكارى ، فلما اخذه بقى حائرا لم يحسن القراءة ، ولو حرفا واحدا ، فبهت ، وخزي .

عادة اهل جبل دمر فى اخذ جزء من الدية واستنكار ذلك

وذكر ان رجلا يكنس مربدا بجبل دمر ، فرفع حجرا من المربد فرمى به وراء ستر ، فصادف رجلا فقتله ، فترافع اولياء القاتل مع صاحب المربد الى ابى صالح فحكم فيه بالدية ، فسر بذلك رئيسهم زيرى ، لان عادة أهل الجبل متى وجبت دية على أحد واخذها مستحقها فانه يجيزها المقدم بثلثها ، وزعم أهل جبل دمر أنهم أخذوا هذه السيرة عن الائمة ، ومعاذ الله ، فبلغ ذلك ابا صالح فانكره عليهم وغيّره ، وكره ان يتخذوه سنة ، فيشتهر ذلك عنهم فيزداد فى الشريعة ما ليس منها .

ينفق ماله احتسابا فيشتكى منه ابناؤه قلت ذوى الفضل فى آخر الزمان

وذكر ان رجلا من بنى يراسن تاب في آخر عمره ، وكان موسرا وكان يتصدق بماله فجاء بنوه الى ابى صالح شاكين بابيهم ، ذكروا له أنه اتلف المال وتركهم فقراء فيما زعموا فقال له ابو صالح مالك وبنيك ؟ زعموا انك اتلفت المال فقال له يا ابا بكر ، أفعل كفعل الذى نزلت فيه آية الكنز « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فكان ابو صالح يستحسن ذلك ويتعجب من كونه صدر من رجل عامى .

وزاره جماعة من العزابة في مرض اصابه ، فدخلوا عليه في عريش له ، بمقربة من موضع وضوئه فجعلوا يحفظون ثيابهم ان يصيبها شيء من ثرى موضع الوضوء فقال لهم : لا تحذروا ، فاني لم آته قط بنجاسة ، وكان من عادة ابى صالح اذا اكمل ركوع النوافل التى اعتاد ركوعها دعا من يقرأ عليه آيات سجدات القرآن ، فكلما قرأ منها آية سجد ، حتى أتى على آخرها .

قلة ذوى الفضل فى آخر الزمان

وذكروا عن ابى صالح انه قال يأتى على الناس زمان يود الرجل من يأكل طعامه فلا يجده ، ويود من يستشير فلا يجده ، ويود من يرفع اليه أمر النازلة تنزل عليه فى أمر دينه ، فلا يجده ، لا لقلة الناس ، بل لقلة الفضلاء ، فمن ادرك ذلك الزمان منكم فليتمسك بما حفظ من دين الله ، وليعض عليه النواجذ .

أبو زكرياء فصيل بن أبى مسور

ومنهم ابو زكرياء فصيل بن ابى مسور رحمه الله ، الطيب موردا ومرعى ، الكريم اصلا وفرعا ، المبارك عينا وآثارا ، المحمود خبرا واخبارا ، ورث المجد عن امجد الآباء ، وأورثه نجباء الابناء ، وأبقاه فيهم مخلدا لا يفنى الى يوم الفناء فهم شجرة الدين ، لان اصلها ثابت وفرعها فى السماء ، ان ذكرت السباق فى حلبة العلم كان المبرز ، وان ذكرت المخلصين وجدته لخصال الخير باسرها قد احرز ، قد تقدم من ذكر احواله فى التعلم والتعليم ، وماله فى طريق الصلاح من رتب حديث وقديم ، وفى كل مسموع طيب وثناء كريم ، وسنذكر ماله من المناقب ، وكريم المذاهب ، وما وهب الله على يده من المواهب ، ما

يحسن مرئيا عند الشاهد والغائب ، من فضائل مشهورة ، سائرة بها الركبان ، فلو سكت عنها لأثنت الحقائب .

تسلط ابن وانموى على الجزيرة في زمن الشيخ

ذكر ان قائدا من قواد السلطان يعرف بابراهيم بن وانموي ، مزاتي وهو من أهل المذهب من مزاتة القيروان الا انه كان جائرا ، فاسقا ، توجه الى جزيرة جربة ، وكتب قبل وصوله اليها الى ابى زكرياء فصيل ، ان تنح باهلك وعشيرتك الى المسجد الكبير ، لئلا يدركهم من اضراره شيء أو تصيبهم من الجيش معرة ، ففعل ابو زكرياء فاستباح القائد جربة نهبا وغصبا ، ووقى شره بني يراسن فانهم في جنب الشيخ لم يصبهم شيء مما اصاب أهل الجزيرة ، ببركته ، قيل فلما قضى ابن وانموي من أهل الجزيرة أربه ، وصل الى ابى زكرياء ، فأعلمه ان أهل جربة أفسدوا على السلطان رعيته ، ولم يودوا حق طاعته ، فلذلك نزل بهم ما نزل ، ولكن يا أبا زكرياء ما الذى تعلم من أحوال بني يراسن ؟ قال ضعفاء ، قال اما يقدرون على أدنى شيء ؟ قال يقدرون على دينارين ، قال قد قنعت بدينارين منهم ، وتقدم أبو زكرياء ، وغرم له الدينارين من ماله ، وقد تقدم له في الكتاب نحو من هذا ، رحمه الله (I) قيل وكان ممن انضم الى الشيخ أبى زكرياء من بنى يراسن رجل يسمى ابا ملدين ، فاصيبت له جدي وعنز فاعلم بذلك ابن وانموى ، قال اما العنز فلك ، واما الجدى فلا ، فقال : بل كلاهما لى ، فقال له القائد : يطلقان جميعا فان صحب الجدى امه فلك ، والا فلا ، فاطلقا فأخذ كل واحد منهما طريقا غير طريق الآخر ، فقال له القائد

(I) للشيخ على معمر صاحب كتاب الاباضية في موكب التاريخ كلام ونقد لموقف الشيخ ابو زكرياء ، فراجعه ان شئت ، ولعل الذى جعل الشيخ يقف هذا الموقف من القائد الظالم انه لا يستطيع ان يفعل شيئا فرضى ان ينجو بنفسه وبعائلته .

كيف ترى دعواك يا ملدين ؟ قال قد والله نالهما من رعبك ما نالنا فدهشا كما دهشنا ، فضحك حينئذ ، وسلمهما اليه وانما ذلك كله ببركة الشيخ .

يطعم الجبابرة تقية ويتبرع بمثل ذلك للفقراء

وكان ابو زكرياء ربما عامل ابن وانموي واشباهه بالاكرام ، وقابلهم باطعام الطعام ، فاذا فعل شيئا من ذلك تبرع باطعام مثله للعزابة ، فالاولى وقاية للعرض وابقاء للحرمة ، والثانية تكفيرا عن الاولى ، على انه يقول : من حرث زرعا وحصده ، ودرسه ، وطحنه ، وعجنه ، واطعمه الجبابرة ، بمنزلة من أطعمه الاولياء ، فلكليهما حظ من الثواب ، وكلاهما يكتب عند الله صدقة ، كما روي فى الخبر .

اهتمام الشيخ بالطلبة واعانتهم سرّا

وكان يقول : « منزل التلامذة كشجرة الخروب » يعنى انه لا ينبت حول الخروب نبات ، فان نبت كان ضعيفا ، لان الخروب يشتف ، وكذلك ما كان حول منزل التلامذة ، فانه يكون اهتمام أهله لما يصلح شأن التلامذة ، فجهدهم مكابرتهم ، والطافهم ، والقيام بمؤونتهم ، وكأنى به رحمة الله عليه يخاطب بذلك أهله ، وحشمه ، ليكون لهم من الاهتمام والاهتبال بأمورهم ، والقيام بحقوقهم ، ما لا يكون عند غيرهم من ذلك ، فيقتفون آثاره ، ولا يستعظمون ما ينفقون فى جانب التلامذة ، وما يخرج من مصالحهم ، وكان رحمة الله عليه يصرف الدنانير بالدراهم ، ويجعل الدراهم فى القراطيس ، والصرر ، ثم يعلقها فى الواح التلامذة ، وربما يجعلها فى أوعية دفاترهم ، وربما جعلها بين التلميذ وبين ثيابه ، وهم لا يشعرون ، وكل ذلك منه رغبة فى كتمان الصدقة ، فلما مات ابو زكرياء رحمة الله عليه انقطع عن التلامذة ما

كانوا يعتادونه من ذلك ، فعلموا انه انما كان يفعل ذلك ابو زكرياء ، وتحققوا ذلك .

وبلغه عن ابي بكر الزواغي انه كان يقول : لسنا في دفاع ولا في ظهور ، ولا في كتمان ، ولا في شراء ، ولكن زماننا سائب لتضييع الناس القيام بالحق ، ولا يعني ان السائب وجه من الدين خامس ، فقال الشيخ ابو زكرياء لما بلغه ذلك عنه : أخبروه ان مسالك الدين أربعة : الكتمان وهو الامر السابق لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، ثم الظهور كحاله بالمدينة ، ثم بعده ان امر بالجهاد ، ثم الدفاع كدفاع أهل النهروان الراضين بحكم ابن العاص وعبد الله بن قيس ، ثم الشراء ، كابي بلال رضى الله عنه (1) فلو رأيا زماننا وأهله لاستحالوا التمسك بشيء من الدين .

أبو عمرو النميلي

ومنهم أبو عمرو النميلي ، رحمه الله ، الراسخ القدم ، المؤثر موسرا وذا عدم التارك الآثام والتباعات ، المعمر في اكتساب البر وأفعال الطاعات ، الذى كان الورع خدينه ، والعلم في كل وجهة قرينه ، وهو أحد اقطاب الجزيرة ، وما يجرى فيها الفرض والسنة والسيرة .

ذكر أبو الربيع ان أبا محمد واسلان بن أبي صالح زار أبا عمرو النميلي ، بعد ما كبر ، وعلت سنه ، وقيل أبو عمرو لما كبر زار ابا محمد ، فقال يا واسلان يا بني ، ذاكرني بشيء انتفع به ، فسكت عنه ابو محمد فلم يجبه ،

---

(1) راجع اخبار ذلك في عروة قسم التاريخ من الكتاب ـ الجزء الاول

فقال مهلا عليك يا واسلان، مهلا عليك، ان كنت استثقلت سؤالى فانى اخفف عنك والا فعلام تركت سؤالى ، ولم تجبنى ؟ ولما رأى أبو محمد تغير أبى عمرو أقبل عليه ، يذاكره ، بما اعتقد انه ينتفع به ، فهكذا كانت احوال السلف واخلاقهم ، وتسارعهم الى الخير ، وسباقهم ، لا يضيعون الوقت ، ولا يفوتون الغائب .

جند المعز ينكلون بعدة مشائخ فى جربه

وكان ابو عمرو قد عاش مائة وعشرين سنة ، وقتل شهيدا ، قتله بنو وتران زويلة ، وذكر انهم ذبحوه وخرج من مذبحه شىء كاللبن يسيل ، وهؤلاء الذين قتلوه هم عسكر أخرجه المعز بن باديس فيما ذكر ، فقتلوا عدة من مشائخ جربة، كأبى عمرو ، وأبى صالح، وأبى موسى (1) وذكر ان رجلا خرج ليلا الى المقتلة ، يتفقد القتلى ، هل فيهم من بقيت فيه بقية نفس ، فسمع قائلا يقول باللسان البربرى يا قاتل ابى عمرو النميلى ، شتت الله شملك ، وازال عزك ، فلم يلبث الا أياما فخرج عليه يونس بن يحيى الطنبرى ومزق ملكه ، وقتل رجاله ، وخرب سلطانه ونفاهم من القيروان الى المهدية .

ابو موسى عيسى الزواغى

ومنهم أبو موسى عيسى بن السمح الزواغى رحمه الله ، شيخ أهل الاخلاص والتقوى ، المعتمد على قوله فى الفتوى ، ذو الرصانة والحلم ، والمتقدم فى فنون العلم ، جوابه عند السؤالة له رونق وبلاغة ، والفاظه حسنة

---

(1) كان ذلك فى الحملات الارهابية ، واعمال القمع التى قام بها امراءه ليحمل الناس على اعتناق المذهب المالكى بعد ان تمذهب به هو ، فعانت من جراء ذلك بقية الطوائف الاسلامية ، وهذه الاعمال الوحشية قام بها فى الجنوب التونسى سنة 431

الوصف والصناعة ، وحسبك بأول من فخرت به زواغة ، فانه صـــدق فى التجرد والانابة فأتاه الله مع العــلم والاجتهـاد الدعوات المستجابة .

المسائل الثلاث التي انتقدها منه المشائخ وجوابه عنها

ذكر المشائخ ان ابا موسى كان يتحرى الصواب ويتحفظ بالجواب ، لكنهم انتقدوا عليه ثلاث مسائل احداها قوله له ان الأمر والنهى مرفوعان عن أهل الكتمان لايلزمهم مــن ذلك شيء ، والثانية قوله : الرياء لايكون بين العبد والناس وانما يكون بين العبد وربه ، والثالثة انه لما أصيب قومه ايرءبان ، لازم الفراش مضطجعا ، اغتماما لما أصابهم من اخوانهم «بنى تاتيتن» ، عذروه على الأولى ، انهم قالوا انما يعنى سقوط الأمر والنهى فى أهل الخلاف ، فهذا لا بأس به ، وهو قريب من جواب أبى محمد جمال ،وهو قوله كل ما أجازه أهل الخلاف في مذهبهم ، ولم يجز فى مذهبك ، فليس عليك انكاره ، ولا يسمى هــذا تضييــع الأمـــر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجمهور من أصحابنا يأبون ذلك ، ويوجبون النهى عن جميع المناكر ، ما لم يمنع من ذلك ضعف أو خوف ، فيسقطه عند ذلك ، وعن الثانية ان قول من يقول لايكون فى الفرائض وانما يكون فى النوافل وعن الثالثة اعتذر عن نفسه وذلك انه لما سمع به الشيوخ جاءوه معاتبين ، فقالوا : حججت ، وتصدقت ، واعتقــت وانفقت ، وانفدت وصيتك بيدك ، ومع ذلك فان الوهبية غير راضين أحوالك ، تكلفك بقومك حتى بلغ بك الى هذا الحال ، وأظـــن المتكلم منهم أبــو صالح بكر بن قاسم ، فاجابهم بان قال يا أبا بكر السنم تقولون ان من اذا نــال خيرا نلته معه ، وان ناله شر نالك معه ، فانه مهما أصابه مكروه فتوجهت وتوجعت شفقة عليه ان ذلك ليس بحمية ؟

فقال لهم أبو صالح : اسألوا من صاحبكم المحاللة ، فـانه قد أجابكم بمخ العلم .

تركناهم وطلبنا العلم فرجعنا ولم يفتنا شيء

وذكر عنه انه قال : خرجنا من هؤلاء ــ يعنى قومـه وأهله ــ وتركناهم أصحاب شياه وبقرات ، وقرأنا العلم ورجعنا وجمعنا مثل ما جمعوا من شياه وبقرات ، لا أقول ان أبا موسى رحمه الله قال هذا القول فخرا وافتخارا ، بل تحريضا على طلب العلم والاجتهـاد فى الخيـر والصلاح ، واعلاما بان طلب الدنيا مدرك لا يفوت ، وان المتعين طلب العلم والدين .

ابو نوح سعيد بن يخلف

ومنهم أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتى رحمـه الله ، ممن سلك مسالك الاخيـار ، وحافظ عـلى احياء السـير والآثار ، وأخذ نفسه بما تلقى عن ذلك الأبرار ، وكان ذا سعة فى العلم والمال ، رحيب الصدر فيهما عند السؤال، ولا يضجر من المسائل، ولا ينبو عن أجوبة السائل، والورع فى كل ذلك دليله ، والرفق خليله .

ذكروا أن أبا نوح كـان له أربعـون فرسا ، وكـان يصطفى منها فرسا عتيقا ، كان تبذل فيه الأثمان الجليلة، والاموال الجزيلة ، فيضن به ، ولا يسمح بخروجه عـن ملكه لما خبر من صبره وشدة أسره ، وكان يعده للشدائد والمرامى البعـائد ، حتى وصل به الى بلاد المشرق ، فقضى عليه فريضة الحج ، وعليه سافر الى (تادمكـت) ، ولعـل كثرة ما اقتنى من الخيل لكثرة ما يأمله من الخير فى نصرة الدين ، ومدافعة المعتدين .

وذكر ان أبا نوح لم يصل صلاة بالتيمم على كثرة سكناه بالبادية ، ولم يلبس الثياب المعدة للصلاة الى غيرها قط ، بل اذا قضى الصلاة طواها واوعاها فى الخرج ، ولم تفته ركعات الضحى قط ، ولم يفته نوم القائلة ، فهذه خلال اعتادها لايقطعها عنه مايقوم به من الاسفار ولا يتركها بعذر من الأعذار ، فكان اذا سافر وحان وقت المقيل نزل عن فرسه ثم نام ، ثم يقف غلامه عند رأسه ممسكا له الفرس، حتى ينتبه فيصلى ثم يركب فيدرك الناس ، لم يفوتوه ، وكذلك يفعل فى جميع الصلوات ، فرضها ونفلها .

وكان كثير المال كثير الأضياف لا يرد بابه دون أحد ، وكان له أربع زوجات وكل واحدة منهن فى خيمة ، فاذا نظرت الى خيامه رأيت جلود الشياه منشورة ، وعليها لفائف قطن ، لكثرة ما يغشاه من الأضياف ، فيكثر الذبائح .

رايه فى التصرف فى مال الغير جلبا للمصلحة

وكان يقول كلما تصرفت فى أموال الناس فى وجوه المصالح لتدخل عليهم بذلك نفعا ، أو تكف ضررا ، فليس عليك فى ذلك تباعة ، ذكرانه رأى بقر الناس فى زرع فأخرج البقر وطرده عن الزرع ، وهو على فرس أنثى يتبعها مهر ، فلم ير على نفسه حرجا فى دخول فرسه ومهره فى الزرع ، لما أنه انما قصد بذلك ازالة الضرر .

وكان رحمه الله مطرحا حظوظ النفس ، لا يقف عند مراعاة الظواهر ، انما كان عنده القصد والاخلاص ، فذكر عنه انه كان عند اهله فى ناحية من نواحى طرابلس فى عام الابراج وهو العام الذى وقع فيه الحرب بين زناتة وصنهاجة فهزمت صنهاجة ، وكان بنواحى افريقية زلازل

عظيمة ، وأحوال شديدة ، فتشمر حينئذ من كان بنواحي افريقية من مزاتة فصاروا بجهات اخوانهم بنواحي بلاد طرابلس ، فنزل اليه أبو نوح سعيد بن زنغيل، وكان عنده ضيفا ، فلم يجد عنده غير الشعير واللبن ، قيل ، فكان اذا قدم اليه شيئا من ذلك قال له : كل يا شيخ فاني لا اعتذر لمن أدعو له بالجنة ، وأرجو ان يكون من أهلها ، الا ترى حسن هذه العبارة ولطافة هذه الأشارة ؟ رحمة الله عليهما .

لا اعتذر لمن ادعو له بالجنة

قيل وفي هذه السنة انضم عبد السلام بن أبي وزجون فيمن انضم من مزاتة الى جهة طرابلس ، وفيها سئل عن السخط والرضى وعن تلك المسائل ، فقال ، انها صفات الله ، فعيب هذا الجواب ، وطرد ، وسافر الى المشرق للحج ، قلت : ولعل الجماعة رضوا عنه ، وحينئذ توجه الى الحج ، والا فلا يمكنه ان يقصد الى الحج وهو في وحشة الهجران ، بل بعد ان يتوب وتقبل توبته .

ابو محمد واسلان بن يعقوب المزاتي

ومنهم أبو محمد واسلان بن يعقوب المزاتي رحمه الله لم يقصر عن مدى أصحابه ، وان كان غير منتفع بشبابه ، وذلك أنه قضى أيام الشباب في لا شيء ، ثم توجه الى الله ، فبدل الرشاد بعد الغي ، فسعى وحفد ، وجد واجتهد، حتى فتح الله عليه في مدة يسيرة ، بما ناله غيره في الأعوام الكبيرة فكان بالمجاهدة مذكورا، وبالعلم والورع مشهورا .

ذكروا ان أبا محمد واسلان كان راعي غنم ، فاتى عليه حين من الغمر وهو لم يدر ما الصلاح ، ولا أهله ، وكان عادته اذا خرج في رعاية ان تجتمع الرعاة ، فيغني لهم ، وكان حسن الغناء ، فاذا كان آخر النهار ختم غناءه

ينتقل من رعي الغنم الى طلب العلم

بكلمات ، فيذكر الله فيها ويدعوه ، فكانوا اذا سألوه ان يغنى لهم بعد فراغه من الدعاء يقول لهم : اما بعد إذ ختمت فلا ، ويمتنع فلا يعود الى الغناء على كل حال ، وكانت له هذه خيرة ، فهداه الله الى الطريق المرضي ، فتاب ورجع الى الله ، ولحق بتلامذة القرءان فى ايام أبى القاسم يزيد بن مخلد ، فابتدأ فى قراءة القرءان على تكلف شأن التعلم على الكبر كما فى كريم علمك وكان جهير الصوت فمر به رجل فوجده يعالج من ذلك ما يعالجه المبتدىء فقال له : يا واسلان هلا رجعت الى أهلك فلازمت الصلاح واصطناع المعروف ؟ فان ذلك أنفع لك وأجزى عنك ، وكأنه أيأسه من التعلم ، فساءه ذلك ، فخرج من المسجد ولوحه في يده ، وعبرته تخنقه ، بل دموعه تسيل ، فوجده رجل آخر على هذا الحال فقال له ما شانك يا وسلان ؟ فاخبره بما قال له الرجل ، واياسه اياه من روح الله ، فقال له الرجل هات لوحك ، وكان قد رماه ، فقال له اقرأ فقرأ فقال له اي عالم يخرج منك يا وسلان ! فارتاح لقوله ، ورجع الى تعلم القرآن ، حتى حفظه ، ثم تعلم علم الكلام وحصل الاصول على شيخه أبى القاسم رحمه الله .

اجتهاده فى طلب العلم ، واخباره فى ذلك

فذكر انه كان فى أيام قراءته على أبى القاسم حضر يوما الى منزله ، فوجده راقدا فطفق يتناظر هو وزوج الشيخ فى مسالة من علم الكلام ، قال فلما افاق قال له : هل سمعت ما نحن فيه ! قال نعم سمعتكما تترامیان بالخزف ، يريد ضعف حجتهما فى المناظرة ، فلما قضى واسلان من هذا الفن وطره شاقت نفسه الى تعلم الفروع فاستاذن امه فى السفر ، والغز عليها فى الاستيذان ، فقال لها اتاذنين لى فى الطلوع الى الجبل ، فقالت نعم ،

فذهبت هي الى جبل بمقربة من منزلهم ، وذهب هو الى جبل نفوسة ، فجعل يقرأ العلم حتى حفظ فى الفقه كتبا كثيرة ، وكان فى اثناء هذه المدة اذا وصله كتاب من تلقاء اهله رمى به فى الكوة لا يقرأه ، حتى قضى وطره من علم الفروع وعقد النية على الرجوع الى أهله ، فقرأ الكتب فوجد فى الاول التعزية بامه ووجد فى كل كتاب مالو اطلع عليه لكان شاغلا عما قصد اليه من الخير ، قيل ولما خرج مسافرا عن جبل نفوسة شيعه المشائخ مودعين ، فلما اراد الانفصال قال لهم : اخبرونى يا معشر نفوسة عن رجل حلف بالله ثم حنث ما يجب عليه ؟ قالوا العتق أو الاطعام أو الكسوة هو مخير فى الثلاثة ان كان مستطيعا، فقال لهم هو مخير ؟ قالوا نعم فقال : هذا ما كنت احاول ان اسمعه منكم ، وقد ظفرت به منكم ، فانى متى سألنى سائل عن مذهب أهل جبل نفوسة ، قلت : التخيير فقالوا له : الى هذا كان قصدك . !!

قيل : وكانت اقامته فيهم سبع سنين ، فحصل ديوانا عظيما فكان يقرأ فيه ويدرس عند أهله، وكانوا اذا رأوه يقرأه فى الشتاء ، قالوا له ، يبتل كتابك ببلل أندية الشتاء ، ويقول لهم : سيأتى الصيف ويجف ، فان كان الصيف قالوا ، يحترق كتابك ويتقبض بحر الشمس ، ويقول لهم : سيأتى الشتاء ، وينبسط . وكان رحمه الله لا يفتر عن القراءة فى كل زمان .

يتعجبون من حلمه فيمتحنونه

ومما يذكر عنه من رحب الصدر وكثرة الصبر ، ما حكاه جماعة من أصحابنا ان قوما من أهل القيروان ذكروا أبا محمد واسلان وما وهب الله له من العقل والفضل ، والعلم والحلم ، وسعة الصدر ، فتعجبوا ، وقالوا : أيكون

هذا من اخلاق بربرى ؟ قال : احدهم انا امتحنه لكم اليوم فقعد له في طريقه حتى مر فرفع احـــدى رجليه ليخطو فجذب رجله الاخرى فصرعه ، ثم قام ومسح التراب عن وجهه ، ثم قال : الحمد لله ، ولم يكترث بذلك .

ـ ابو صالح الياجرانى

ومنهم أبو صالح الياجرانى ، رحمه الله ، هذا الشيخ اعبد العباد ، وازهد الزهاد ، وكان لكثرة زهده يحسب ان ذلك بله ، ولفرط حزنه على الآخرة يظن ان الذى به وله ، لا يكترث الا بخدمة ربه ، ولا يعمل لشيء غير حبه ، حتى خصه بالكرامات التى خص بهــا الاولياء ، وافاض عليه نور معرفته وكساه الآلاء .

تهجد الشيخ وملازمته المسجد

ذكر أبو الربيع عن خاله عبود بن منار ، انه كان يذكر عنده ان أبا صالح ينتقل فى كل ليلة فى جميع مساجـد وارجــلان ، يطوف عليها مسجدا ، بعـد مسجد ، قال ، فاتبعته ليلة وقد قام لتهجده ، فجعل كلما اتى مسجدا ركع ما شاء الله ان يركع ، فاذا انصرف قفوت اثره ، وهــو لا يشعر ، ثم يأتى مسجدا آخر ، فيركــع كذلك أيضا ، وانا خلفه اركع ، حتى مر ببعض المساجد واخذ بالركوع فغلب علي النوم فاستندت الى بعض اساطين المسجد ، فلم استيقظ الا وقد خرج ، وغلب على ظنى انه اتى مسجدا آخر حتى يطوف على جميعها ، فحققت ما كان يقال عنه .

وكان هذا الشيخ يحضر مجالس أبى عبد الله محمد بن بكر ، فحضر مجلسه ذات يوم ، فكان اكثر ما اورد فيــه الوعظ والتخويف ، واسهب ما امكنــه ، فقال لــه أبــو صالح : يا محمد ، اليس يقولون الجنــة فى آخر الزمان

بعض ما ذكر من كرامات الشيخ

أرخص من حمار أدبر ؟ فقال نعم أرأيت اذا وجدت في السوق جملا بقيراط واحد ، أتكون لك قدرة بتحصيل الجمل ما لم تملك القيراط ؟ وذكر عيسى بن يرزكشن قال : مررنا بأبي صالح في الغيران المعروفة « ببني أجاج» بخارج وارجلان ، وكنا في جماعة من العزابة ، قال فاضافنا أبو صالح وبتنا عنده تلك الليلة ، فلما كان وقت من الليلة واخذ العزابة في القراءة جعلت الجن ترد عليهم ، يسمعون الاصوات ، ولا يرون الاشخاص وذلك دأبهم مع أبي صالح ، ولعلهم من مؤمني الجن ، تأنسوا بأبي صالح، وتأنس بهم، لان من هرب من الناس وتوحش منهم تأنس بما يتوحشون .

وذكر من كرامات أبي صالح انه اذا اتى ليلا الى الغار الذي هو مصلاه من غيران «بني أجاج» واراد الدخول ليتنفل على حسب العادة ، أسرج له سراجان احدهما عن يمينه ، في الجانب الغربي ، والآخر عن شماله في الجانب الشرقي ، ولا يعلم ولا يرى من يسرجهما له .

خروج الشيخ من وارجلان اعتزالا للفتنة

ووقعت فتنة بوارجلان فلم يمكن أبا صالح المقام بها فخرج مهاجرا الى ناحية ادرج ، وكانت له بها ابل ، فمكث عند ابله مدة سبع سنين ، حتى صرف الله الشر عن بلاد وارجلان ، وانتشرت فيها العافية فأراد أبو صالح الرجوع الى الوطن ، وكان حينئذ ببلاد ادرج شيخ من المشائخ الكبار ، وكانت عنده حلقة عظيمة فيها نحو ثلاثمائة تلميذ يقرأون العلوم ، وسير اهل الخير والصلاح فكان أبو صالح يستأنس به ، ويستفيد منه ، فلما خرج مسافرا خرج الشيخ معه ، وتلامذه مودعين ، وجعلوا يودعونه جماعة بعد أخرى ، حتى لم يبق غير الشيخ ،

الدعاء الصالح من خير المكاسب

فدار بينهما من الكلام المفيد انواع ، فكان آخر ما دار بينهما ان قال احدهما للآخر ، أخبرنى ما اعظم شىء ينال به خير الدنيا ، وسعة الارزاق فيها أبالتجارة أم بالزراعة أم بالصناعة ؟ فلم يجبه طلبا لاخذ الفائدة وليكون الجواب من عند السائل ، فقال : انأفضل ما ينال به ذلك دعاء الصالحين ، لا سيما اذا اغثت ملهوفا أو سددت فاقة مضطر ، وذكر انه استسلف حينئذ من تلك النواحى عشرة دنانير صرفها فيما لابد له منه ، فلما قدم على أهله واحضر الدنانير المذكورة واراد تبليغها منه ولم ير ما يخلصه منها الا ان يوديها بنفسه ، فلما ارتحل عن أهله اجتاز بقوم يعملون المعروف ويتطوعون به لسد خلة أو نفقة على انفسهم ، فكل رجل منهم يتنفل بما عنده ، ويتطوع بما قدر عليه ، فارتاح أبو صالح واهتز ورآها فرصة تنتهز ، لكن تردد ما بين الفرصتين أداء الاتباعة لمستحقها او اصطناع المعروف فى محله ، ثم انه رأى تقديم ما يخاف فواته على ما ليس بفائت واستخار الله عز وجل ، وتطوع لهم بدينار من العشرة دنانير ، ودفعه لهم عازما على استئناف اغترامه لصاحب السلف ، فلم ير بذلك باسا لان ذمته كانت عامرة بالكل ، وتبقى عامرة بالبعض ، فبعد دفعه الدينار تمادى فى طريقه حتى وصل الى صاحب السلف ، فدفع له الصرة فعدها فوجد فيها عشرة دنانير ، والشيخ لا يعرف اكثر من تسعة ، فقال له أعد عدها ، فأعاد ، فوجد عشرة ، فعلم ان ذلك من عند الله .

تحرج الشيخ وشدة ورعه

ومما يحكى من الاخبار التى لم ينسج احد على منواله ما ذكر انه جلب من ابله ابعرة الى وارجلان للبيع، فاشترى

وارجلانى منها بعيرا ، فلما أراد ان ينقده الثمن قال لـه : ان ثمن جملك فى تادمكت ، وكان له جمل اراد المسير عليه فقال له رجل من أهل وارجلان أتحمل لى على جملك هـذا حمل متاع الى تادمكت فتبيعه لى هناك ؟ فقال بكم ابيـع حملك ؟ فقال بكذا وكذا ، وكان بعدد سماه لـه ، فلمـا وصل تادمكت وسوق تلك الوديعة ، نقص من العدد الذى سمى شىء يسير ، قيل قدر ثلاثة اربـاع قيراط ، فقال لا يمكن البيع بدون ما سمى لى فرجع بالحمل الى وارجـلان قالوا فلم ير حمل رجع من تادمكت الى وارجلان غيره ، ولا سمعنا به ، وهذا فى التحرج شىء بعيد .

وكان لابى صالح ولدان احدهما يسمى صالحا وبـه يكنى ، والآخر يسمى سليمان ، وكان اذا أراد ان يسأل عن ولديه يقول : ما فعل ابنى صالح ؟ واما سليمان فقـد رضى عنه المسلمون ، وكان يقول : اذا نظرت الى ولـدى سليمان والى عمران بن زيرى وسدرى بن سليمان احترقت نفسى ، وعلمت انى محتاج الى التوبة والانابة ، واستئناف العمل ، وكان هؤلاء النفر الثلاثة يقول بعضهم لبعض : سيروا بنا الى زيارة الاخيار ، ودعونا من هذا الشيـخ ـ يعنـون ابا صـالح ـ فانـه لـو سكـن بـين اظهـر المشركـين مـا تبـدل ، ولا تغـير . وممـا يحـكى أيضا من اطراحه الاستعمال انه كان ربما قصد مع ابى عبد الله محمد بن بكر رحمه الله حتى تذاكـر معـه فى الصغيرة والكبيرة ، حتى كان مما ذكره ابو صالح ان قـال له : يا محمد يا ولدى ما عسى ادركت منى وشعـر رأسى كالثغامة ، ولحيتى كالصفار ، وجسدى هزيل ، ولو علمت ما علي من القوة والشجاعة والعبادة ، لو رأيتنى حينئـذ

قوة ايمانه ويقينه

لرأيت شيئا عجيبا تعجب ان تراه ، أفتراه رحمه اللـــه يريد بذلك تفاخرا وسمعة ؟ حاشاه ، ثم حاشاه ، انما ذلك دليل على صفاء باطنه ، وكونه لا يحذر شيئا يحذره أهــل الدنيا رحمه الله .

الطبقـــة التاسعـــة 400 ـ 450

ابو عبد الله محمد بن بـكر

منهم ابو عبد الله محمد بن بكر ، رحمه الله ، الطود الذى تظاءلت دونه الاطواد ، والبحر الذى لا تقاس بـه الثّماد ، بيت أهل المذهب والمشهور بالبركات ، والمعتمد عليه فيما أصل للحركات والسكنات أسس قواعد السـيرة وله فى كل فن تآليف كثيرة ، وأكثرها الحجج والبرهـان لانه كان فيها ركن الاركان ، وحفظ عنه فى الاخلاق حكم قد خلدت فى بطون الاوراق ، وله الدعوات التى ترتجى وتتقى عواقبها ، وهى باقية لذريته يتوارثها بدورهـا وكواكبها .

وصنوف فضائل ابى عبد الله اكثر من ان تحصى ، لكن اذكر منها ما تيسر فمن كراماتـه انه أضاف جماعة من أهل الخير والصلاح ؛ ممن ينبغى معه الاحتفال ، وممن لا يقابل بالمحال وكانت غنم الشيخ فى مرعاها بالبادية ، ولم

كرامات تحكى عن الشيخ ابى عبد الله

يحضر ما يسنى به طعام أضيافه ، ولا وجدوه له بوجه الشراء ، فقال لهم : انظروا العريش هل فيه شيء ام لا ، وكان فى داره عريش فنظروا العريش ، فاذا فيه كبش عظيم ، فجهز به ضيافة أضيافه ، فبعد ذلك قدم رعاء الغنم فسألهم عن حال الغنم فقالوا ما علمنا بأسا الا ان الكبش الكبير الفلانى دارت عليه زوبعة ريح فى يوم كذا وكذا ، فتشنا عنه فلم نجده ، وهذه الحكاية روتها جماعة ممن لا يرد ما ذكر ، ومثلها لمثله ، لا ينكر . ومن كرامته ما ذكر الفقيه ابو الربيع رحمه الله قال : كنت عنده ذات يوم وحوله عمال يعملون ، فقدم لهم بسرا ليأكلوه ، فقال لى : كل يا سليمان ، فامتنعت ، فقال كل يا سليمان ، ان من يطاوع لمشكور الحال ، محمود الخلائق ، فاردت ان أقول ولو فيما لا ينبغى، فامسكت فاطلع على ما كتمت ، وكوشف بما عنه سترت ، فقال لى : يا سليمان ذلك ليس بمطاوع فنطق به قبل ان اظهره له .

وكانت فى أيام ابى عبد الله امرأة كثيرة التخدم لتلامذته ، محسنة القيام بمعائشتهم ، وكثير من مهماتهم ، فتزوجها رجل وغاب عنها فى نواحى طرابلس فى بعض احياء مزاتة ، فأضربها مغيبه عنها ، وبلغ ذلك فى الشيخ مبلغا عظيما لكثرة اهتباله بها ، فوجه رجلين الى ناحية طرابلس فى شأنها ، احدهما على بن يعقوب ، والآخر عمرو بن يحيى ، واشهدتهما على نفسها انه متى فارقها فقد اسقطت عنه المهر ، فلما استوثقا منها سارا الى جهة طرابلس ، فوصلا الى الرجل فاشهدهما انه خلى سبيلها فكرا راجعين الى أريغ ، ثم انقلب على بن يعقوب الى جبل نفوسة ثم اراد الرجوع ، فمر بقرية خاملة الذكر ، فيها

عجوز يجتمع اليها الناس سالونها عن مسائل دينهم ، ولها مصلى تصلى فيه ، قال علي فصليت فيه صلاة الصبح مع أهل المنزل ، فتفرقوا .

خبر الجني الذى قيل انه كلم الناس

ثم جلست أتلو القرآن حتى غلبتنى سنة ، فما ايقظنى الا صوت قارئ يقرأ بازائى ، اسمع صوته ولا أرى شخصه ، ثم سمعت صرير ثيابه لها تحرك وهى جديدة ، فارتعت ارتياعا شديدا ، فقال لى الصائت ، لا تخف فانى جني ، ممن لا يخشى أذاه ، فسألته عن كثير من الانباء فاعلمنى بما سألته عنه من الاشياء البعيدة عنا ، ثم سألنى عن السبب الباعث لى على السفر الى ناحية طرابلس ، فذكرت له خبر المرأة وبعلها وما كلفنى به الشيخ ابو عبد الله من اصلاح حالها ، ثم وضع سؤالا فسألنى به ، فقال كيف ولايتنا لكم ، وولايتكم لنا ؟ فقلت الجواب من عندك قال نعم اما ولايتكم لنا فبالجملة ، واما ولايتنا لكم فبالاشخاص ، فسمعت العجوز تجاوبنا ، فجعلت تسبح وتكثر التعجب ، ثم شكوت اليه ما استقبلته من الحركة وأتوقعه من خوف الطريق، فقال ، اقرأ هذه الآية : «قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط،وما اوتى موسى وعيسى،وما اوتى النبيئون من ربهم ، لا نفرق بين احد منهم ، ونحن له مسلمون،فان آمنوا بمثلما آمنتم به فقد اهتدوا،وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » فكررها عليّ حتى حفظتها،ولم تقنعه قراءتى معه حتى قال لى: اقرأ وحدك،فقرأت،قال: الآن قد تحققت انك قد حفظت، ثم قال : ان لنا موعدا بالجزيرة اليوم ، لا يمكننى المغيب عنه ، فلا تغب عن هذا المكان حتى اعود اليك ان شاء الله .

فانا لنتحدث اذ طلعت الشمس ، فقال لى : هذا وقـــت الختمة ، فخذ بنا فى الدعاء ، فقلت له الدعاء من عندك ، فقال بل الدعاء منك لانكم أفضل، فدعوت، ثم دعا، ثم قال زيدى من الدعاء يا عجوز ، فدعت واكثرت التسبيح ، ثم مضى الجنى وانتشر الخبر فى القرية ان الجن تكلم وحـــار الناس وتنحيت عن الناس بحـذاء القرية فى خـربة ، ثم نمت فيها ، فلما استيقظت اقبلت أنظـر ميعاد صاحبى ، وجئت الى العجوز فاعلمتنى ان الجنى أقبل ، وسأل عنك ، فلـم يجـدك فنـاولنى حصيـات ، وقـال ادفعهـا اليـه اذا جـاء ، وقـد انصـرف وتـرك الحصيات برسمك ، فهاكها ، فاخذت الحصيات فوجـدت عليها خطا رقيقا، لا اكاد أبينه ، فعزمت على التوجـه الى ناحية بلادنا ، فسلكت على نفزاوة ، ثم على تقيوس ، ثـم قال ، وقد اشتريت كساء طاقيا (I) من نفزاوة ، فلمـا صرنا فى السبخة التى بين نفزاوة وبين تقيوس من طريق بشرى وتوسطنا السبخة واجهتنا خيل لا نستطيع الهروب منها ، فقصدناها وقصدتنا وانا فى ذلك اردد الآية التى علمنيها الجنى ، فلما وصلناهم حفوا بنا والكساء الطاقى على عاتقى، فردد في أميرهم نظره وصعد فينا بصره وصوبه وقد غشينى زبد فرسه ، فقال لنا من انتم ؟ فقلنا عزابـة تلامذة ، فقال امضوا على طريقكم راشدين ، قال ، وقـد كنت اتوقع ان يقول ضع الكساء فسلمنى الله ، وذلـك بفضل الله وبركة الشيخ ابى عبد الله ، فانى ما تحركت الا مساعدة له وموافقة لمراده ، قال فكانت معى تلـك

(I) كذا فى النسخ ، وفى الاصل كتاب « الموجز » كساءة انطاكية

المصيات فوصلت بها الى تادمكت لم ازل اتعرف ببركتها فلم ارزأ قليلا ولا كثيرا مذ ظفرت بها .

✱ وذكر يعقوب بن ابى القاسم ان ابا الحسن افلح كان من اصحاب ابى عبد الله وكان ابو الحسن من تلامذة حمو بن اللؤلؤ فاحتاج بنو ورتيزلن الى ان يقوم عليهم ابو الحسن قاضيا ، فقدمه عليهم الشيخ ابو عبد الله قاضيا ، فمكث سنين فيهم قاضيا يحكم بالعدل ، حتى ملوه وضجروا منه، فوقعوا فيه عند الشيخ ابى عبد الله واكثروا الشكوى وكرروا القول ، فلما طال ذلك على ابى عبد الله وكان من جبلته الغيرة على أهل الفضل فاستحضر جماعة بنى ورتيزلن ومن يليهم من تلك النواحى وحضروا فى جمع جم ، وحضر ابو الحسن وحلق القوم حلقة واحدة عظيمة فسكتوا طويلا ، فقال لهم ابو عبد الله : ما الذى نقمتم من ابى الحسن ؟ فقال قائلهم ان أبا الحسن يحكم بين بعض منا دون بعض ، فقال الشيخ أكان ذلك يا ابا الحسن ؟ فقال نعم ، فقال لهم الشيخ ثم ماذا ؟ قالوا حكم على رجل بصداق امرأة بغير اقرار ولا شهادة ، فقال له أكان ذلك يا ابا الحسن ؟ قال نعم ، فقال لهم ثم ماذا ؟ قالوا له اختصم عنده رجلان فى شفعة فابطلها من يد القائم فيها ، فقال له أكان ذلك يا ابا الحسن ؟ قال نعم ، قال لهم ثم ماذا قالوا مات رجل بقرانا فأوصى فى ماله بوصية فاستأثر بها أبو الحسن ، فقال أكان ذلك يا ابا الحسن ؟ فقال له سأخبرك بما فعلت فيها ، قال لهم الشيخ ثم ماذا ، فلم يجدوا زيادة . فقال له أبو الحسن : يا محمد أيثبت الحاكم الخصومة فى الارض المشاعة التى لم يتعين لها رب ؟ قال لا ، قال فان هؤلاء القوم حين دخلت هذه البلاد قالوا لى : ما بين فلانة الى فلانة

جملة من الاحكام الشرعية استجوب فيها القاضى ابا الحكم

مشاعة لبنى ورتيزلن ، فجعلوا يعمرون هذه الارض دون ان يسلم بعضهم لبعض ، فهو ما لم احكم فيه بينهم ، ثــم قال : ما تقول فى رجل أقر بالنشوز هل يحكم عليه بالصداق أم لا ؟ قال نعم ، قال اختصم الي الخير وامرأته تازوراغة ، فاقر بالنشوز ، فحكمت عليه بصداقها ، ثم قال ابو الحسن ما تقول فى نخل نبت فى اعلى مجرى العامة هل يحكم فيها بالشفعة لبعض دون بعض ؟ قال لا ، ثم قال ان رجلــين اختصما عندى فى نخلة هى فى مجرى العامة ، فطلبها رجل بالشفعة من مشتريها ، وهو واحد من تلك العامة ، فلــم احكم له بها . واما أمر الوصية فان الرجل الذى مات من بنى ورتيزلن استخلف امرأته على تنفيذ الوصية ، فقالت لى ارسل معى من يعلمنى كيف انفذ هذه الوصية ، فارسلت معها ولدى فبغلنى انها تصدقت عليه بربع شاة لحما ، ولم أره ، ولم آكله ، ثم قال ان عندى كلاما لا اريد ان القيه اليك ، فقال دع كلامك ، فحلف ابو الحسن ان لا يتكلف قضاء بينهم سبع سنين ، فصاح فيهم الشيخ ، فتفرق كل واحد على جهة ، وقام ابو الحسن منصرفا فقال الشيــخ ليعقوب بن ابى القاسم اردد أبا الحسن ، فرده ومضى معه الى الغار . فقال الشيخ ليعقوب أنظرنى ، وذلك فى أول الليل ، فلما اصبح لم يخرجا ثم الى غروب الشمس فلــم يخرجا ، ثم الى الصبح فخرجا ، فتوادعا ، فقال يعقــوب فقمت الى أبى عبد الله فقال من هذا ؟ فقلت أنا يعقوب ، فقال : أو انت قاعد هنا الى الآن ؟ فقلت أجل ، فقال ان أبا الحسن لم يزل يسئلنى عن مسائل الاحكام ، ولم يفتر عن السؤال الا اذا قمنــا الى الصــلاة ، ثم قــال ان جيرانك يصارعون من لا يصرعونه .

ومن الكرامات ما ذكر على بن يعقوب قال : رأيت فى منامى بعد موت ابى عبد الله كأنى اتيت الى تين يسلى ، فسألت عائشة زوج الشيخ عنه ، فقالت لى قد خرج ، فاذا فى ذلك اذ أقبل على فرس ادهم ، فنظرت اليه فاذا هو كحيل العينين ، ناعم الجسم والوجه ، فنظر الي فقال : امض بنا فقلت يا شيخ انى غير ماض بعد ؟ فنظر الي فقال تركته للناقضين الذين يموت الدين على ايديهم (I) ، فتوجه نحو المشرق .

ومن فضائله ما ذكر ابو الربيع ان رجلا نفوسيا كان صاحبا ليكنول بن عيسى المزاتى ، وكان بتاجديت وكان لازمه ويسعى فى أموره وحاجاته ، حتى ترتب للنفوسي على يكنول عشرون دينارا ، فمات يكنول فى بلاد افريقية فى غير بلاده ، فسار النفوسى فى طلب ماله قبل يكنول ، فلقي المشائخ بتاجديت ، فقالوا له ان يكنول قد مات فى غير بلده ولم يترك وارثا سوى بنتا له طفلة ولم يوص بما ذكرت ، فلما أيس النفوسى من الخلاص على ايديهم ، وسمع بمشائخ أهل الدعوة قدموا الى قسطالية ونزلوا قنطرار وفيهم الشيخ ابو عبد الله محمد بن بكر ومحمد بن الخير وداود بن يوسف وسعيد بن ابراهيم رحمهم الله جميعا فى جماعة كبيرة قصدهم النفوسى ، فأعلم الشيخ ابا عبد الله بقضيته وشكى اليه بعدم خلاصه ، فجمع أبو عبد الله اصحابه وقص عليهم قصة النفوسى ويكنول ، وما شكى به النفوسى ، فقام داود بن يوسف فقال علي قضاء دين يكنول من مالى ، فقال له الشيخ ابو عبد الله اجلس.فلا

مشائخ يتسابقون الى قضاء دين اخيهم

(I) يبدو فى العبارة نقص ولعل الصواب هكذا : قلت : لمن تركت المذهب؟ فنظر الى فقال الخ

يصح لك الا نصيبك ، ثم قام سعيد فقال كقول داود فقال له ابو عبد الله مثل ما قال لداود ، فقام محمد بن الخير فقال علي دينه لسعة مالى ، فاجابه ابو عبد الله بمثل جواب اصحابه ، فلما رأى النفوسى تبرعهم ورغبتهم ومسارعتهم الى الخير واهتمامهم بقضاء دين يكنول . فقام فقال لهم تركت ليكنول ديني عليه ، فقال له المشائخ اجلس فجلس فجمعوا له دينه .

ومن تحرجه ما ذكر ابو الربيع قال ، دعاني ابو عبد الله محمد ذات مرة ، فقال انى قمت البارحة فلم اجد ما أتوكأ عليه الا هذه الجريدة ولا أدرى لمن هي فاخذتها على وجه الدلالة على العزابة عموما ، فسل عن صاحبها وادفعها له .

الجماعة اولى واهم من الفرد

وتوجه الىوغلانة فوجد بينأهلها تنازعا وتدابرا وفيهم رجل من لواتة يسمى أبد الله من ذرية ابد الله السكاك ، يعنتهم فى الأمور وينزع الى الخلاف والتشاغب ، فقال له أبو عبد الله لما علم انه أحد أسباب الخلاف بين جماعتهم : أعلم يا أبد الله انه ليس واحد أفضل من جماعةغير النبىء عليه السلام ، وأعلم يا أبد الله ان من يتكلم وقد أحتيج الى كلامه فقد ابتلي ببلية ، ومن يتكلم ولم يحتج الى كلامه فقد ابتلى ببليتين .

ضيوف الله اولى بالاكرام

ومن ايثاره وحسن آثاره ما ذكر انه قدم وغلانة وبها جماعة من التلامذة العزابة ، فجلس أبو عبد الله فى ظل النخيل التى عند راس تغرمات ، فأطرفه أبو عمران موسى بن كنون برطب بني باكور وقثاء ، فعلم رحمه الله ان ذلك لايؤثر به غيره وان العزابة الغرباء قد يكون بهم تشوق

لمثل هذا مما يستغرب فلم ينفرد بذلك دونهم ، فقال لـه يا موسى أعلى تجترأ بمثل هذا ، وتجهم فى وجهه ، فقال وما ذلك ؟ قال تتحفنى بمثل هذه التحفة ومعـك أضياف الله لا يتحفهم أحد بمثل هذه التحفة، وهم أولى من أوثر بها ، فاذهب وادفع ذلك اليهم وطب نفسا بما يقر عيونهم، فقال ان هذا شيء يسير لا يجزى فيهم ، ولا يقوم لهم مقاما فقال بل يقوم لهم أي مقام فجز القثاء على عددهم ، أو أكثر من عددهم ، ثم ضمه على الرطب ، ثم ادفع اليهم ، ففعـل ولا يبعد انه تناول لنفسه مثل نصيب أحدهم لا زيادة ، وكل ذلك ليبقيه سيرة يقتدى بها من رآه ، أو سمع به .

ومن الكرامات ما ذكر أبو الربيع ان الجراد نزل « بتين يسلى » وكاد يتلف ضيعة الشيخ أبى عبد الله ، فدعانى فقال لى : صل الى الضيعة فاقرأ هذه الآية : «سواء منكم من اسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه مـن أمر الله ، ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم واذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ، وما لهم من دونـه من وال» . ثم ناد ؛ يا من هنا من اخواننا يستعين بالله وبكم الشيخ الضعيف الاعمى ، على دفع الجراد عن ضيعته ، قال ففعلت ما امرنى به ، فانكشف الجراد وانقشع باذن الله ، ونحو ذلك ما ذكر انه كان نازلا بالبادية فى فصل الربيع بالناحية الغربية الى بلاد أريغ، فنفرت بغلة الشيخ وصارت متوجهة الى بلاد أريغ ، فلم يستطيعوا ردها ، فقال : قوموا يا اخواننا ردوا على الشيخ الضعيف الاعمى بغلته ، ففعلوا فرجعت البغلة دون ان يردها احد .

ومن حكمه وأمثاله فى ذم الزمان وأهلهقوله : ان أهل زماننا هذا كالسبخة ، ان أبتلت أزلقت ، وان جفت خدشت وكالتيوس ان اجتمعوا تناطحوا ، وان افترقوا تصايحوا، وقال : قطيعة الرحم كقطع عضو من الجسد ، لا يخاط ، ولا يربط ، ولا يناط .

خروج الشيخ من اريغ

وذكروا ان بني ورزمار طغوا واكثروا من الفساد وقطع الطرق وانواع الاذى ، فاجتمعت جماعة أهل ريغ عند الشيخ ابى عبد الله فوعظهم وذكرهم على حسب ما جرت به العادة فى مجالسه ، ثم ذاكرهم فيما تدمر به السالكون فى الطرق ، والمستضعفون فى الارض من أضرار بنى ورزمار بهم ، وانهم ينبغى لهم النظر فى حسم هذه العادة ، واكثروا القول فى ذلك ، فاجاب قائلهم بان قال : لا طاقة لنا ، وما عسى ان نقدر عليه ؟ فقال لهم الشيخ : نحن نقدر اذا على انفسنا ، فارتحل بأهله وعياله ونزل ايفران من قرى وارجلان ، فاقام فيهم عاما فضاعت أحوال أريغ لفقدهم ابا عبد الله ، وما كان يصلح من أحوالهم وفسادهم ، فاجتمعوا فى جمع كثير ، وقصدوه ورغبوا اليه فى الرجوع الى موضعه ، وكان من قولهم ان قالوا له : لم تركت ضيعتك وقد اقبلت منفعتها واقبل خيرها ؟ فقال هى عندى وهذه « الزيتا »[1] واحد ـ واشار الى شجر « الزيتا » حوله كانه يراها ـ وما الذ فى ضيعتى من فائدة اذا كنت منكم كالفريسة يعتادها السباع من كل مكان ؟ أو لا ترونني اقصد من الآفاق؟ يقصدنى العزابة للاستفادة فيقتلون بنواحى اريغ ! وعدد عليهم اشياء قبيحة .

(1) نوع من اشجار البرية قصير لا يصلح لشيء حتى للايقاد فهو كثير الدخان

فلما أيسوا من رجوعه معهم تلك المرة رجعوا، فاجتهدوا فى قطع الفساد جهدهم ، واستعملوا الصلاح ، وتحلـــوا بحلية الخير ، وتعاونوا على البر حتى ارتدع عتاتهـــم ، وانقمع غواتهم ، فلما بلغه ما هم عليه من الخير وسألـوه الرجوع رجع .

منشا الخلاف الاستبـــداد والعنـــاد

وقد كان محمد بن سليمان زاره اذ هو بايفران ورغب اليه في المسير اليه ، فقال : تصل الى وارجلان فترى الناس ويرونك ويتبركوا بك . فقال : مالى ولقوم عمـدوا الى مكتل عظيم فجعلوا فيه القدور والملاقى (I) والشقـــف والملاحف ، وخلطوا ما لا ينبغى ان يخلط قال الشاعر :

لا تخلطن خبيثة بطيبة   واخلع ثيابك منها وانج عريانا

وعن أبى عبد الله رحمه الله أنه أوصى بعض تلامذته عند وداعه اياه منفصلا الى أهله،فقال : اذهب الى منزلك وأهلك فان وجدت من تقدمه في الامور فتكتفى به فاتبعه، فان لم تجده ووجدت من تتعاون معه فتعاونوا على البر والتقوى ، وان لم تجده ووجدت من يقتدى بك فى الخير فكن اماما ، وان لم تجد من هؤلاء أحدا فألزم الطريق وحدك ، وجانب الناس .

وعنه أيضا قال : خرجنا فى حلقة زائرين أهل الدعوة فلما صرنا فى بلاد الساحل خرج أهل المنزل فتلقونـــا ، فادخلونا وأحسنوا نزولنا، واذا فيهم رجل ممن كنت أعرفه من تلامذة شيوخي ، وممن قرأ معي ، واذا هــو قــد لبس

كساء حشميا (1) وفي رجليه قـرق قلعي ، وعـلى رأسه شاشية حمراء ، وفي يده مزراق يرفعه ويضعه ، فأدخلوني المنزل وقد عزمت على هجران صاحبنا المذكور، ثم ان الرجل ادخلنا بيتا وأدخل معنا رجالا من أعوان الجبابرة فأزددت عليه حنقا ، وتضاعف غيظي عليه ، وقلت لابد من الخطة فأكلنا طعاما الى آخره ، وفرغت القصعة ، وجعل الفـور يتصاعد من قعرها ، ولم ار قبلها قصعة تفور بعد فـراغ الطعام ، وذلك لشره الأعوان ، وشدة أكلهم ، وقلة أدبهم وكان ذلك مما زاد في حنقي وقوى عزمي على هجرانه ، الا انه كان من لطف الله ان حبست نفسي ولم أعجل عليه، قال فبعد انصرافهم ادخلنا بيتا آخر ليس الا فيه العزابة،واحضر طعاما حفيلا فقال كلوا فلعلنا نؤدى بعض حقوق الأسلام وأهله ، . . . . (2) ما تعلق بنا من طعام كنا نأكله مـن أموال أهل الدعوة في حرمة هذا الاسم ، ثم قال ما دعانا الى ما ترون من مواكلة غير الجنس الا المداراة عليكم وعـلى المذهب ، قال فانحل بعض ما اعتقدت ثم دعونا وانفصلنا الى المسجد ، فلما كان وقت الصلاة الأولى فاذا بالرجل قد جاء ـ وأذن ، فانحل بعض ذلك أيضا ثم جاء وركع ما شاء الله ، ثم أقام الصلاة فلم يجد من يقدمه ليؤم فتقدم ، وأم بالجماعة ، فانحل بعض ذلك أيضا ، ثم دعا فقام وركـع ما شاء الله ، ثم جلس وأخذ الكتاب وجعل يقـرأ ويفسر ما اشكل منه ، فانحل جميع ما اعتقد عليـه ، وحمدتـه واستحسنت حاله ، وحمدت الله اذ لم تكن مني اليه عجلة بنشاط ، ولا معاملة بمكروه .

---

(1) نسبة الى حشم الرجل اتباعه ومن اصطنعهم ويعنى بهم اتباع الظلمة وذوى الجور من الحاكمين فلهم لباس يميزهم ، وفي نسخة جسيما

(2) بياض في الاصـــل

وعن أبى عبد الله رحمه الله قال مثل الجماعة كالخشبة ومثل من يستغنى برأيه كالوتد الذى يضرب فى الخشبة فتفريق الجماعة انما يكون بسببه ، وذلك اذا استبد برأيه فى أمر تنبغى فيه المفاوضة كان حريا بأن يخطئ فاذا أخطأ فلابد من اجتماع الجماعة للنظر فى أمره ، فاذا اخذوا فى الكلام فى قضيته لم يعدموا من يقوم غضبا للخاطىء يدافع عنه فيكون خاطئا ثانيا ، فهو كوتد ثان يضرب فى الخشبة فى سمة الوتد الاول ، ثم اذا حاول الجماعة النظر فى أمر الوتد الثانى قام الثالث يدافع عنه فهو بمنزلته وتد ثالث في سمة الوتدين ، فعند قيام هذا الثالث تتفرق الجماعة ، ألا ترى ان الخشبة بعد الوتد الثالث تصير اثنين ؟ فلا ينبغى الأستبداد ، فقد ورد عن النبىء صلى الله عليه وسلم انه قال «من استغنى برأيه ضل ، ومن هجم على الأمور عطب » .

رايه فى بعض كتب الفقه

وبلغنا ان محمد بن سليمان النفوسى ومحمد بن غمرة زاراه حينئذ فسألهما عن مقدمهما ، فاعلماه انهما قدما من غيران بنى « اجاج » وانهما بها يدرسان الكتب كتب الفقه ، فاستحسن عكوفهما على دراسة الكتب ، وقرر لديهما ان من يدرس كتب اللقط كمن يهيل أنواع الثمر الى غرارته ، وان كتاب ابى غانم قد أوضح قول كل عالم من مشائخه ، واسنده اليه ، وان اجوبة الائمة هى مخ الفقه ، قلت انما يعنى ان ملتقطات العزابة مختلطة كمن يجمع فى غرارة واحدة من كل نوع من الثمر ، وكذلك هى قد تشتمل ورقة واحدة على مسائل شتى من ابواب شتى ، فلا مسئلة تنتظم مع اختها ، ولا باب من ابواب الفقه يستوعب ويستقصى له فهى قليلة الفائدة جدا والغناء ، كثيرة التعب والعناء ، وان الغانمى قد نظمت مسائله

(I) لعل الصواب المقال جمع مقلات ، والشقف بالتحريك قطع الخزف ، ويعنى بهذا التشبيه اختلاط الاشياء المختلفة وتكدسها بدون نظام او تصنيف

فى ابوابه منسوبة الى اصحابها ، فمتى حفظت بابا عرفت مسائله ومن قال بها ومستند كل قول منهم ، فهى بالمصلحة عائدة ، قنية باجتلاب الفائدة ، واجوبة الائمة مليحة فى معناها ، فانك تعرف منها وضع السؤال فتتفرغ ذهنك لما فى جوابه ، كما فرغ المجاوب خاطره ، واستجم فكرته للجواب عن فصوله مستقصات ، فهى مخ كما قال .

الآخرة تقوم احيانا بالدنيا

قيل وزار ابو محمد بعض اصحابه وقد كان عهده قبل ذلك على حالة سنية ورفاهية ، فرآه فى حالة ركيكة وثياب رثه ، فساءه ما رءاه فيه من سوء الحال ، فقال له ما هذا يا أخى ؟ فقال له نحن فى زمان من فقد فيه دنياه فقد آخرته وكان السلف فى زمان من فقد دنياه لم يفقد آخرته ، فالسعيد من احتاط على سلامة آخرته .

وقدم رجل من لمطة يسمى « منزو » الى اريغ وقصد ابا عبد الله وتاب على يديه ، وتعلم السير ، وسلك سبيل الصلاح ، فكان من حاشية ابى عبد الله ومن المقربين عنده فذكر ان ابا عبد الله ارسله فى غنم له بجبال بنى مصعب سائمة، فخرج فكانت الغنم تحت يده وله فيها غنم قد جمعها فيها جميعا ، فاغارت خيل بنى غمرة عليه ، فاستاقوا الغنم كلها ، فاتبعهم يطلب منهم ان يردوها له ، فابوا ، فالح عليهم ، فاخرج احدهم رجله من الركاب فركله بها ، فتيبست رجله ، بأذن الله ، فلم يطق ردها فى الركاب فلما رأى اصحابه ما نزل به رغبوا اليه ان يحالله فيغفر له ، فامتنع فكرروا الرغبة ففعل بلا نية، فقالوا لكن نرغب اليك ان يكون ذلك منك بنية ، ففعل ، فانطلقت رجله سوية ، كما كانت أول حال ، فلما تحققوا ما هو عليه صاروا يتجنبون أذاه ، ولا يتعرضون له بمكروه ، فلما

كان أيضا ذات مرة اغاروا عليه ، وعنده غنم الشيخ ابى عبد الله أيضا ، فقال لهم : خذوا غنمى ، واتركوا غنم الشيخ ، فانه افضل منى ، وانما نالنى بعض بركته فأبوا عليه ، فكان عاقبتهم خسرا .

الخوض من جديد في مسالة الحارث وعبد الجبار

وذكروا ان ابا عمران موسى بن زكرياء رحمه الله ضاق فى الوقوف فى الحارث وعبد الجبار والذين وقع فيهم الاختلاف فقال فيهما عبد الله المدونى بالوقوف لانهما لم يبلغنا صلاحهما الا مقرونا بفسادهم ، فتنازعا فيهما فورد عليهم يوسف بن نفاث فسألاه عنهما ، فسمع مقالة المدونى فقال هذه نكارية بعينها ، واستحسن ما قال ابو عمران ، ثم كان بعد ذلك بايام مجلس آخر حضره جل العزابة المشائخ ، فيهم ابو عمران فسألهم ابو عمران ما تقولون فيمن وقف لكم فى ائمة المسلمين ؟ فأداروا السؤال بينهم حتى انتهى الى المدونى ، فقال من وقف فيهم دون ان تقوم عليه الحجة فلا شيء عليه ، فلم يقنع السائل بهذا الجواب ، ثم قدم عليهم يوسف بن سهلون فسألوه عنها وعلم ما كان من جواب كلا الشيخين ، فقال لهم كفوا عن منازعة الشيخ فلعله لم يبلغه ما تقوم به عليه الحجة فيهما قبل حدثهما ، فكتب ابو عمران الى الشيخ ابى عبد الله سؤالا عن هذه المسئلة وكتب له اخبرنى بما حفظت فيها عن شيخنا ابى نوح رحمه الله فاجابه ما نصه ـ الله أعلم ـ فى الحارث وعبد الجبار ، واما رجل لم يبلغك صلاحه الا مقرونا بحدثه فليس عليك منه شيء والسلام » فلم يقنعهم الجواب ووقف عليه يعقوب بن أبى محمد واسلان فقال اما انا فقد ظفرت بهذا الجواب ولا أبالى في الحارث وعبد الجبار.

تحرج الشيخ من امـوال العـامة

وعن أبي يعقوب بن أبي عبد الله قال أوصى أبي بألف دينار ثم استكثرها ، وأوصى بخمسمائة دينـار ، ثم قـال يا يوسف يابني هذه وصيتي فانفذها ولا جعلك الله في حل ان دفعت زائدا على اربعة دراهم لشخص ، أي شخص كان ، فانما هي حوطة من أموال أهل الدعوة ، وما اطعمتكم منها عشاء ولا غذاء الا أنهم ربما أرادوا وجها فصرفته في غير الوجه الذي أرادوه .

ومن تواضعه ماذكر ياجر بن جعفر قال كنا في حلقة أبي عبد الله نقرأ عليه ، فكان العزابة أرادوا كنس الغار فكنس معهم الشيخ أبو عبد الله وجعل يرفع معنا الكناس على عاتقه فقال له يوما بعضنا وهو ينقل معنـا : اقعـد ياشيخ فان العزابة يكفونك ، قال أو يحملون علي ذنبي ؟ فكان يرفع قليلا قليلا جهد طاقته ، فقلت له ارفع اذا أكثر من هذا ، فقال لو كان رأيك يؤخذ لأخذنا به آنفا ، وكان أبو الربيع اذا شبه الشيوخ وضرب بهم المثل قال انما مثل أبي عبد الله كما قـال : الله تعـالى « ولـوا الى قومهـم منذرين » (2)

وكان أبو عبد الله اذا سئل عن احد فان علم به خـيرا قاله ، وان علم غيره سكت ، وتوفي رحمه اللـه سنـة 440 اربعين واربعمائة ودفن في مقبرة بمقربة غاره في اجلو وهو موضع معروف بالبركة (1) .

---

(2) يعني آية سورة الاحقاف ، واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القـرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين

(1) لا زال قبره رحمه الله معروفا الى الآن في مسجد بقرية بلدة عمرو بـدائرة تيقورت ، وهو مشهور عند الاهالي باسـم سيدي محمد السائح ، والى هذا الوصف تنسب ذريته في الناحية حسب ما افادني به بعض الشيوخ الافاضل

أبو يحيى زكرياء، وأبو القاسم يونس

ومنهم الشيخان أبو يحيى زكرياء وأبو القاسم يونس بن أبي زكريا. فصيل بن أبي مسور اليراسني رحمهما الله ورضي عنهم اجمعين لما علم الشيخ أبو عمار نجابة هذين الشيخين وتصرفهما في فنون المسائل، وسبقهما في حلبة الفضائل، اثبتهما في طبقة شيخهما الذى قرآ عليه، واستمدا في رواية العلوم اليه، لعلمه بانهما لم يقصرا عن مداه، ولازاغا عن هداه، بل الكل فرسان حلبة وكلهم سابق، والساعي في اثرهم لاحق او متلاحق، ولكل واحد من هذين الشيخين مزايا، وسجايا يالها من سجايا، جود كالسحاب، ودعاء كالشهاب، وحسن سلوك الطريقة، وحفظ العلوم الحقيقية، والتمسك من عرى التقوى بالاسباب الوثيقة، وما عسى يقال في هذين الشيخين وهما فرعا تلك الجرثومة، والناميان في اكرم ارومة، فطاب منها الخبر والمخبر، وكيف لا والاب فصيل والجد أبو مسور وقد تقدم في أول الكتاب من فضائلهما فصول، كلها فضل وما عداها فضول.

حكم طهارة ما صنع من نبات الارض

ذكر أبو الربيع ان أبا زكرياء يحيى بن كرنان قدم الى ناحية طرابلس زائرا، وكان بها زكرياء بن فصيل فاجتمع الناس يوما على ابن كرنان يسألونه عن امر دينهم وذلك في مجلس محفل عظيم. وكان ممن حضر هذا المجلس زكرياء بن فصيل، فسأل ابن كرنان سائل عما يعمل من نبات الارض كالحصير وما اشبهها هل تطهره الشمس اذا اصابتها نجاسة؟ فقال نعم تطهره الشمس، فقال أبو زكرياء:

ليس هـذا الجواب مـن المعمول بـه يا شيـخ ، كانه لم يرض بهذا الجواب ، فقال ابن كرنان بل المعمول بـه وكرر صحته وكرر ابن ابى زكرياء المنع، فقال ابن كرنان فان الذى يقـال فى أولاد الشيـوخ انهم غـير منقادين صحيح ؟ فقال ابن ابى زكرياء هل علمـت ان عقبـة المستجاب (1) قال لاولاده : اياكم والمرخصين لئلا تفارقوا دينكم وانتم لا تشعرون .

الخوة تصل الى حد الدلالة والتدلل

وذكروا ان ابا القاسم يونس بن ابى زكرياء وابا نوح صالح قدما على ابىمحمد عبد الله بن مانوج زائرين له،فلما اديا حق الزيارة وانفصلا عـن موضعـه متوجهـين الى موضعهما مرا بشجر تفاح قد أينع ثمره واحمر ، والشجر لأبى محمد ، فقال له ابو نوح الم ترها يا يونس حمراء ؟ وكانا راكبين ، فنزل ابو القاسم وخلع ما كان فى رجليـه وجعل يمشى فى رمل هنالك ، واكثر المشى فى موضـع يتيسر فيه بيان الاثر لئلا يقع الشك فى غيره ، فعمـد الى الاغصان واجتنى من ثمارها ما رأى فيه كفاية ، ودفع الى ابى نوح فرد أبو نوح بعضه الى ابى القاسم ، وسارا الى أهليهما ، فجاء ابو محمد فقال : هـذا اثـر ابى القاسم ، وهذه منه دلالة لم يستبدل عندى ، ولم يزل مثله يدل فى مال اخيه له ولغيره ، وذلك يثبت المودة بينهما فقد حكى عن ابى عبد الله رحمه الله ، انه قال من كان له اخ كاخى حاجب فليأكل وليرفع .

وكان ابو القاسم ممن يزور ابا محمد عبد الله بـن مانوج فزاره مرة فتواردا ما يرد بين امثالهما ، فقال ابو القاسم لابى محمد ان وكيلك على الحج قد اخذ واخذنا معه

(1) فى نسخة ـ ب ـ عقبة المستجابة

فان اذنت لنا ان ننظر اليك شيئا تستعين به فعلت، فنظر له خمسا وعشرين دينارا ليدخرها لقضاء فريضة الحج ، واراد ان يحدب عليه فلم يقبله ، واستحسن أبو محمد ايثاره على نفسه ، وذلك لحسن ظنه ولا عجب فى مثلها من مثلهما رحمة الله عليهما .

الشيوخ الثلاثة الكنوميون

ومنهم الشيوخ الثلاثة ابو عبد الله محمد بن سودرين وابو محمد عبد الله بن زورستن وميمون حمودى ابن زورستن الوسيانيون ، ثلاثتهم من أهل كنومة رحمهم الله كان هؤلاء النفر الثلاثة علماء زمانهم ، وفخرا لاخوانهم ، وطرازا لمكانهم ، درسوا علوم النظر وأتقنوها ، واحرزوا معانى الالفاظ بصيانة الكلام . ودونوها ، فلم يقدم حينئذ من المخالفين مجادل ، ولا نجم من خيالهم مناضل ، وهم لبنيان رتبة الحلقة دعائم ، وعندهم ابتدأت وقامت ، فكانو لها من القوائم بعد ان جالوا فى تحصيل العلوم وطلابها ، واخذوها كما يجب عن اربابها ، فكانوا بدورا بأفق تقيوس ، تميل بهيجة بهم النفوس .

ذكر ابو الربيع ان ابا محمد توجه الى ابى صالح فسار هو واصحابه حتى وصلوا وسط السبخة التى بين نفزاوة وقسطيلية فرأى ابو محمد فى السبخة شخصا اسود ، فحين رآه على بعدظن انه غراب ، فقال لأصحابه ما ذلك الشخص فيما تظنون ؟ فلما نظروا الى الشخص تسارعوا اليه ، فاذا الشخص أمة ، فضموها ورفعوها ، واظنها أبقت فذكر انه تكدر من اجلها خاطره وتنكر ، فلم يهنأ له عيش وحار فى وجه تخلصه من هذه الورطة ، فلما وصل جربة قصد أبا صالح الى المسجد ، قال : وحان وقت صلاة الظهر وحلقت

الشيخ يتحرج من تقديم معونة لآبق

الجماعة وناولوني كتابا ، فكنت اقرأ وأفسر حتى جاء أبو صالح وامسكت عن التفسير ، فقالوا له فسر فجعلت أقرأ الكتاب ، فقال لي بعض من في المجلس : فسر لنا ، وكان في المجلس ابو عمرو النميلي ولم اعرفه قبل ذلك ، قال فطفقت اقرأ فقالوا له فسر لنا يا شيخ فاحال ابو صالح على ابي عمرو النميلي ، فكنت اقرأ ويفسر فاصابني خجل لما فرط مني اذ تكلفت التفسير بمحضر منه ولم اعرف مكانه قال ابو محمد ثم سألت ابا صالح عن مسألتي ـ أعني ـ تلافي الامة وكنت السبب في تلافيها (I) واوضحت له المسألة ، طلبا ان يدلني على الخلاص فقال لي لا بأس عليك لانك لم ترد الا خيرا ، وما تعمدت اتلاف مال احد ولا اتلفته انت .

وذكر عن ابي محمد انه فتى ابي نوح المقرب من تلامذته ، صاحبه في اسفاره وكان له مواتيا موافقا ، كان المشهور من اسمائه ان يقال له فتى ابي نوح ، كيوشع بن نون وموسى عليه السلام، فذكر انه صحبه ذات مرة الى بني كطوف الذين حول تملي فألفاهم حين ظعنهم ، وتمادوا في رحيلهم ، فتبعهم الشيخ حين نزلوا ، فنزل الشيخ عن فرسه فارسلها في المرعى ، فلها أهل الحي في اشغالهم وغفلوا عن الشيخ حتى ضاق صدرا من قلة التفاتهم ، فقال لفتاه : اردد الي فرسي فان دين الله اعز من هذا ، قال الفتى : فقمت الى الفرس لازاوله واصلح هيئة ركوب الشيخ ، وعيني ترمي الى أهل الحي ، فرايتهم اجتمعوا بجمع يسيرون الى الشيخ مسلمين معتذرين ، فلما اقبلوا قدت الفرس واقبلت أمشي لمشيهم حتى التقينا عند الشيخ ،

دين الله اعز من هذا

(I) تحرج من ذلك لانها آبقة والعبد الآبق لا يؤوى ولا تقدم له المعونة

وصافحوه واعتذروا فقبل عذرهم ، ثم أني اخبرته بما كان مني من مماطلة وما اقتضته سياستي في ذلك فقال احسنت يابني ، وناهيك .

وذكر ان أبا نوح كان اذا سئل عن مسألة في الفقه يجاوب بان يقول روى فيهاهذا الفتى عن ابي صالح كيت وكيت ، ويشير الى ابي محمد عبد الله بن زوستن ، وعن ميمون بن حمودى قال كنت اقرأ على بعض شيوخي حتى ظننت اني قد استفدت ووعيت ما عنده من العلم ، حتى سمعته يوما يقول : رؤية المديان غريمه فيه تقاضي بعض دينه ، فلما قال ذلك ولم اسمعه قبل ذلك قلت : لا تدرك للعلوم غاية ، قلت : وهذا الكلام انما اخرجه فيما يلوح بخاطري ان المديانين انواع ، وطبائعهم تختلف ، فبعضهم اذا اراد الغريم تقاضي دينه منه تقاضاه بعنف واغلاظ ، هذا اذا علم فيه لددا ، وبعضهم يتقاضاه منه بكلام لين دون التقاضي الذي وصفته ، وبعضهم ينظر اليه الغريم نظرة يفهم منها التقاضي فتقوم عنده مقام مطالبة بابلغ قول واشد اقتضاء ، هذا اذا كان ممن يستحي ويتقي على عرضه ودينه، فالدين الذي يكون على من هذه صفته هو الذي عنى الشيخ ، وهذا مقصده ، والله اعلم ، لا انه استوفى بعض حقه ، والله اعلم .

للعزماء طبائع مختلفة

وذكر عن ابي يعقوب شيخ كان بنفوسة أمسنان ، انه كان مقصدا للمبتدئين فاذا انتظموا في حلقته علمهم السير وآداب الصالحين ، ثم ينقلهم الى محمد بن سودرين فيجرون قراءة القرآن ويتعلمون اللغة والاعراب ثم ينتقلون الى ابي عبد الله بن بكر فيعلمهم اصول الدين ، والفقه ، فكان العزابة في ذلك الزمان يشبهون الشيوخ الثلاثة بثلاث

تعاونهم على تخريج الطلاب في ثلاث مراحل

نجارين احدهم يحسن قطع الخشب من الشعراء ، والثانى يشقها وينشرها ، والثالث يركب الالواح ويسمرها فيما يصلح بين الادوات .

وعن ابى عبد الله محمد بن سودرين انه قال : بينما انا امشى فى بلاد الساحل اذ رأيت بابا مفتوحا ورأيت ناسا يدخلون ويخرجون فقصدت اليهم ودخلت ، فوجدت بيتا مفتوحا ، واذا برجل جالس فى دكان فكل من دخل ناوله الرجل دينارا ، فدخلت فناولنى الرجل دينارا ، فاخذته فسرت غير بعيد ثم راجعت نفسى لائما لها ، مقبحا لفعلى ، ثم رجعت اليه فقلت له ، انا على غير مذهبك ، فنظر الي متبسما وزادنى دينارا آخر ، الا ترى انه لم يقبل صلة من ظن انه مخالف حتى تحقق بتلك الزيادة انه اهل لصلته.

اختل الامن فى زمنهم حتى سقط فرض الحج

وذكر ان ابا يعقوب بن أبى عبد الله تذاكر يوما مع أبى محمد فبسط أبو محمد القول فى ذم الزمان وعدم الاخوان ، فقال له اكسب يا أخى من المال ما شئت ، فلا أرى الحج الا وقد سقط عنك لانقطاع السبيل ، وجور اهل هذا الزمان ، قلت وقد صدق رحمه الله فان فريضة الحج الاستطاعة ، فاذا انقطع السبيل فكان من الجور ما يجحف بالمسافر فى زاده فقد عدمت الاستطاعة ، وسقط فرض الحج . وميمون ابن حمودى هو الذى يروى عن هود بن محكم انه جاءه رجل من العزابة يستعين فى افكاك كتب له مرهونة عند رجل نكاري فى خمسة دنانير ، فدعا هود رجلا فقال له سر مع هذا الرجل الى احياء مزاتة فاعلمهم بما جاء به ، فأعلمهم وتسارع الرجال والنساء كل يجمع ما امكنه من دنانير ودراهم ، حتى اجتمع مال كثير ، فجاء به الى هود ، فقال له يا شيخ هذا ما فتح الله

تسـادع مـزاتة الى الخير ومساعدة اخوانهم

على يديك ، فانت اولى بـه واحوج اليـه لكثرة مـؤن من يقصدك ، فاخذ من ذلك كله خمسة دنانير وترك الباقى ، وزعموا انهم عند ما تداعوا لأعانة الرجل بسطوا بساطا وجعلوا يلقون فيه حتى كـاد يضيق عـن زيـادة ، حتى ناولوه وضموا اطرافه ، وناولوه معه ، فلا ادرى أميمونا أم هودا قال حينئذ : صدق الامام رضى الله عنه فى قوله المشهور بقيام هذا الدين باموال مزاتة (I) .

حكم اخذ الاجرة على تعـليم القـرآن

واجتمعت بوارجلان بالمسجد الكبير جماعة فيها اهل الدعوة منهم أبو عبد الله محمد بن بكـر وابن سودرين وابن زورستن وعبد الله المدونى فسألهم رجل عن مسئلة وهى، الاجرة هل توخذ على تعليم القرآن ام لا ؟ فتدافعوا السؤال بينهم ، فقال عبد الله المدونى اجب الرجل عـن مسئلته فقال له نعم توخذ الاجرة على تعليم القرآن ، فان لم توخذ عليه فعلى ماذا توخذ ؟ أعلى رعي البقر ؟ ! فسكت الفقهاء توقيرا له ، مع انه لم يحسن العبارة تأدبا منهـم وفضيلة ، قلت وهذا الجواب غير معروف بالمذهب ، والذى انكر من الاجارة على رعي البقر فهذه الاجارة لاخلاف فى جوازها ، وكان ينبغى ان يقول بما فى المذهب من جواز الاجرة على تعليم الادب والخط . وصناعة الكتابة وادواتها دون ان يكون للقرآن ثمن ، والعذر عنه رحمه الله كره ان يقول لا تجـوز فيكون ذلك ذريعـة الى تـرك التعليم فيفضى ذلك بالناس ان يكونوا اميين لا يعلمون الكتاب ، يقول : فاذا جاز لراعى البقر الاجـرة وهـو ياخذها على اصلاح احوال الدنيا فالذى ياخذها بسبب اصـلاح الآخرة أولى .

(I) راجع ذلك فى اول الكتاب فى الحديث عن امامة عبد الوهاب

أبو محمد عبد الله بن مانوج

ومنهم أبو محمد عبد الله بن مانوج اللمائى رحمه الله . احد من نظر (I) ، فابصر واستبصر ، وذكر حينا فتذكر تلافى الفوات بعد حين . واعتاض الاجهاد بما ضيع عدد سنين . واطمأن بعد الحزن الى السهولة ، وعالج ما يعالج الشاب وهو فى الكهولة ، يسر الله له الورود من منهل الوعظ الفاظا فارتوى ، وبادر ولم يتباطأ ، وجد ولم يثن عن طلب الخير عنانه ، ولا أزاح من الاجتهاد فكرته ولاجثمانه ، حتى أصبح من العلم مفعم الوعاء ، ومن القرب من ربه أهلا لاجابة الدعاء .

شيخ حكيم يوثر فى ابن مانوج ويوجهه

ذكر أبو الربيع ان أبا محمد عبد الله بن مانوج تاب بعد الكبر وسبب توبته انه لقي شيخا من لماية وهو يرعى غنما له ، فقال له الشيخ : اعلم ان غنما ترعاها اللحية هى خير الغنم ، وان لحية تتبع الغنم هى شر اللحا ، فوقعت التوبة فى نفسه فتاب . وطلع حينئذ الى المشائخ : أبي مسور ، وأبى صالح ، وأبى موسى عيسى بن السمح ، فمكث عندهم فى الجزيرة ما شاء الله ثم رجع الى أهله فلقى الشيخ المذكور فقال له : اعلم ان الجمال تبرك للحمل عليها ، ولكن تتفاضل فى تبليغ الاحمال ، فرجع الى المشائخ فمكث عندهم ما شاء الله ، ثم رجع فلقى الشيخ المذكور فقال الشيخ : اعلم ان الغدران كلها تاخذ الماء وانما التفاضل فيما يبقى فيها الماء ، فرجع ثالثة الى المشائخ فمكث عندهم ما شاء الله يقرأ العلم ، حتى تفقه. وهو أحد الفقهاء السبعة المشهورة نسبتهم الى غار أمجماج (2) .

(I) فى نسخة (أ) احد من بصر فابصر بالبناء للمجهول ، وهو انسب لما سيذكره بعد

(2) سياتى الحديث عنهم فيما بعد

اخبار عن قناعة الشيخ وجوده

ومما يذكر من قناعة وقلة تعلقه بعلائق الدنيا ما ذكر أبو الربيع ان عبد الله بن مانوج لم يستسلف من احد شيئا قط غير دينار واحد ، استسلفه مرة ورده بعينه الى الذى استسلفه منه ، وليس منه هذا استغناء بل رضى بما قسم الله له . قال ، ومع قلة ماله فان ضيافته لا تزال حفيلة لا فضل عليها لضيافة ذوى اليسار ، ومن ذلك ما ذكر أبو الربيع ان راعى غنم أبى محمد بن مانوج قدم عليه فسأله عن حال الغنم فقال : هى صالحة الحال . وان وهب الله لها العافية الى قابل فستكمل مائة ، فقال أبو محمد لا أحب ان تكون مائة ، كما لا أحب ان أكون يهوديا .

ومن اجتهاده ما ذكر انه لما كبر وضعفت قواه وكان أعمش وكان يضر بعينيه مرور الماء عليهما ، فكان اذا وجب عليه الاغتسال غسل جسده كله الا وجهه ، واذا توضأ امر الماء على اعضاء وضوئه الا وجهه ، ويتيمم فى كلا الامرين فى مقابلة غسل الوجه ، فكان دأبه على ذلك ، يتخذ مستحما فى كل ناحية من نواحى خيمته الاربع بسبب الرياح ، فقيل له فهلا اكتفيت بالتيمم ؟ فقال تلك مسئلة «العجزانين» لا آخذ بها .

تحرج الشيخ من الاموال المجهولة

وذكر انه زاره مرة أبو عمران موسى بن زكرياء فتذاكرا فى أنواع من الفوائد ، وصنوف من العلم ، حتى افضت بهم المذاكرة الى ذم الزمان ، وما صار الناس اليه من ضيق الحال ، والتحرج مما يدخل على الناس ، وهم لا يعلمون او يعلمون ، فقال احدهما للآخر اكثر ما عاش الناس،عليه اليوم حمل الاشياء على احسن وجهها . وقال الآخر انما ينبغى ان يرتكب ذلك فى احوال الطهارة

والنجاسة ، واما في اموال الناس فلا ، واستحسن الآخر ما أتى بـه .

وسئل عن العبادة ما هي ؟ فقال : النية والاخلاص لا ما يتخيلونه من الاجتهاد في القراءة وغيرها ، اذا لم يصحب ذلك تقوى الله . الا ترون ان داود يقيم الفتن ويقعدها وهو يحفظ ما بين الدفتين واكثر ، قصده في ذلك ما يقدم به ابنه عما هو ليس بسبيله ، وكان ينهى بنيه عن معاضدة داود ومساعدته ، خوفا ان يصيبهم ما أصابه ، ولم يزل متكدر النفس من أجله ، لسلوكه غير طريقة ابيه ، حتى عادت عليه بركته ، فالهمه الله الرشاد وتاب عما كان عليه ، وحسنت توبته بهمة الشيخ .

العبادة هي التقوى والاخلاص

وذكر الشيخ ماكسن بن الخير قال لما توجهت الى جربة برسم الطلب كان طريقي على الشيخ أبي محمد عبد الله فاستشرته في أي فن أبتدئ فيه القراءة ، الكلام ام الفروع ؟ فقال : يا بني اقرأ كليهما ، فقلت : ارأيت ان كان ذهني يقصر عن ذلك ؟ قال : فدينك اذا يا بني يشير الى علم الفروع ، والله اعلم .

وذكر ان عبود بن منار زار ذات مرة أبا محمد ، فقال له يا عبود انك لعظيم القدر عندي ، فكيف حالك يا عبود ؟ فقال بخير يا شيخ ، الا انه علي ديون ، قال له أيكون عليك الدين وتزورني ؟ ابعد عني يا عبود ، فانفصل عنه واتى الى موضعه فقال لعلي بن يخلف اخي سليمان الفقيه بادرني يا علي بما يخلصني من هذا ، فاتاه بمن اشترى منه قطعة غنم وعبدا ، أو مطمورة شعير ، فقضى دينه ، فبعد ذلك بايام اغارت عليه غارة للنكار

لا يرضى منه ان يزوره وعليه دين

خرج بها رجل منهم يعرف بمنصور بن فلديك يلقبونه فى «زريق» فدافع عبود عن نفسه وماله واهله ، حتى قتل شهيدا ، فكانت زيارته لابى محمد فضلا من الله ونعمة . قيل فرآه بعض اهل الصلاح فى منامه فقال مضيت وتركتنا يا عمى ، فقال لا تقل ذلك فانى تركت فيكم سليمان بن يخلف نذيرا بعدى .

وصية لعمروس الزواغى

وزاره مرة عمروس بن عبد الله الزواغى فسأله عن حاله فاعلمه انه صالح الحال ، فكان مما قال له يا عمروس اجعل تقوى الله جنة فانها خير جنة ، وأحسن معاشرتك للناس ، فقال له أى الناس ؟ فقال أحسنت ، وفهمت ، الناس هم الصالحون .

يختار ان يترك الناس قبل ان يتركوه

قال أبو الربيع كان أبو محمد يقول بعد ما كبران من العلماء من يقول ان العالم اذا أحس بعقله ضعفا لعلة أو لكبر فلا يجوز له ان يفتي ، وانا آخذ بهذا القول وأترك الناس قبل ان يتركونى ، وكان قد اخر الله فى اجله فلم يعرض نفسه لما يجر عليه نقصا .

أبو جعفر احمد بن خيران

ومنهم أبو جعفر احمد بن خيران الوسيانى ، رحمه الله ذو الاجتهاد العظيم ، والتشمير والتصميم ، الثابت على الورع وملازمة المنهاج القويم ، العامل بما يرجو فيه خلاصه ، المؤثر على نفسه ولو كانت به خصاصة ، ليس بكثير في العلم ، ولكنه حاز من التقوى الخلاصة . كان أبو عبد الله محمد بن بكر يقول لاهل الدعوة من اهل قسطيلية : قطع عذركم أحمد بن خيران ان زعمتم انكم

قطع عذركم يا اهل قسطالية احمد بن خيران

مقلون فكذلك هو ، وان زعمتم انكم مسلك ومسكنكم فى بلاد قائمة الاسواق ، فكذلك هو .

اهتمام الشيخ بالضيف وابن السبيل

وكان من عادته تأخير العشاء الى صلاة العتمة فاذا صلى نادى في المسجد « أهاهنا ضيف ؟ ألا لا يبيتن احد دون عشاء ، ثم لا يفته ذلك حتى ينتظر انصراف النـاس ، فاذا انصرفوا طاف على زوايا المسجد بعكازه يفتش هل من طارق ؟ هل من ابن السبيل .

وذكر عنه انه دفع لجنان جنته فى ابان الزراعة زريعة على أنه يزرعها ، فكان اذا اتى من الجنة يسأله كيف حال الزراعة ؟ فيقول : بخير يا عمى ابا جعفر ، فلما كان يوما من الايام وقد فات وقت الزراعة خرج ليرى زرعه فلـم يجد شيئا ، فقال للجنان : ما هذا يا فلان ! ! فتلقاه بكلام مغضب قبيح، فقال له يا عمى يا ابا جعفر اتظن انىازرع لك الزريعة ويموت أولادى جوعا ؟ فخرج وهـــو يقول سلاما سلاما امتثالا لقوله تعالى : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » فلم يسمع منه الجنان ما يسوءه .

سماحة الشيخ وسعة صدره

قال ابو الربيع سليمان بن يخلفمررت انا وخالى عبود بن منار بابى جعفر ، فاخرج من جيبه صريرة فيها دراهم فقال : خذا هذه الصريرة فاذهبا بها الى السوق واشتريا بها خبزا نقيا لغذائكما ، فقلنا : لا انا قد تغذينا واكتفينا ودعونا له، فقال الحمد لله رب العالمين ، ثم اعاد الصريرة الى جيبه .

أبو الخطاب عبد السلام

ومنهم أبـــو الخطاب عبـد السـلام بن منصور بـن ابى وزجون المزاتى رحمه الله ممن انتفع بكثرة الاجتهاد

وانتفع به كثير من العباد ، احد نجباء تلامذة ابن زنغيل والحادى حدوده فى كثير من الفعل والقيل ، وكان احد من رتب الحلقة وابتدأ الاساس ، واحكم لها الامراس وهجر الاهل رغبة فى العلم والدين ، وخدم الهدى فكان من المهتدين .

ذكر ان عبد السلام كان مع التلامذة بكنومة فى أيام ابتداء ترتيب الحلقة على أبى عبد الله ، فكان يتحرى مجالسة الصلاّح ، وينتهز الفرصة اينما سنحت ، حتى عرفت له هذه الشنشنة ، وتناقلها عنه ألسنة ، وكان بها الشيخ ابو محمد يوجين اليفرنى ، فقال له : يا عبد السلام ، يا بنى ، اريد ان يكون رقادك فى موضع اعرفه ليتأتى فيه ايقاظك عند خروجى الى الوضوء فكان عبد السلام يطيل القعود فى المجلس للقراءة ، فاذا قام من المجلس ذهب الى الموضع الذى يعتاده فيه الشيخ ، فاذا نام قليلا جاءه الشيخ فايقظه ، فيقول له يا عبد السلام يا بنى : انما نال الصالحون ما نالوا بتركاللذات ، والنوم من اللذات .

انما نال الصالحون ما نالوا بترك اللذات

قال فلما ارتحل الشيخ ابو عبد الله باهله وتلامذته الى ريغ قال لعبد السلام ، يا عبد السلام كن معى ، فان من يقصده الناس بحاجاتهم كمن دخل فى الحرب ، لاغنىٰ له عمن يؤيده ، ويرعاه ، ويرفده ، ويداوى جراحه ، ويسد خلله ، والا كان هلاكه وشيكا ، فاجابه الى ذلك ، وانكحه ابنة ابى القاسم ، فمكث بذلك ما شاء الله .

مؤازرة الشيخ للامام ابى عبد الله

ثم سار الى عشيرته زائرا فلما وصل اليهم ، قالوا له ان كنت تتركنا فانا لا نتركك ، فكن معنا كما كان أبوك

محمد بن بكر يهجر اهله ويقيم بينهم ليحيى الدين

لتحيى ما كان احياه من الدين ، والا كنت مسؤولا عنا ،
واعلم انه لاغنى لنا عنك ، فاجاب رغبتهم ، واعتقد المقام
فيهم ، فانكحوه زينب بنت ابى الحسن ، واقام حينا ثـــم
انحدر الى اريغ واستصحب ما يتسر من صداق بنت ابى
القاسم ، فقدم على الشيخ ابى عبد الله واعلمه بما كان
من رغبة قومه فيه ، وانه قد قضى الله بفراق ابنة الشيخ
وقد جئت بما امكن من صداقها ، والباقى ان شاء اللـــه
أوفيه ، فاخبر ابو عبد الله ابا القاسم فقال ، معاذ الله ان
نأخذ من عبد السلام عرضا من اعراض الدنيا وانما جمع
بيننا وبينه الدين والتقوى ، لا الطمع فيما نناله منـــه ،
اشهدوا انى قد تحملت جميع ما وجب لها عليه ، وتركته
له ، فلم يقنعه ذلك حتى ابرأته المرأة من نفسها ، مـــن
جميع ما كان لها عليه من صداق ، فلما تخلص بعضهمـا
من بعض قال له الشيخ يا عبد السلام ما حصلت ؟ كأنـــه
يشير عليه بالاقامة معه ، فلم يمكنه ذلك ، فرجع الى أهله
واقام فيهم حتى ارتحلت زناتة الى طرابلس ، وارتحلـت
معه مزاتة ، فكان عبد السلام معهم مدة اقامتهم ، فلمـا
انقلبوا الى افريقية قصد عبد السلام الى جبل نفوســـة
فاقام هنالك حينا ثم سافر الى المشرق للحج فقضى الفريضة
فلما رجع انتقل الى قسطالية فسكن قلعة بنى درجـــين ،
فكان فيها مرفها .

وكان حينئذ كثيرا ما يقول لزينب : يوشك ان يغلـب
بنو العلم على بناتك يا زينب ، تعرض لهـــا بالنظـر الى
زوجة ليهب الله له منها ولدا ذكرا وكان حينئذ كثير البنات
فجرى من قدر الله ان وقعت مجاعة فى بـــلاد طرابلس
وسنة شديدة ، تسمى سنة فرورار سنة ثلاثين واربعمائة

فانجلى اهل طرابلس فى الآفاق ، ووقع رجل من ورغمة فى قلعة بنى درجين ، فنزل الورغمى فى جيرة دار عبد السلام ، ومعه عياله وله ابنة ، فاستحسنت زينب صورة بنت الورغمى ، فخطبتها على بعلها ، فتزوجها ، وسكنوا معه فى دار واحدة، فطلع هو وزوجته الى افريقية، ووصلا الى مزاتة ففى مغيبهما نزل عسكر لصنهاجة على قلعة بنى درجين فحاصرها حصارا شديدا ، وذلك سنة اربعين واربعمائة ، فلما اشتد عليهم الحصار ولا صريخ لهم خرجوا عليهم خروج رجل واحد يقاتلون ، حتى قتلوا عن آخرهم ، واستبيح ما فى القلعة ، وهدمت ، فخرجت امرأة ابن ابى وازجون معها بناتها ، وجعلت تنادى يا آل مزاتة فسمع دعوتها رجلان من العسكر فحاطاها وبناتها حتى تخلصن ولم ينكشفن ، فقدم عبد السلام فوجد احوالا لم يستقر له معها قرار ، فاجمع على الارتحال الى سوف ، فتسامعت به بنو ورتيزلن فسارعوا اليه بالحمولات ، وارتحلوا به الى اجلو ، فمنحوه ارضا عظيمة فعمرها .

انتقال الشيخ الى اجلو بعد فتن وقحط فى طرابلس

محاصرة قلعة بنى درجين وتهديمها

وولد له من الورغمية ولد فسماه سعيدا، فلما بشر به قال : ولد الشيخ يتيم ، انما قال ذلك شفقة ورقة أو لعله كوشف له بابن سيكون يتيما ، ويمكن ان يكون قال ذلك لئلا يظهر عليه الاشر ، لانه سر به سرورا عظيما ، ومن هذا المولود تنوسلت ذرية هذا الشيخ .

وكان حين قدومه اريغ وجد ابا عبد الله محمد بن بكر فى آخر ايامه ، فزاره عند احتضاره فوجده فى السياق فجعل يتأسف ويظهر الجزع لفراقه ، فقال له رحمه الله : يا اخى اقصر عن هذا ، ولكن الدعاء الدعاء ، فصار يكررها حتى قبض رحمه الله .

حزن الشيخ على موت الامام محمد بن بكر

وكان عبد السلام يقول بعد موت ابى عبد الله ، انما مثلى كمثل رجل يسير فى يوم شديد الحر ، فبينما هو يمشى اذ وقعت له شجرة عظيمة فقصدها جاريا ليتفيأ ظلها ، ويتقى بها حر الشمس ، فلما وصل اليها اقتطعت فازيلت فبقى ضاحيا .

وذكر ان عبد السلام اشترى بافريقية خرافا من السوق فلما استوجبها وجاء بائعها ليقبض الثمن قال له : (ارا) ومعنى هذه الكلمة بلغة صنهاجة : هات ، فغلب على ظنه انه صنهاجى ، فدفع له ثمن الخرفان ثم تصدق بها ، ولم يستجز اقتناء غنم غلب على ظنه انه اشتراها من صنهاجى (1) .

وذكر ابو نوح ، ان اهل امسنان سألوا عبد السلام عن رجل زنى بامرأة وأقر على نفسه بالزنا ، ما الحكم الذى يجرونه عليه ؟ فقال ادخلوه المزبلة وارجموه ، ففعلوا ، فلما فرغوا عنه ، وحضرت صلاة الجمعة صلى ركعتين بخطبة ، ثم قال ان الكتمان يأخذ من الظهور ، والظهور لا يأخذ من نفوذه فتدخل احكام الظهور حينئذ فى ايام الكتمان ، يعنون أهل الظهور لا ينبغى لهم ان يدخلوا تقية فى شىء من الاحكام التى تلزم أهل الظهور ، ففعلوا ما لا يحل فعله الا فى الكتمان ، والكتمان حينئذ لا تدخل احكامه فى الظهور (1) .

---

(1) مما يذكره المؤرخون ان قبائل صنهاجة هى التى ايدت أمراء العبيديين وخلفائهم بشمال افريقيا . كآل زيرى وآل حماد ، وكانوا لا يتورعون من مصادرة الاموال ونهبها وسلب من يرونه يستحق ذلك عن حق او باطل ، ولو كان مسلما ، فلذلك تورع الشيخ رحمه الله من التعامل مع الصنهاجى .

(1) صلى الشيخ ظهر يوم الجمعة ركعتى (اى صلاة جمعة) لان الاباضية لا يوجبون صلاة الجمعة الا مع الخليفة العادل الذى يقيم الاحكام الاسلامية ، ويعتبرون صلاة الجمعة من جملة مظاهر الدولة المسلمة المرتبطة باحكام الاسلام ، هذا رأى القدامى منهم .

الشيخ أبو عمران المزاتى

ومنهم ابو عمـران موسى بن زكرياء المزاتى رحمـه الله ، رأس من رؤوس المذهب واعلم علمائه ، وشمس من شموسه الكاشفة لظلمائه ، العلم والادب حليته ، والكرم والصبر سجيته ، شيمته تفوق الشيم ، أدرك المشائـخ وروى عنهم العلوم والآثار ، وسادت تلامذته فكل منهـم منير فى الدين ومنار ، وله كرامات مذكورة ، وبركـات مشهورة . ولنذكر معه هاهنا اهل غار امجاج السبعـة اذ كان رأسهم على ان منهم حينئذ الشيوخ والشبان ، لكنهـم لما ضمهم مضمار واحد . جرى ذكرهـم هنـا فى نسـق ، وأجروا فى ميدان ، ولجميعهم فضيلة فى هذا الفن وشأن من الشأن .

المشائخ السبعة و تاليفهم للديوان

وهم ابو عمران موسى بن زكرياء هذا ، وجابر بـن سدرمام ، وكباب بن مصلح ، وابو جبير المزاتى ، وابـو عمرو النميلى ، وعبد الله بن مانوج اللمائى ، وقد تقدم ذكرهما ، وأبو يحيى زكرياء ، بن جرنان النفوسى رحمهم الله ، وسبب نسبتهم الى غار امجاج انهم اجتمعوا بـه ، وصنفوا تصنيفا فى الفقه مشهورا . فى اثنى عشر جزءا ، فتولى نسخه ابو عمران لما خصه الله من جودة الخط ، فنسب اليه التصنيف ، وليس له ما عليهم فضل سوى فضل البنان والا فهو كأحدهم فى فضل البنيان ، شريكا فيما أودعـوه شركة عنان ، ذكروا ان ابا عمران رأى فى منامه ان يـده صارت مصباحا فقص رؤياه على معبر الرؤيا ، الماهر فى تاويل الرؤيا ، فقال له هذا رجل يحيى دين الله بيـده ، فلم يبعـد .

يتاسف عـلى ثلاثة فاتته

وقال ابو محمد لا اندم على شيء فاتني من الدنيا كندمي على ثلاثة اشياء لتركي اياها قراءة كتاب الجهالات ، وزيارة أهل الدعوة ، ومجالسة ابي عمران سافر مرة زائرا لاهل الدعوة فاجتاز بقسطيلية ، فنزل عند ابي جعفر احمد بن خيران ، فقال له ابو جعفر هلم بنا الى زيارة الغاية زوجة الشيخ ابي القاسم ، ففعلا ، فلما دخلا اليها وسألا عـــن احوالها سألتهما عن نازلة نزلت بها وخصصت ابا عمران بالسؤال ، فقالت له ما تقول في امرأة صحبت النســاء الى الوادي فنزلت في الماء في ثيابها وجعلت على رأسها سترة ؟ فقال لها أيما امرأة نزلت في الوادي مكشوفة فانها ستقوم في سبعة أودية من نار جهنم ، قال فتغير لونها لما سمعــت ذلك ، فقالت له هل من رخصة ؟ فقال لها اذا كان ما ذكرت من السترة فانه اشبه شيء واقرب الى السلامة ، ثم قلــب عليها السؤال فقال لها ما تقولين انت فقالت نعــم هكــذا سمعته من سعيد بن يونس .

وذكر ان ابا نوح سعيد ابن يخلف قدم الى وارجــلان فجلس في مسجــد « تماواط » فــرأى رجــالا يغتسلون ويتوضأون من ساقيتها ويطلعون الى المسجد حفاة ، يطأون في الطين ، فانتهرهم ونهاهم عن ذلك ، وقال أرى ان الذي يقوله الناس حق : ان اهل وارجلان سيصيرون مخالفــين للمذهب ، وانما حمله على هذا الكلام ما طبع عليه مـــن التحرج والتنزه فيما طهر ونجس ، حتى ان ثياب صلاتــه غير ثياب لباسه ويجعلها في خرج حسبما تقدم .

واجتمع بها في مجلس هو ، وابو نوح سعيد بن زنغيل فوقع بينهما كلام في مسألة امة اخذت في الصلاة مكشوفة الرأس فلما قضت بعض ركعات صلاتها ، اعتقها ربهـــا

فاتمت صلاتها كذلك ، فقال احدهما عليها اعادة الصلاة لان حكمها أخيرا غير حكمها أولا ، وقال الآخر ليس عليها اعادة لانها دخلت فى فعل عبادة على وجه جائز لها ، فبينما هما فى هذا الاختلاف اذ طلع عليهم الشيخ ابو عمران موسى بن زكرياء ، فلما رأياه قال احدهما للآخر اسكت فقد جاء من هو اعلم منى ومنك ، ثم سألاه عنها فاجاب بما وافق احدهما ، قلت هكذا حكى صاحب الكتاب مبهما ، والذى يغلب على الخاطر انه اجاب باسهل قوليهما وقياسا على غير هذا قلت والذى يظهر لى قول ثالث بين قوليهما وهو انها لا تخلو ان تكون عالمة بوقوع العتق عليها من سيدها ام لا تعلم حتى خرجت من الصلاة ، فان علمت وقد بقي عليها شيء من اركان صلاتها وتمت صلاتها مكشوفة الرأس فاولى والاصح اعادة الصلاة ، وان لم تعلم فاولى والاصح لا اعادة عليها ، فكيف ترى هذا الجواب ؟ .

حكم صلاة المراة مكشوفة الراس

وعن ابى محمد ان ابا عمران قال مرارا فى مجالس كثيرة تعلم حرف واحد من العربية كتعلم ثمانية مسألة فى علم الفروع ، وتعلم مسألة واحدة كعبادة ستين سنة ، ومن حمل كتابا الى بلد لم يكن فيه ذلك الكتاب فكانما حمل ألف حمل دقيقا ، وتصدق بها على اهل ذلك البلد ، وهكذا فى فضل العلم وطلبه .

فضل تعلم العلم و نشره

وذكر ان جابر بن سدرمام اضاف اضيافا ، فلما استدعاهم وكان ذلك بمحضر صاحب له يعرف بخليفة بن تزوراغت ، فرغب اليه جابر فى ان يصحبهم ، فامتنع فألح عليه ، فقال له : يعلم الله انى لا اصحبهم ، فقال له جابر أما الآن فان شئت فاصحب وان شئت فامكث ، فالكفارة قد وجبت ، قال الراوى وانما اوجبها لانه حتم فى شيء

لا يدرى ان يكون ام لا ، قلت : وهذا تشديد لانه لم يذكر شيئا من ألفاظ القسم .

أبو اسماعيل البصير

ومنهم أبو اسماعيل البصير ابراهيم بن ملال المزاتي رحمه الله شيخ عبادة وورع ، واجتهاد في معرفة ما فرض الله وشرع كثير الملازمة لزوايا المسجد ، لالتقاط الفوائد ، يغدو اليها ويروح كما يغدو الطير ثم لا يروح الا بطينا باستفادة كل خير ، وعنه يحكي ابو محمد ماكسن انه كان يعلمه في درب بني ميدول من بني راسين بتوزر ، وانه اكتسب فيها خمسمائة دينار ، وحفظ فيها خمسمائة كتاب ، واكل فيها خمسمائة رأس ضانية سوداء،وعنه يحكى ابو محمد ماكسن انه قال وقد آب من سفر لقد استفدت في سفرى هذا ثلاث مسائل ، فذكر المسائل التى يذكرها العزابة ويرددونها كثيرا ، وهى مسألة القراد المتعلق بالميت ، والطريق فى المقبرة ، ونخلة المقبرة ، وغار المقبرة ، وكذلك بئر المقبرة . فالقراد ان أثر يتيمم للميت ، وان لم يؤثر غسل قلت والغسل عندى على كل حال أولى ، والمسائل الاخرى يعطى الحكم للمتقدم منها ايهما كان .

لا يحل المبيت عند قوم اظهروا المظالم ، واعلنوا المناكر

وحكى عنه انه زار اهل الدعوة فاجتاز على بلاد اريغ وعلى كدية بني غمرة ، وهم قوم ظلمة ، فتاكون ، أهل فساد وغارات ، وفي المنزل قوم صالحون ، فرغبوا اليه بان يبيت عندهم ضيفا تلك الليلة ، فقال لا يحل المبيت عند قوم اظهروا المظالم، واعلنوا بالمناكر، فاذا قيل لهم انقادوا الى الحق لا ينقادون ، ولا يدعنون ، فتجاوزهم ونزل

« بتميرينت » فلم تكن الايام قلائل حتى نزل عليهم حماد بعسكره فاجلاهم ودمرهم تدميرا .

أبو محمد عبد الله بن الامير

ومنهم ابو محمد عبد الله بن الامير اللمائى رحمه الله . شعاره الدين والتقوى، مع صبر ورصانة تزرى على رضوى ومحافظة على السير والآثار ، والتحلى بالتواضع ، والتخلى عن الاستكبار ، اذا رفع عينه الى السماء ، فتحت له ابوابها لاستجابة الدعاء ، فكل من يعاشره يتقى عقوقه ، وكل من يعرفه يعرف فى الصغيرة والكبيرة حقوقه .

يفطر من صوم النافلة ارضاء لاخيه فى الله

ذكر أبو الربيع ان أبا محمد عبد الله بن الامير زار ابا محمد عبد الله بن مانوج ، ومع ابن الامير لحم مطبوخ ، وذلك في يوم جمعة، وابن مانوج حينئذ صائم فتناول واكل منه ، وذكر ابراهيم بن يوسف ان ذلك بعد الظهر ، لما علم ابن مانوج انه انما قصده به على جهة الود خشي ان يسخطه ويعقه ان امتنع من اكله ، فآثر رضاه على تتميم صوم هو فضيلة من الفضائل ، واعتقد ان رضى الشيخ لاحق بالفرائض .

وحكى ابراهيم بن ابراهيم ان ابا محمد كان يعظ لماية ويحذرهم ، ولقد قال لهم يوما فيما أورده عليهم (يا لماية) احذروا ان تؤاخذوا بذنوبكم ، ثم قال من فم أبى صالح الى اذنى ، الويل لى ان ظلمته ، سمعته يقول : السخطة تعم والرحمة تخص ، يهلك الصالح بذنب الطالح ، قال الله عز وجل (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) وقال (انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم) .

احذروا سخط الله فانه يعم

وقال : ابو الربيع جئت لزيارة عبد الله بن الامير فلم اجده فى منزله ، فأعلمت انه فى الاندر فقصدته ،

فوجدته فى جبة صوف وقد وضع كساءه، وهو يضم اطراف الاندر ، فلما رآنى تنحى الى كسائه فلبسه فلاقـــانى ، فصافحته ثم اقبل يعتذر كأنه أساء فى وضع الكساء، وقلت له وهل فى ذلك من بأس ؟ أليس هو العمل فى الحـــلال ؟ فقال نعم ولكن اين من يحسن العمل فى الحلال ؟ انمـــا يحسن ذلك ابو صالح ، فقلت وكيف كان عمله ، قال كان فى ايام الحصاد يحمل الزرع الى الأندر على ناقة له ، فاذا كان وقت صلاة الضحى اناخ ناقته وحط عنها حملها، ثم عقلها، وحل ازاره واخذ فى الصلاة ، حتى يصلى ما كان يصلى ذلــك ، ثم يرجع لناقته ، فهكذا العمل فى الحلال ، انما هو ما لم يضر بعمل الآخرة .

العمل فى الحـــلال فضيلة ما لم يضـــر بالآخـــرة

قال ابو الربيع وجه الي سليمان بن موسى شيئا، وامرنى ان اشترى به طرفا من المآكل ، والطافا فآتى بها الى عبد الله ابن الامير ليأكلها ، ففعلت من ذلك ما امكننى ، ثـــم توجهت اليه ، فمررت فى طريقى على كلأ خصيب وكنت على حمار لى ، فجمعت من ذلك لحمارى ما قدرت انه يكفيه ، فلما وصلت اليه قال لاولاده : اعلفوا حمار سليمـــان ، فقلت له يا شيخ انه ليس بحمار يعتاد العلف ، وقد جمعت له فى طريقى ما يكفيه ، فقال : هكذا جرت قصتى مـــع عبد الله بن مانوج ، جئته ذات مرة وانا على دابة وقـــد جمعت لها كلأ كثيرا ، فقال : اعلفوا دابة عبد الله ، فقلت له ما هو حمار علف ، فقال لا بل يعلف ، ولا بد من ذلك ، فان علف دابة الضيف يا عبد الله أهم من اطعام الضيف .

علف دابـــة الضيف من جملـــة اكرامه

وكان عبد الله بن الامير من امة سوداء وكان ذلك غالبا على لونه ، فذكر عنه انه صحب فى بعض تقلباته شيخـــا

يعرف بعزون ، فلما كان في بعض الطريق اراد عــزون تكليف ابا محمد احد الكلفات الكبار المستثقلة ، فلــم يساعده، فقال عزون معرضا لسواده لو كان العبد من ديباج لكانت اطرافه من تليس ، فقال ابو محمد يا عزون انفترق بعد هذا الطريق ولابد ؟ قال نعم ، قال تعال فاركــب على عاتقى .

أبو زكرياء يحيى بن ويجمن

ومنهم أبــو زكرياء يحيى بــن ويجمن الهــوارى رحمه الله . (1) الورع الزكى ، الفطن الذكى ، الدّيّــن النقى ، المقر بفهمه كل شاف قصى ، الكاشف بذكائه كل غامض خفى ، المذلل بسياسته كل عاص قسى ، المعترف بفضله البدوى والحضرى ، ان نطق جلا المبهم فى صورة جلي ، وان صمت فله معتبر فى كل شيء .

الناس في شأن علي بين الإفراط والتفريط

قال ابو عبد الله بن محمد قلت لابى زكرياء ما معنى قولــه عليه الســلام هلكت فيك فئتــان يا علي : محبــك ويغيضك المفرط ؟ فقال صدق عليه السلام ، اما محبــه المفرط ففرقة الشيعة الذين قالوا فيه مثل قول النصارى فى عيسى عليه السلام : انه نبيء ، وانه حى لا يمــوت ، وانه فى جبال رضوى ، وانه الاه ، وانه امام مطاع ، ومن عصاه فهو كافر ، وانه امام يجوز له تبديل الكتاب والسنة ونسخهما ، وانه اولى من ابى بكر وعمر ، وانه وصى ، وان الامــة ارتــدت اذ لم يولوه . واما بغيضــه المفــرط فاصناف الصفرية الذين اتفقوا على ان كل معصية شرك ، وقال قوم كل كبيرة شرك ، فجعلوه مشركا لانه حكم الضالين وقتل المسلمين ، فافهم ذلك .

(1) اثبته صاحب السير باسم يحيى بن وجمن

وقال ابو محمد كنا في اجلو فجلسنا يوما للمذاكرة ، وكان رجل عزابي يقرأ آثار الربيع عن ضمام عن جابر رواية عبد الله بن صفرة ، قلت وكنت افسر بلسان البربرية ما يقرأه القارىء ، فكنت كلما قرأ سند أثر من اثاره تجاوزت السند فلم اتكلم عليه وتركته الى ان يصل الحديث ، او الاثر ، فاتكلم عليه فسمعنا ابو زكرياء ـ وكان في ناحية ـ قال : مالك لا تذكر ايمتك ؟ فعدت اذكر كلما قرأ فاقول : روى ابو صفرة عن الربيع عن ضمام عن جابر .

الشيخ يابى عليه ان يذكر الحديث بدون سنده

وقال ابو محمد كنت اذا سألت ماكسن عن مسألة عويصة توقف فيها ، وقال : دعها الآن حتى نسأل عنها صاحب الغوامض ابا زكرياء يحي .

وقال ابو محمد اجتمع الشيوخ ذات مرة في مسجد الشيخ يكنول بن الطويل في تمولست ، وكان الاختلاف بين جماعة «تين وال» وأرادوا ان يصلحوا ذات بينهم وكانوا يقرأون كتابا فمروا في الكتاب، على خبر وهو : « ان رجلا كان في زمن موسى عليه السلام وكان للرجل حمار ، فقال يا رب لو كان لك حمار لعلفته مع حماري ، وربطته مع حماري، فهم به موسى عليه السلام فاوحى الله اليه : يا موسى ذلك مبلغ عقل عبدي فتركه موسى عليه السلام.» واجتمعت باثر ذلك جماعة «تين وال» فجعل الشيوخ يعاتبون رجلا يلي الامر ، يقال له أيوب بن حمو ، فقال لهم ابو زكرياء : اتركوا عنكم البله الذين تمتلىء بهم الجنة ، يعني ـ الآثر المروي ـ ألا ترون قصة صاحب الحمار ؟ دعونا من هؤلاء ، وهلموا لمن يثقب الخرزة بكيسه ، مثل ياتياسن ين حمو فجاءوه ولحوه ، حتى تابوا واصطلحوا .

يحاسب الله العبد على مبلغ عقله

وذكروا ان أبا زكرياء يحيى بن ويجمن رأى ليلة القدر في مصلى المسجد ، عند موضع المحراب الذى يلى الحائط القبلي من مسجد أجلو ، فبنوا محرابا ملصقا الى جدار قبلة المصلى ، في دار يحيى بن ويجمن وهو اليوم هنالك معروف مما يلي الجانب الغربى ، وهو من المواضع المزورة المعروفة بالبركة .

الشيخ يحبس الاب ليؤدى دينه على ابنه

وذكروا ان رجلا ممن ينسب الى الديانة كان لابنه عليه دين . فماطله فدعاه الى المشائخ باجلو وفيهم يحيى بن ويجمن وغيره من جماعة عزابة اجلو ، فجبروا الاب على الدفع وحبسوه وجعلوه في الخطة ، واعلموه انه لا يبرح حتى يقضى دين ابنه او يسرح الابن سبيله ، فسمع بذلك ماكسن ، وقدم من تين‌وال الى مشائخ اجلو ، فقال لهم علام يحبس الاب في مال ابنه ؟ فقال له ابو زكرياء يحيى بن ويجمن قد حكم بها أبو عبد الله بن بكر بوغلانة ، وحكم بها هنا في اجلو ونحن نحكم بها فلا يخرج من تلك الخطة حتى يؤدى ما عليه .

أبو عبد الله محمد بن سليمان

ومنهم ابو عبد الله محمد بن سليمان النفوسى رحمه الله ، جال في حلبة المتقين ، وجمع الله له بين الدنيا والدين فكان مرضى الحال موسعا عليه في المال ، فكان ينفق مما آتاه الله من سعة عطائه ، حتى انسى كل ذى سخاء بسخائه فانه يهب من كلتي الذخيرتين لا تغيب هباته ، ومهما بدرت أملا في بدره فطيب يخرج نباته ، يفيد العلم ويكسو ويمون ، فنيله مأمول ، وحرمانه مأمون ، يحنو على التلامذة حنو ابيهم ، ويقويهم دون قرابة ويجتبيهم .

الشيخ يعلم طلبته وينفق عليهم

ذكروا ان ابا عبد الله بن سليمان كانت عليه حلقة عظيمة ، يعلمهم ، ويطعمهم ويكسيهم من ماله ، وكان اذا اقبل الشتاء اشترى لهم اكسية جديدة فيها دفء فاذا اقبل الصيف اشترى لهم اكسية خفيفة برسم الصيف ، ويدخر الاخرى للشتاء ، وربما باعها بالثمن الذى اشتراها به ويخرج لهم كل يوم ما يقيم طعامهم وادامهم ، وقال ابو عمرو قال لى ابراهيم بن يرموز ـ وكان شيخا صالحا ـ : دعاني ابو عبد الله يوما فوجدته يلوت عمامته ويصلح نفسه ، فقلت له : ما هذا يا شيخ ؟ فقال عزمت على الوصول الى « شروس » فان لى فيها شجرة زيتونة مشرفة على السوق ، تضيع غلتها فلا انتفع منها بشىء ، فاردت بيعها . فقلت بكم تريد بيعها ؟ فقال : اذا وجدت عشرة دنانير فانا ابيعها ، قال ابراهيم فساعدته فاقبلنا ماشيين ، حتى وصلنا « شروس » فسيمت منه شجرته باربعين دينارا ، ثم صر الثمن فى عمامته صرارا متفرقة ، فلما وصلنا الى موضعه اخذ يفرق الدنانير على العزابة لكل واحد منهم دينارا او اقل ، او اكثر ودفع لى ستة دنانير ، ففرقها حتى لم يبق لنفسه غير عشرة دنانير ، فقلت له : ما هذا ؟ قال كنت نويت البيع بعشرة دنانير ، فكل ما زاد فهو لله لا أرى له فيه شيئا ، قال ابو عمر : سألت عن ذلك ابا العباس فقال ، ان من العلماء من يقول الفقراء احق بتلك الزيادة ، والذى فعله حسن جميل .

رايه فى الزواج والقتناء الحيوان

وكان ابو عبد الله يقول ثلاثة لا اراها الا فى بيت عدو الفرس فى رأسه مطحنة ، وفى تحته مزبلة ، والكلب ينبح فيسمع نباحه ، فيروع ولو مسلما واحدا ، وساق هنا خبرا قال : سرنا ذات مرة مع الشيخ ابى سليمان ايوب فى بعض

الطريق حتى نبحنا كلب من احدى الدور ، فذعر الشيخ . وقال ان دخلكم الروع مثل ما دخلنى فان صاحب الكلب لا يدخل الجنة ، والثالثة المرأة تفشى الاسرار وتهتك الاستار .

وروى انه لم يملك قط حيوانا ذا روح ولا تزوج قط ، فلما علت سنه قال لاصحابه ان أهلى وآبائى قد عرف من عادتهم انهم اذا كبروا اعترضتهم حبسة باللسان ، تؤذنهم بفراق الدنيا ، فاذا رايتم ذلك اصابنى فزوجونى امرأة تقوم بى فى مرضى ، فلما رأوا ذلك نزل به انكحوه امرأة قامت عليه فى مرضه حتى توفى رحمه الله ، قلت وفى هذه الحكاية مواضع تحتاج الى النظر منها : ما قال فى اقتناء الكلب ولعله علم انه كلب غير مباح الاقتناء ، وكونه لم يتزوج قط فقد حكى ذلك عن غيره من المؤمنين، والتزوج افضل الا ان علم من نفسه انه غير قائم بحقوق الزوجة ، وكونه لا يقتنى حيوانا ــ وقد قال عليه السلام ما من نبىء لا ورعى الغنم ــ لا يلزم منه ان نقول من يكتسب الحيوان مذموم ، بل ربما اراد راحة خاطره وتفرغ باله الى ما هو اوكد واولى ، وقوله : اذا رأيتم ذلك فزوجونى . نظرا لأمرين ، احدهما : ان المريض يصير الى حالة يحتاج فيها الى من يطلع على عورته، ويقلبه فى مضجعه، والثانى نظرا الى قوله عليه السلام:من مات عازبا مات شيطانا ، فاخذ بالظاهر واراد ان لا يموت عازبا . وهذا اذا صح هذا الحديث .

حكم التزوج فى مرض الموت

وكونه تزوج فى مرضه الذى مات فيه هو جائز عندنا خلافا لمن منعه اللهم الا اذا علم ان المريض انما قصد التزوج ليمنع ما لورثته من الميراث ، فهاهنا وافقناهم على منع

التزوج ، واما ان قصد به شيئا مما يقصد بالتزوج غير المحابات فلا يمنع .

الشيخ أبو مكدول الزنزفى

ومنهم أبو مكدول مطكو داسن الزنزفى رحمه الله . هذا الشيخ منسوب الى صلاح ، وزهد فى الدنيا واطراح ، ويعد فى الوعاظ والنصاح ، والداعين المرشدين الى سبيل الفلاح ، ويحكى عنه الحكم والامثال ، والاصابة فى الاقوال والافعال ، ان اكثر ما يروى عنه انما هو باللسان البربرى ، صادر عن صدر رحب ، وقلب جرىء ، وهو من كل غش برىء ذكر يحيى بن جعفر ان ابا القاسم يونس بن ابى زكرياء كتب الى ابى مكدول :

«بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم . الى ابى مكدول اطال الله بقاءه وادام عليه نعماءه .

اما بعد فانى سمعت ان جماعة من النكار طلعوا قبلكم ، فاياكم ، ثم اياكم ، ان يردوا ارضكم ولو للضيافة ، فان القوم اخدع الامة ، وانت ممن لا يحتاج الى ان يوصى ، والسلام!» فوقف عند ما حد له ، وكان أهلا لصد ما يخشاه منه من هذا الداء (1) وذكروا ان ابا محمد ماكسن ويخلف التميجارى اضافهما أبو مكدول فقدم لهما طعاما حفيلا ضيافة كاملة ، وعلى كمالها فانها دون قدرهما ، وقال حين قدمها لهم : كلوا فقد مات من يسلم فى نفسه ويسلم معه غيره ، فشكرا صنيعه ، وشكرهما حين رآهما شكرا ولم يذما ، وحمد هو الله على اقتران الشكرين ، وخطر بباله

(1) فى نسخة من هذا الدعاء

ان اللعنة مع الضيف مقرونة ، فاذا حمد وشكر وقابله المضيف بحمد الله وشكره وقعت على ابليس، لعنة الله عليه وان لام احدهما وضجر وقعت عليه ، وقد وقفت لابى مكدول على كلام كثير بالبرية لم احصل منه فائدة فاعلقها .

أبو موسى يزيد المزاتى

ومنهم ابو موسى يزيد المزاتى وابنه ضمام رحمهما الله ممن تمسك بالورع بحبل وثيق ، وسلك فى الصلاح أنهج طريق، واتقن مسائل الحلال والحرام ، واشهر نفسه بعلامة المجتهدين من الخدام ، وذللها وراضها حتى انقادت لموافقة أهل الاسلام ، وبث المعروف فى الاجانب وأولى الارحام ، وكان من افاضل تلامذة ابى خزر ، واخذ عنه الآثار والسير .

ذكر الشيخ ابو نوح صالح بن ابراهيم ان بلاد افريقية أصابتها سنة، فاشتدت احوال أهلها ، وعدموا القوت، حتى ضمت أهل البوادى وغيرهم الى بلاد الجريد ، فانتجعت مزاتة الى قابس ليمتاروا منها التمر بالدين والقرض فأتوا ضمام بن ابى موسى يدلون عليه بالقرابة والاخوة ، وهو حينئذ عند أهل قابس معروف ، وبالخير والصلاح موصوف فسألوه ان يستقرض لهم ، ويستدين ، ويتحمل عنهم ، واعلموه بما هم فيه من شدة الحال ، وان جاهه كفيل باستنقاذهم من الجوع ، فشاور والده فى ذلك واعلمه بما جاء به قومه ، وبما طلبوه، فقال له هل يعرفهم احد ؟ قال : لا ، قال : وانت ، هل يعرفك أهل قابس ويأمنونك ؟ قال نعم ، ولا يعرفون غيرى فقال له ابوه دخولك فى شيء يستنقذهم من الجوع اذا فرض من الفروض اللازمة ،

مساعدة الشيخ لقبائل مزاتة وانقاذهم

اذ كانوا ينتفعون بجاهك اكثر مما ينتفعون باموالهم ، فقضى مآربهم اجمعين .

وقال أبو نوح صدق أبو موسى ، وقد قيل : يسأل المرء عن فضل جاهه كما يسأل عن فضل ماله ، وقد قيل من تبرم بجاهه فقد تعرض لزواله ، قال فهو كقوله عليه السلام : «ان لله وجوها من خلقه يستخصهم بنعمته ما بذلوها لخلقه ، فاذا بخلوا بها بدلها الى غيرهم» فتحمل عنهم ضمام ، وانجز مآربهم ، فلما ايسروا قضوا ما عليهم الا اقلهم فقضاه عنهم ضمام ، وقد نسب اليه كلام فى ذم الحمالة

يسال المرء عن جاهه كما يسال عن ماله

ومنهم أبو يعقوب بن سهلون رحمه الله

العظيم القدر ، الكثير البر الغزير الحفظ فى فنونه ، المتحصن من كل روع بورعه ودينه ، لا تهوله الاهوال ، ولا يغتر بما يرى من حسن الحال .

ذكر يعقوب بن أبى القاسم انه وصل ذات مرة الى وارجلان ، قال : فرجعت ووجدت أبا عبد الله محمد بن بكر ، ومزين بن عبد الله عنده ، فقال لى أبو عبد الله : هل رأيت أبا يعقوب يوسف بن سهلون ؟ قال : فقلت لا فقال انظر يا مزين ! أولا تعجب لهذا الذى سافر الى وارجلان ولم يزر أبا يعقوب ، فعظم علي ذلك ، ورجعت الى أبى عبد الله فاخبرته بحال أبى يعقوب ، وذلك بعد ما اصيب فى لسانه ومنع الكلام ، وسبب ذلك ان مسألة شنيعة نزلت فى وارجلان فاجتمع لها كل من بها من وجوه العزابة ، ومن ينسب الى العلم والرأى ، وكان دأبهم فى ذلك الزمان اذا نزلت مسألة ان يجتمعوا من شأنهم

مصاب الشيخ فى لسانه وسبب ذلك فيما قيل

الاجتماع للتشاور في النوازل ، فاجتمعوا بالموضع المعروف بمنبر وارجلان ، فوضعوا المسألة ، وذلك : ان امراة ادعى تزويجها رجلان واتى كل واحد منهما ببينة على صحة التزوج ، فتراد الشيوخ المسألة حتى انتهت الى أبي يعقوب ، فقال حرمت على الاول ، والاخير ، ورجال الدنيا ، والآخرة الا ان تتوب فتحل لرجال الآخرة ، فقال رجل من بني ياجرين ، هاج الفحل فتفرقت الفصلان ، فاصابته عين ، فاحتبس لسانه حتى لا يستطيع كلاما .

كيف اعان الشيخ ابنه على بره

وكان أبو يعقوب كثير السياسة كثير الرفق وله ابن يسمى أيوب وكان اذا اراد ان يأمره بشيء اشار اشارة او ساقه في حكاية لئلا يغلق عليه الامر فيخالفه فيعق ، وكان اذا اشاره بشيء امتثله ، واتى به على حسب ما يرضيه ، ويجيء على وفقه ، حتى ضرب بهما المثل في بر الابن للاب والاب للابن ، فقالوا : «الاب كابي يعقوب والابن كايوب» .

وحكى الشيخ فلفول خلافا وقع بين ابى عبد الله بن بكر ، وبين الشيخ أبي يعقوب بن سهلون في مسئلة وهو : الرجل يقول فيمن يتولاه : هو مسلم عندى ، أو مسلم عند الله وعندى ، فقال أبو عبد الله لا يجوز الا ان يقول مسلم عندى ، وقال أبو يعقوب كلاهما جائز سواء ، لا فرق بينهما ، لانك اذا قلت عند الله فانك تعنى يعلم الله انه عندى مستحق لهذه المنزلة .

قلت اماما قاله أبو يعقوب في المرأة التى ادعاها بعلان انها لا تحل للاول ولا للاخير فتصح على اصل تحريم الزانية : وحرم ذلك على المومنين ، وهذه المرأة قد تعمدت

الحكم الشرعي في التي يدعيها رجلان انها زوجته

الزنا بادخالها بعلا فى عصمة آخر ، وهذا اذا كانا مقرين بالدخول ، وهى أيضا مقرة ، فان لم يكن اقرار بالدخول، ولم تقم به شبهة فلا تخلو البينتان ان تثبتا على تاريخ أحد النكاحين ام لا ، فان تثبتا فهى للاول ، وان لم تثبتا او احدهما فسخ النكاح ، ويتزوجها من شاءت منهما او من غيرهما .

كتابة عقود النكاح والطلاق تدفع الشك

ولاجل هذه الشنائع وامثالها تجدنى اتلهف واتاسف على شيء لو امكننى فعله والاشارة به ، هو . والله امر سهل ، رافع للالتباس ، كاشف لهذا البأس ، وهو والله مما ينبغى ان يسعى فيه اهل الخير ، وذلك : ان يؤذن فى كل جهة من الجهات على ايدى القضاة او عن رأى الجماعات بان لا يشهد فى النكاح خاصة أو فى النكاح والطلاق الارجال معلومون ، لا يعدوهم هذا الشأن ، يختارون اهل علم ودين ، وسنن ويستلزمون كتب التاريخ ولو لم يكتبوا غيره ، فكيف والكتاب فى جميع فصول النكاح والطلاق احوط ، فانه اذا كان على هذا الوجه كان قطعا لاشتراك ما لا يشترك ، ورفعا للالتباس ، والاختلاط فى الانساب ، والشك فى التوراث والعدد ، وفى الخبر : ان اولى ما احتيط عليه الفروج . واما ما اختلف فيه الشيخان فمسألة تضرب فى علم النحو بنصيب . وأرى أبا يعقوب فيها هو المصيب .

الطبقة العاشرة : 450 هـ ـ 500

منهم أبـو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي رحمه الله

الاصولى الفقيه ، الزكى النبيه ، أفنى فى الدراسة أيـام الشباب ، وفى حفظ كتب الفقه كتابا بعد كتاب ، حتى برز وبعدت عنه محائبه ، وظهرت بين النجباء نجائبه، ولما بانت فضيلته سبقت بين السوابق ، وحمدت منه الخلائق تصدر للتدريس ، وافادة كل جليس ، فاحيى الله به طرق الصلاح ، وفتح له أبواب الخيرات اى افتتاح ، وخرج من تلامذته كل نجيب، وقيد عنه كل جواب مصيب، وتصنيف عجيب .

يستهزئ بدعـوة الصالحين فيصاب بها

ذكر ابو عمار ان جماعة عزابة اجتازوا على قرية من قرى نفزاوة فاذاهم مقدمها رجـل يسمى « ابا على » ، فقالوا له : « احذر عقوق الوهبية » . فقال لهم ارغبـوا اليهم وقولوا لهم يدعوا علي ، فوصلوا جربة يوم جمعة ، فوجدوا الشيوخ قد اقبلوا اليها بجماعة التلامذة ، وفيهم الشيخ ابو الربيع فسلموا وصافحوهم ، وأخبرهم بمـا بلغ أهل الدعوة من ضرر المذكور ، وقوله لهم ، فقال ابو الربيع : رب كلمة سلبت نعمـة ، اللسان يلعب بالبلاء ، فاجتمعوا وبدأ أبو الربيع بالدعاء فاداروا الدعاء ، وختم

ابو الربيع ، فاصاب الملعون فى تلك الساعة وجع فجعل يصيح من شدة الوجع ، ويقول : « قتلنى الاعور ، يعنى ابا الربيع ، حتى مات ، ولم تماطله دعوة ابى الربيع .

الحكم الشرعى فى الوصية للوارث

وروي عن ابى عبد الله محمد بن بكر رضى الله عنه ، انه لما حضرته الوفاة قال لمن حضره : « اشهدوا ان الجنان الذى على العيون لابنى يوسف » ، فلما سمعت امرأته ذلك حسبت ان به غفلة او ذهاب عقل ، فقالت له : ما هذا يا شيخ ؟ تنبهه ، فكرر الاشهاد على نفسه بما قال أولا ولم يرجع عنه ، فقال لامرأته أنى اعتقدت له اكثر من ذلك ، وعلمى ورأيى لا أرجع فيه الى علمك ورأيك ، وكان ابنه احمد اذ ذاك عند ابى الربيع سليمان بن يخلف فبلغه وفاة أبيه وقد بقيت بيده بقية من نفقته فكف عن الاكل منها ، ورأى ان ذلك قد صار ميراثا ، فقال له ابو الربيع : امسك ما بيدك ولا حرج عليك ولا تلزمه العدالة بينكما .

قلت اما فعل ابى عبد الله فلا ينفد لوجوه : منها انه عطية فى المرض الذى توفي فيه فلا يجوز الا باجازة الورثة ، الثانى انه لم يذكر التسليم والحوز وذلك شرط عند جميع اهل العلم الا الشاذ ، والثالث انه لم يعدل فيما دل عليه اللفظ والعدل بين البنين واجب على الاب فى قول جماعة من اهل العلم ، واليه مال كثير اصحابنا فيما علمت والشيخ ابو الربيع رجح قول من قال لا تجب العدالة على الاب ، واقول والله اعلم : ان ذلك انما جاز لاجازتهم له اياه ابرارا بالشيخ رحمه الله .

وعن غير واحد من تلامذته قال لما كان عام احد وسبعين واربعمائة رجعنا من عنده فشيعنا الى المصلى الذى فوق

وصية الشيخ ابى الربيع لتلامذته

عيون تونين ، فوقفنا لموادعته ، فقال احدنا : اوصنا يا شيخ ، قال : قد عزمت على ذلك ولو لم تقله لى ، ثم قال : « امضوا بالسلام . فاذا وصلتم ان شاء الله منازلكم فاياكم والدنيا ان تستقبلوها بوجوهكم ، فان من استقبلها اغرقته ومن استدبرها فلا بد ان تأخذ منه ، وعليكم بالألفة والنصيحة ، والتزاور ، وحفظ مجالس الذكر ، واياكم وأمور الناس والتقصير فيمن يرد عليكم من أهل دعوتكم والسلام » .

وكنا قد اردنا اذ نحن بتمولست الطلوع الى جبل «دمر» برسم دراسة الكتب ، فلم يوافق ذلك ابا الربيع ولا ابا زكرياء يحيى بن ابى بكر فشيعنا ابو زكرياء يحيى ، فقال : اعلموا انكم ان رجعتم الى اهليكم على هذه الحال فانتم كمن ترك الاسلام عمدا، وهذا منه تحريض وترغيب فى طلب العلم .

نكاح الفضولى وحكمه

وذكر ان تلميذين من تلامذة ابى الربيع قال احدهما للآخر : « زوجتك اختى » ، وقال الآخر : « قبلت » فلما لفظ بالقبول داخله ما وسوس عقله وشغل خاطره ، وجعل يسأل الطلبة واحدا بعد واحد هل عليه من هذا شىء ؟ وغلب على خاطره ان النكاح قد انعقد ، فجعل يسأل العزابة الحل عازما على الانفصال ، فقال أبو الربيع لما رأى ما رأى من حاله : ما نال فلانا ؟ فاخبروه خبره ، فقال لهم : قولوا له فليقم وليشتغل بالقراءة ، فانه لم ينعقد عليه نكاح ، ولا عليه شىء ، ولو اجازته ، قلت وهذه المسألة لها وجوه تقيد بها وليست بمطلقة وذلك ان اخا المرأة لا يخلو ان يكون وكيلا مع كونه وليا أو لا يكون وكيلا ، فان كان وكيلا فالنكاح قد انعقد بلا خلاف ، وان

كان أنكح فضولا بغير توكيل ثم اجازته بقرب العقد فالاولى جوازه ، وقيل يكون موقوفا على قبولها وامتناعها ، ولعل ابا الربيع رحمه الله عرف في هذه القضية بعينهنا ما اوجب امتناعها كترك وقع متقدما مع خاطب أو عقد تقدم مع ولي تقدم مع خاطب آخر ، والله اعلم . وذكر أبو عمرو عثمان بن خليفة ان ابا يعقوب محمد بن يدير سئل عن مسئلة في مجسله ، فاخطأ في الجواب ، وذلك انه قال : علينا العمل بالفرائض وليس علينا العلم بها ، وكان يزيد بن يخلف الزواغي وابو الربيع سليمان بن يخلف في المجلس حينئذ ، فلما سمع يزيد ذلك قال يا سليمان ما الذى اخذت عن ابى عبد الله بن بكر في هذه المسئلة قال : اذا لزم فعل شيء لزم العلم به ، وان له في فعله الثواب ، وانه فرض وعدل ، وكان قد باتا في حلقته فلم يقل لهما رجعت عن قولي ، ولا قالا له : ارجع عنه ولا ادناهما من المجلس ، وجوابه في هذه المسئلة جواب النكار وهو خطأ وجوابهما جواب أصحابنا وهو الصواب ان شاء الله ، وهو قول جمهور الامة لانه كيف يمتثل الامر من جهله ؟ وكان هذا حال الشيخ أبي الربيع لا يعجل بتخطئة احد ، ولا يسمعه جفاء .

هل العلم بالفرض واجب كالعمل به ؟

وتوفى رحمه الله عام أحد وسبعين واربعمائة،فبلغ خبر وفاته المشائخ ببلاد أريغ امثال ماكسن ، ومزين ، ويوسف بن ابى عبد الله بن بكر ، وغيرهم فجل عندهم الخطب وسامرهم الرثاء والندب ، واجتمع اليهم اعيان تلك النواحي يعزونهم، وهيهات، فقد لازموا العويل والاكتئاب الطويل ، حتى قال لهم ابو يعقوب كفوا عافاكم الله فان هذا لا يغنى عنكم شيئا ، وعليكم بالتمسك بما اخذتموه

عنه ، وعن غيره من الاشياخ ، وكونوا لها كابراهيم بن أبى ابراهيم للامانة ، وذلك ان رجلا أودع الشيخ ابراهيم دينارا ، وقال له : ادفعه الى فلان ، واحذر ان يسقط ، فقال له : « تسقط هاتان ولا يسقط يا عماه » ، واشار الى عينيه .

ومنهم الشيخان أبو محمد ماكسن بن الخير وأبو عبد الله مزين بن عبد الله الوسيانيان رحمهما الله

كانا ممن تنسب اليهما انواع من الفضائل ، وترفع اليهما عند وقوعها المسائل وترجى بدعائهما عند الله الوسائل ، ويستشفي برأيهما متى نزلت الخطوب النوازل ، وتتيممهم للبركة القنابل (1) والقبائل ، وممن يفصل الخطة لما أعيت كل فاصل ، فليس منها الا عائل .

قال ابو عبد الله : كان مزين يقول : « الرأي اشارة ، واما الموارثة (2) فقتال ، لا تدخلن بين العصا ولحائها » ، وذكر أبو محمد قال : دخل علي ينجاسن بن حمو ذات يوم كانه ذاهل ، فاستلقى مضطجعا ، فقلت له مالك ؟ ومن أين أقبلت ؟ قال : « من عند مزين ، جئته استفتيه فى تباعة تعلقت بذمتى فى قرية من قرى وارجلان ، وسألته كيف الخلاص منها قال لى : اتعرف الموضع ؟ قلت : نعم ، قال : أتعرف صاحب التباعة ؟ قلت لا ، قال تجد من يشهد لك بان تلك التباعة لفلان بن فلان ؟ قال : لا ، قال : فتصدق بها اذا فى موضعك ، وأقم ولا تتكلف حركة » . فحاربها — والله اعلم — انما بسبب كونه لا يدرى من يصرف اليه

الحكم فيمن عليه تباعة جهل صاحبها

(1) جمع قنبلة بفتح القاف : جمع من الناس

(2) كذا فى النسخ ولعل الصواب المؤاربة

تلك الصدقة ، فيكون لها أهلا ، ولانه ذكر عنه انــه قال حينئذ : خائن حازم ، خير من أمين مضيع ، فداخله من ذلك شغل شاغل .

وذكروا ان « ابا ويدران » الفطناسى استخلف عـــلى وصيته مزين ، فعمد الى خيار ماله وما تكثر فيه رغبـــة المشترى فباعه ، وجعل ينفذ منه الوصية ، فشكته زوجة ابى « ويدران » وبناته الى الشيخ ابى عبد الله ، وقلن له : انه قد باع افضل المال ، ان فى التركة اطرافا لو باعهـا لم يصبنا لفقدها جزع ، فقال له مالك ولهؤلاء ؟ قال : اعلم انى لم اشتغل بمصلحة هؤلاء لكن بفكاك رقبتى ورقبـة أخى فى الله .

وذكر ابو الربيع ان ابا محمد ماكسن كان من اعاجيب الزمان ، وذلك انه اصيب فى بصره وهو ابن سبعة أعوام وقيل سبعة ايام ، فجاءت امه الى ام يوسف زوج المعز بـن باديس فاعلمتها بما اصاب ابنها ، فقالت لهـا رديـه فى المكتب ، فانه يستفيد لما رأته من حدة فكره ، وحضـور ذهنه وذكائه ، ففعلت ، فحفظ القرآن تلقينـا فى أسرع وقت ، ثم قصد جربة وحضر حلقة أبى محمد واسلان ابن ابى صالح ، فكان انجب تلميذ حضرها ، وكان كل مـــن رآه يستغرب ذكاءه وبراعته ، وكثرة حفظه ، الا انه كان مع ذلك سريع الغضب ، حاد الكلام ، فكان الطلبة يقولون لابى محمد : اطرد عنا هذا السريع الغضب ، الحاد الكلام ، فيقول لهم : والله لا اسمع قولكم فيه ولا اقبله ولا اخرج عليه ، لما تفرس فيه من الخير والبر ، واحياء الدين والسير ويقول لهم الم تعلموا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل له : لم تكون الخفة فى المؤمن ؟ فقال لغزارة فى قلبه ،

كيف كان الشيخ ايام التلمذة ورفق شيخه به

وقيل لابن عباس رضى الله عنه انك لخير لو لا خصلة فيك، قال وما هى ؟ قال الخفة ، فقال ابن عباس : « عبتنى بخير الخصال » .

وكان ماكسن اذا ذكر هذا القول يقول رحمه الله : ان ابا محمد لو سمع في قولهم وطردنى لرفعت رأسى وكنت فى غير هذا المذهب ، فأضل واهلك ، فلم يكن الا مـــدة يسيرة حتى تفقه وعظمت منزلته . فاعجب بيتيم عديـــم مكفوف البصر ينتهى الى هذه الغاية فى اسرع وقت ! ولا جرم ان الشيخ أبا الربيع سليمان ابن يخلف كان مفتاح باب الخير عليه ، لانه كان محاضره ، فكان ينشطه ويدربه ويحرضه ، ويقرأ عليه الكتاب فاذا قرأ بابا رددا معـــا مسائله ، هكذا كانت عادتهما ، وكان كل واحد منهمـــا بارا بالآخر ، حفيا به ، كان أبو الربيع كما ذكرنا لا يأل جهدا فيما ينتفع به صاحبه ، فلا يعرف له طريق مصلحة الا تحراه ، وكان ماكسن على نحو ذلك فيما له عليه قدرة ، حتى ان ماكسن يدعوه بالخؤولة مع كونه دونه فى السن ، وهذه الدعوة لان ام ماكسن مزاتية من قوم ابى الربيع .

ولقد تنازعا يوما فى مسئلة حتى تغاضبا وكان ماكسن يصلى بثوب ابى الربيع ، فحضر وقت الصلاة ولم ير ماكسن انه تصح له صلاة بثوب ابى الربيع ، وحسب انه يجد منه فى نفسه شيئا ، واراد نزع ثوبه ، فقال له صل عافاك الله فانه لم يحدث عندى شىء .

وذكر ان أول مسكن الشيخ ماكسن بوارجلان وذلـــك بعد انفصاله عن القيروان ومجيئه من جربة، فاقام بوارجلان حتى سافر منها الى الحج ، وقضى الفريضة وتنفل ، وتزوج

بوارجلان وقطن به ، وجاءه رجل من أهل اجلو يقال لـه ابو العزيز داود ، فقال له :أقم هنا يأكل أولادك تحف أهل الدعوة ، فاذا متت اقتسموا ريح الصبا ، فسمعت كلاما اذن واعية ووقع فى نفس ماكسن الانتقال الى اريغ ، فلقى الشيخ عيسى بن ابى الحجاج فقال له : اجعلنى يا اخى فى حل فانى عازم على الارتحال ، فقال : بل اسأل الحـل فى قولك لى اجعلنى فى حل ، فقد ادخلت علي روعة ، فقال له : اعلم انه لا يصح لك انتقال عن وارجلان حتى امـــوت وتغسلنى وتكفننى ثم انتقل ، بعد ذلك أو اقم واما ــ وانا حى ــ فلا اذن لك فى المسير ، فوافقه واقام حتى قضى الله بموت الشيخ عيسى ، فتولى عنه ما سأله ان يتولاه . واجمع على المسير الى أريغ ، فقال له عبد الله بن عيسى الوسيانى من أهل « كرناداش » ألم تقدر فى سفرتنا يا ماكســن ؟ فقلت : قد عولت عليكم ، وهيأت لكم . فساروا جميعا الى أريغ فاقام ماكسن بأريغ مدة وليس لاولاده مؤدب ، فجاءه ابو العزيز داود فقال له : اقم هكذا يا ماكسن حتى تموت وتبيع أولادك كتبك ، فأيقظه وعلم انما نبهه على أولاده ، فاستأجر مؤدبا يعلمهم .

ابو العزيز يدعو الشيخ ماكسن الى الاهتمام باولاده

وكان ابو محمد ماكسن يتعجب من ثلاث مسائل احداها قولهم « يموت الرجل ولا يقذف » ، ثم اجازوا له اذا خاف ان يقول : ليس هذا بابن فلان ، أو ليس من القبيلـــة الفلانية فينفيه ، والثانية قولهم : « يموت ولا يتعرى » ، ثم اجازوا له ان يتعرى عنـد الاختتان وعنـــد الطبيب والقابلة ، وقياس الجراح ، والثالثة قولهم فى امـــــرأة المفقود : « عدتها عدة المتوفى عنها زوجها » ، ومع ذلـك فالوا لا تخرج حتى يطلق عنه أولياؤه ، قلت : اما الاولى

الشيخ يتعجب من ثلاث مسائل والحكم الشرعى فيها

فمن باب الكذب المباح لا من باب القذف ، والثانية ضرورة تعارض فيها حكمان ، فلا بد من أرجحهما والثالثة أخذوا فى العدة بالحوطة ونظروا فى تسريح المرأة خشية الضرار وجعلوا التطليق الى الاولياء ، على انه لا حكم على غائب .

يحمل اولاده على الحق

ومن تحرجه ما ذكر ان أولاده بنوا بابا وزادوا فى حائطه شيئا من الطريق ، فقال لهم : اهدموا هذا البنيان وردوا الشىء بحاله ، فقالوا ان الطريق واسعة ، بحيث لا يضرها ما نقصناه منها ، فقال لهم : لا بد من هدمه ولا انصرف حتى يهدم ، فهدموه ، وحينئذ طابت نفسه على الانصراف .

وذكر ابو الربيع قال : اغارت غارة « لبنى يوجين » على رأس وادى أريغ فساقت غنمهم ، فاتبعتهم عدة من المشائخ منهم ماكسن ، وابو العباس الوليلى ، وعيسى بن يرصوكسن ، وعبد الله الدمرى ، فلم يلتحقوا بهم الا بعد احيائهم ، فلبثوا مدة يستردون ، حتى استردوا الغنم بجملتها ، وما استردوها الا وقد نفدت ازوادهم أو كادت قيل وفيهم عجوز مرابطة ، وقد اطلعت على حال المشائخ وعلمت ان ازوادهم نفدت ، وان طعام قومها لا يرون أكله تورعا ، فرغبت اليهم ان يأذنوا لها فى ان تعالج لهم طعاما من مالها ، فاجابوا ، فاستعملت طعاما ولما حان وقت صلاة المغرب وصلوا جاءتهم العجوز تسألهم عن مسائلها ، والشيخ ابو العباس الوليلى حينئذ يركع ولم يتفرغ من ركوعه ، فعاد كلما سلم من ركعتين قال لهم : ابعدوا العجوز عنكم واطردوها عن انفسكم ، ولم يفطنوا لما اراد ، حتى سألتهم ما تقولون فى قومى هؤلاء اذا غاروا غارة وغنموا واخذوا واعطونى زكاة ما اخذوا فهل فى ذلك من حرج ؟

قالوا اذا فانت على هذا الحال المذمومة يا عجوز ؟ ابعدى عنا ، فقال لهم ابو العباس : ألم اقل لكم من قبل ؛ ابعدوها عن انفسكم ، فانصرفت ولم يذوقوا طعامها . فقالت « بنويوجين » لماكسن : ان رخصت لنا فى ثلاث مسائل رجعنا الى مذهبك ، وهى : اموالنا ، وأولادنا ، وازواجنا كلها حرام ، فأذن لنا بالمقام فيها . فقال لهم : لا يحل ذلك فى مذهبى ، قالوا فانا نجد من يرخص لنا فى ذلك كله .

يطلبون منه ان يرخص لهم فى اموالهم وازواجهم لانها حرام

وغارت غارة لبعض العرب على وارجلان فساقوا عدة من الأماء ، فلحقهم الشيخ ماكسن «بالدرمون» فوق بئر الكآهنة ، فسألهم بالله ان يردوا عليه ما اخذوا من اموال المسلمين ، فكان فى القوم رجل يعرف بابن يلبان ، فقال لهم : اجيبوا سؤال العزابى ، فردوا عليه جملة الاماء الا واحدة مولودة، (1) فزينها الشيطان في اعينهم، فرغبوا فى الابتناء عليها ، فقال لهم : الشيخ انها حرة ، فقالوا : أعريقة ؟ قال لهم : نعم ، قالوا له : أتحلف ؟ قال نعم ، قالوا بالطلاق ؟ قال لا يحلف بالطلاق مسلم ، فلا احلف به قال ، فردوها له ، ثم سئل بعد ذلك ما اردت بقولك حرة ؟ قال أمى ، قيل وما اردت بقولك عريقة ؟ قال فخذى .

وذكر عن الشيخ ماكسن انه قال أقبلت انا واصحابى من الحج ، وكنا فى اثنى عشر رجلا ، كسليمان بن موسى الزلفينى ، وعبد السلام بن عمران النكسى ، ومحمد بن عيسى بن ابراهيم ، وامثالهم ، ووصلنا طرابلس فاشترينا منها كسوتنا ؛ كسوة سنية ، ودخلنا جربة ، فشكروا ذلك منا واستحسنوه ، ودخل عليهم من السرور ما لا يتصف ، حتى قال لهم زكرياء بن الشيخ ابى زكرياء فصيل رضى

اهل جربة يبتهجون بمقدمهم فى سمت حسن وابهة

(1) لعل الصحيح مولدة

الله عنه : لقد عاملتمونا فى زورتكم هذه بما لا نستطيع ان نـودى حقـه ، وقلدتمونا عظيمة لا تقـوم ألسنتنا بشكرها ، وان اختصاصكم ايانا بقدومكم علينـا عنـد مقدمكم فى تلك المشاهدة الشريفة ، ومشاهرتكم لنا ليقوم عندنا مقام قدوم جميع من سلف من أئمتنا ، واشياخنا ، من لدن ابى عبيدة الى اليوم ، فالله يتولى متوليكم ، وأكثر ما ادخل عليهم السرور قدومهـم فى احسن زى واشارة ، فانهم باهوا بهم جيرانهم النكارة، وظهر من جلالة اقدارهم ما زاد فى جيرانهم الحقارة .

فتن اهلـية فى وغلانة وتينتلات وسوء مصـيرها

وذكروا ان قافلة خرجت من وارجلان من أهل ريـغ ، متوجهين الى أهل ريغ ، فلمـا وصلوا الى « ونو » يعنى : البئر ، ازدحموا عليه يستسقون حتى اقتتلوا ، فقتل رجل من بنى سيتتن رجلا من « وغلانة » ورأى الوغلانيون ان لا طاقة لهم ببنى سيتتن ، لكونهم جميعا يكون طريقهم على بنى سيتتن ، فخافوهم على انفسهم ، فافترقوا من هنالك ، وجعل الوغلانيون طريقهم على بنى ينجاسن، فعاهدوهم على ان يكونوا معهم ألبا على طلب حقهم ، فلما وصلوا منازلهم عيبوا ونهضوا الى بنى سيتتن ثائرين بصاحبهم ، فلمـا وصلوا قرية « خيران » خرج اليهم أهلها يريدون انزالهم ويحسبونهم اضيافا، فقالوا لهم : مكنونا من القود بصاحبنا فقالوا : نعم ، لكم القود ، فألقى الشيطان فى اسماعهم ؛ ان لا يصلح لكم قود ، فلم يلبثوا ان وثبوا عليهم بالسلاح فدافع يعقوب بن يسفا وامثاله حتى قتلوا ، فى ثمانـين قتيلا من بنى سيتتن ، وكان رجل من وغلانة ادرك يعقوب على بغلة فعقرها ، قال فادركته الرجالة ، فقتلوه ، فأوصى عاقر البغلة بدية يعقوب ، واستخلف على وصيته يعلو بن

صالح فدفعها الى ورثة يعقـوب ، فلما رآى أهل تينتلات انفسهم فى قلة بعد موت العدد المذكور عزموا على الرجوع الى أهل الخلاف ، وكادوا يفعلون ، فبلـغ ذلـك ماكسن فقال : من ذا الذى يعرض لاهلالمذهب من تنتلات ؟ فانتقل اليهم بحلقته فوجد اعلام الخلاف قد نصبت ، فلم يزل يكف شرهم ، ويدحض عزمهم ، حتى انقطع الاختلاف ولم يبق الا الائتلاف ، فحينئذ ارتحل عنهم . ومدة اقامته عندهم ثلاث سنين .

وسبب ارتحاله عنهم فيما ذكر انه كان ذات يوم هتف به هاتف : يا ماكسن اهرب ، اهرب الى حيث طاب الزمان ، فالجبن خير من الجرأة اذا الفتنة تمكنت عروقها ، قيل ولما ارتحل عزم من بها من أهل الخلاف وهم فى غاية الحقارة والضعف على ان يبنوا لانفسهم مسجدا ، ورأوا ان الفرصة قد امكنتهم بعد انفصال الحلقة ، فاستفزوا ضعفاء العقول من أهل الموضع ، وشاوروهم فى ذلك ، فأذنوا لهـم فى بنيانه ، وكان ذلك فى مغيب ابى يوسف بن زيرى وهو من اعيان القوم ، فاستحضروه للمشورة ، فلما حضر تكلـم متكلمهم . فقال : عزمنا على ان نبتنى هنا مسجدا لاخواننا قال : لا يبنى الا ان يبنى على رأسى ، فانحل عقدهم ، ومن سمع بجواب ابى يوسف شكره ودعا له . ويتصل بهذا ما ذكر ان يعلو بن صالح خرج فارا بنفسه ، غضبا لما فعـل أهلها ببنى سيتتن وذلك انهم لما رجعوا من قتالهم دخلوا من باب وخرج هو من باب آخر ، فمر بيعقوب بن ابى موسى الزواغى وكان بينهما قرابة ، فصحبه وسارا حتى لقيا أبا عبد الله بنالخير ، فقال له : يا يعلو بنى سيتتن صرعـوا قتلى لم يدفنوا بعد ، وانت تغدو وتروح عليهم ، فقال له

الشيخ يعلو بن صالح يفر من وغلانة اعتزالا للفتنة

يعقوب هذه منك سقطة يا ابا عبد الله، اتخاطب بهذا رجلا خرج مهاجرا مراغما لاهل الظلم طلبا للسلامة فتلقاه بهذا القول وانت لا تقدر له على شيء ؟ فمن ذلك اليــــوم سار الى أجلو .

أبو سليمان داود بن أبى يوسف

ومنهم ابو سليمان داود بن ابى يوسف رحمه الله . احد المشائخ المذكورين ، والفقهاء المشهورين استفاد وافاد ، وخدم حتى ساد ، فكان شيخ حلقة ، يعرف كل احد حقه ، وسعهم علما وخلقا ، وسيرا حميدة وتقى ، ولا يجتنبــــه الطالب ، ولا يخيب امل الراغب .

ذكر ان جماعة من شيوخ العزابة توجهوا الى « تنومة » فيهم ابو عبد الله محمد بن بكر ، وابو سليمان داوود بن ابى يوسف ، وكان على داوود دين لرجل من تنومة ، فلما كانوا ببعض الطريق لقوا زنغيل بن نوح بن الشيخ ابى نوح فسألوه عن الرجل صاحب الدين ، فقال : تركته على آخر وقته ، فرجع ابو سليمان فشق عليه ما سمعه ، وتكدر خاطره، فقال له ابو عبد الله ان لى على صاحبك دينا اكثر مما له عليك ، وقد وهبت لك من ذلك مقدار ما له عليـــــك ، فقاصصه بذلك فيما عليك ، ففعل ، وهذه الفضيلة لابى عبد الله رحمه الله .

وذكر ان الشيخ ابا عبد الله رحمه الله كان على جلالة قدره اذا اقبل الشتاء وفرغ من حرث ضيعته طلع بحلقته الى ابى سليمان يقرأون عليه ، فيقيمون حتى يسمعوا صي البعوض فينزل الى ضيعته ، وجاء رجل من أهل وارجلان فسألوه عن حال ابى سليمان فقال له : لما به اما ادركتموه

واما لم تدركوه ، فمضى الشيخ ماكسن يجد السير فوجده على آخر وقته ، فقال كيف تجدك فقال متمثلا :

ولا يعرف الريان من طال عطشه

ولا يعرف الشبعان من هو جائع

فاقام عنده حتى توفي رحمة الله عليه .

وذكر انه لما كان عام اثنين وستين واربعمائة توفى داود بن أبي يوسف وبلغ خبر وفاته المشائخ وهم اذ ذاك فى زنزفة عند انحدار الشيخ ابى الربيع من زنزفة الى منزله بتمولسة ، فشيعه المشائخ الى قلعة بنى على ، منهم على ابن منصور ، وابراهيم بن يوسف ، وغيرهم ، فوقفوا للرجوع فكرهوا مفارقة ابى الربيع الا وقد عزوه فى ابى سليمان ، فتناجوا أيهم يجسر على مخاطبته بذلك ، وخشوا ان يدخلوا عليه روعة ، اذ لم يتقدم عنده علم ، فدنا ابو اسحاق ابراهيم بن يوسف والشيخ حينئذ راكب على فرس لرجل من بنى زنزفة ، فقال له : احسن الله عزاك فى الشيخ ، وآجرك فى المصيبة فيه ، فقال له : ومن الشيخ ؟ قال : ابو سليمان داود بن يوسف ، فلما سمع ذلك نزل على الفرس ، فقال : « انا لله وانا اليه راجعون » ، فلما توادعوا وقضوا حق التعزية فرجعوا عنه ، قال وسرنا معه نحن الى « تمولسة » فأخذ يحدثنا أخبار السلف ويذكر سيرهم ومناقبهم ، وما صبروا عليه وما صابروا ، وكابروا وكابدوا ويتوجع لما صار الناس اليه من فساد الزمان ، وما نزل بهم من ذهاب الخير وأهله ، وانقراض العلم وحملته ، حتى قال انقطعت آثارنا من المغرب .

وذكر حديثا للرجلين الذين اقبلا من المشرق يريــدان زيارة بكر بن حماد الشيعى ، فلما وصلا مصر سمعا بوفاته فقال احدهما للآخر انقطعت آثارنا من المغرب ، فرجع من موضعه وقال الآخر اما انا فلا ارجــع حتى آتى اولاده ، فتمادى به السير حتى انتهى الى تاهرت ، فسأل عمن خلف بكر بن حماد فقيل له خلف ولدا لا يستحق ان يسأل عنه ، فأبى الا رؤيته ، فطلبه فوجده ينوح مع النساء ، فلما رءاه قال : « انا لله ، مصيبة الاخيار فى أبنائهم » . وانما اورد هذا تفجعا وتوجعا ، لفقد ابى سليمان ، وكونه لم يخلف من يقوم مقامه .

مصيبة الاخيــار تكــون ـ احيانا فى ابنانهــم

وسرنا طريقنا كله وهو يكرر انقراض الخير، واندراس الدين ، وفقد العلماء وانطماس الآثار ، حتى قال : فقد التاس من مسائل الحلال والحرام والفقه اكثر مما فقدوا من مسائل علم الكلام والجدال ، ولا اعلم اليوم من يقــرأ عليه علم الفروع الا ان يكون احد من تلامذة ابى سليمان هذا « يعنى ابن ابى يوسف » فان منهم جماعة بوارجلان . وقال ابراهيم ابن ابى ابراهيم رايت ابا سليمان فى منامى بعد موته فقلت لعلك ظفرت يا شيخ ؟ قال : نعم ، ثم قال قل للعزابة عليكم بالدعاء ، وقيام الليل ، والمعــــروف.

الشيخ يشكــو من جهل النــاس باحكام الشــريعة

أبو القاسم يونس ابن أبى الحسن

ومنهم أبو القاسم يونس بن أبى الحسن رحمه الله . من جملة الفضلاء ، المكرمين باستجابة الدعاء ، المنتظمين فى سلك العلماء ، وان كان السيمى مقصورة على شيــــم الصلحاء .

ذكر ابو سليمان ان الوباء وقع في اجلو سنة من السنين فاضر باهلها في جناتهم ، وآذاهم أذى كثيرا ، واقتضى نظرهم ان يجتمعوا ويصوموا يوم الاربعاء والخميس والجمعة ، ولما صلوا صلاة العصر يوم الجمعة خرجوا الى محراب المقبرة ، وهو موضع معروف بالبركة ، واستجابة الدعاء ، واجتمعوا عنده ، وقرأوا وتطوعوا بالمعروف ، وعادتهم ان يحضروه ويدعوا ، ثم حضرت صلاة المغرب وصلى بهم امامهم يونس بن ابى الحسن ، فلما صلى دعا الله ان يرفع عنهم الوباء ، ولم يصبح حتى لم يجدوا له اثرا .

وذكروا عنه انه كتب الى من بقسطيلية من طلبة مزاتة « اما بعد فاجعلوا حوائجكم بكريات، واذا وجدتم ما ترعون فارعوه رعى النهماء من الغنم، ولا تمجوه مج الريان الماء » في كلام كثير ينشطهم به الى القراءة والاجتهاد في الطلب .

أبو الربيع سليمان الزلفيني

ومنهم الشيخ ابو الربيع سليمان بن موسى الزلفيني رحمه الله . ذو النفس الالفية، والخلق المرضية، والدعوات المستجابات الدينية ، المحافظ على الامور الدينية والدنيوية .

وعنه يحكى انه نظر فرج ابنته ففارق امها ، وعنه يحكى انه قال : ان أهل وارجلان اذا مات احد من فضلائهم في اى قرية من قراهم بعثوا الى أهل القرى ليحضروا جنازته ، فكانت هذه عادتهم ، فلا يعجلون بدفن من يموت عندهم حتى يشهدوا جنازته جماعتهم ، قال فمات رجل في « يمطنون » يسمى « صالح الصادق » فبعثوا الى أهل

« تينبماطوس » قالوا فحضرنا جنازة الرجل ، وكنا قد وجدناه قبل ان تخرج جنازته وجدنا داره مشحونة بالناس قال ، فقعدنا على باب الدار ، فجيء بالنعش فاذا الباب ضيق قصير عنه ، فجهزوا الميت ، واخرجوا النعش ، ولما وصلوا الى الباب خرجوا أسهل خروج ، فأختلف من حضر داخل الدار وخارجها فقال بعضهم انما خرج من العتبة ، وقال بعضهم بل اتسع الباب وخرج النعش ببركة الله تعالى .

كان الشيخ مجاب الدعوة عند الله

وذكروا ان ابا محمد بن سليمان العرجا ورد من القلعة (1) على ابى الربيع فقال له : انى تركت عبد الله بن حسن وولده فى الجيش القلعى ، فادع الله ان يهلكهما ، فقال له كن فى غيرهما ، واما هما فقد هلكا ، فكان كما قال ، وسمع ماكسن يدعو على بنى ظافر ، فقال له ادع على غيرهم ، واما هم فقد هلكوا ، فكان كما قال . وكان العزابة يقولون : اذا اردت ان تعرف عدد عيال أبى الربيع فراقبه وقت التطوع بعمل المعروف ، يعنى انه يتطوع على كل رأس بمعروف ، وكانت له حركة فى جسده فيها دلالة يعرف بها امورا خفية ، فكان الشيوخ اذا دعوا وحس بما يدله على استجابة دعائهم يقول لهم : قد اجيب دعاؤكم ، والا سكت ، ومثل هذا من الكرامات لا تنكر .

يابى من ارتكاب المكروه ولو انه يجر منفعة

وعزم ابو الربيع سليمان بن موسى على ان يكنس عينا او يحفرها ، وهى التى فى شرق مسجد تامولسة ، فاعانه اخوانه بخدمة عبيد، فلما حضره العبيد وشرعوا فى الخدمة جعلوا يتغنون ، ويقولون ما يقول امثالهم ، فقال لهم « اطلعوا من عينى فان كانت لا تحفر الا بمعصية الله فلا

(1) يعنى قلعة بنى حماد بنواحى امسيلة

حفرت ، قال ابو مرداس هلاك فى طاعة خير من نجاة فى معصية » فلما رأوا ذلك منه تركوا ما كره .

وذكر ان الشيخ معاذ بن ابى علي كان مسكنه بقصر بنى ولـيل من بلاد قبلة اريغ ، فكان دأبه ان ياتى فى كل ليلة الجمعة الى اجلو فيبيت مع الحلقة ، يحيى ليلة ثم يقيم حتى يشهد مجلس يوم الجمعـة ، ثم يصلى العصر ، ثم ينصرف الى أهله ، فصادف مجيئه ليلة من الليالى مجيء فتى من ولد ابى ويدران الفطناسى المزاتى يسأل المعروف ، وكان هذا الفتى اقرع وكان ابو ويدران المذكور اول غريب دخل هذه البلاد الريغية ، وهو الذى بنى مسجد تينسلمان ، على مصلى حبيب بن زلفين ، قيل فلما رأى معاذ المذكور الفتى المذكور ازدراه وانتهره ، فقال له ، ما ها هنا الا التلامذة والا فاهل المنزل قد خرجوا فى طلب الربيع ، وكان الشيخ ابو الربيع بحيث يسمع كلام معاذ فانتهره ، وقبح عليه ما قابل به الفتى ، وقال له : قال الله تعالى « وكان ابوهمـا صالحا » ثم التفت الى أهل الموضع فقال لهم اعطوه ما اعطاه وقته ، فاعطوه ما أربى على مأموله ، وانقلب شاكرا ، ثم ان الشيخ ابا الربيع قابل معاذا باشد من الوجه الذى قابل به الفتى ، وأنّبه كل التأنيب بكلام طويل .

الشيخ ابو الربيع يكرم ابن ابى وايدران تقديرا لابيه

ومنهم أبو العباس أحمد وأبو يعقوب يوسف ابنا الشيخ أبى عبد الله محمد بن بكر رضى الله عنهما

كانـا فى طلـب الخـير فرسي رهـان ، مشتركـين فى كـل فضيلـة شركـة عنـان فلعـل احـدهما اعلـم والآخـر أزهـد ، فلكـلا الوصفـين دلائـل تشهد فان المنسوب الى احدهما تأليف كتاب، وتهذيب جواب

والمنسوب الى الآخر دعاء مستجاب واستعداد لمآب ، وبينا انهما حائزان على هذا السباق ، ومن دون اغبارهما تقطعت الاعناق ، ولا غــرو لامثالهما فى جميع احوالهما ، فــان مفيض ضيائهما بدر باهر النور بهيجه ، وهل ينبت الخطى الا وشيجه ؟ .

فضل ابى العباس وخدمته للمذهب

قال ابو محمد اجتاز بنا ابو القاسم عبد الرحمان بن عمر فخرجنا معه مودعين ، وكان فيما اورده من القــول عند وداعنا ان قال : ان اقل ما نزل من السماء الى الارض التوفيق وقــلَّ ما يدعو به المرء الا استجيب له ، ثم قال : رحم الله احمد بن محمد ، فقد كان رحمة لاهل مذهبنا حيا وميتا ، وذلك انّه كان فى حياته بيت العلم يفيد به كــل طالب وكل ذى حاجة ، ولما دنت وفاته اودع علومه الكتب فصنف تصنيفات خمســة وعشرين كتابا وكتابا آخــــر تركه فى الالواح (I) .

يتعجب من احــوال الناس يفعلون خلاف مــا يعتقدون

وذكر داوود بن يخلف عن ابى العباس انه قال : الناس اذا اتاهم خبر خوف انتقلوا عن الحال التى كانوا عليها قبل ورود الخبر ، ولو كانوا فى حر وبرد ، وأخذوا لانفسهم بالحذر والتحرز ، ولعل ذلك الخبر يكون او لا يكــــون ، وليسوا منه على يقين ، ولقد انذرهم الله النار وخوفهم من الشيطان ، وكان ذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصدقوا المرسل والمرسل ، وأيقنوا بذلك وتركوا التحرز ، واغفلوا الاستعداد لذلك ، والحذر مــن سوء ما يتوقع من ذلك ونسوا فقد اخوانهم وتفقد احوالهــــم ،

(I) يشير الى المؤلفات التى تركها الشيخ ابو العباس بعضها مفقود ، وبعضها لا زال ضمن المخطوطات ، ككتاب اصول الاراضين ، فى ستة اجزاء ، والسيرة فى الدمــــاء والجراحات ، والجـــامع المعروف « بابى مسئلة » وتبين افعال العباد فى ثلاثة اجـــزاء وبعض هذه الكتب أصل لكتاب « النيل » وملخص لها .

ويا عجبا الناس يكرمون اضيافهم خوفا من اللؤم والـذم واضياف الله الكرام الكاتبون معهم وهم يعلمون ويتيقنون انـه « ما يلفظ من قـول الا لديه رقيب عتيد » . « لـه معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امـر الله » ومع ذلك فلا يعبأون ولا يكترثون .

سبب اقبال الشيخ على التاليف

وعن ابى محمد أن سبب تأليف ابى العباس كتابه الذى تسميه العزابة « ابا مسألة » ان ابا عبد الله محمد النفوسى كتب اليه من « أبيدلان » يرغب اليه فى مختصر ، مشتمل على مسائل فى الفـروع فتدبر كيف يضع هذا التأليف ، فنام فرأى فى منامه قائلا يقول له : اذكـر ابا مسألة ، فجعله فى جزءين ، فسماه العـزابة ابا مسألة ، واما ابو محمد فكان يسميه جامع الشيخ ابى العباس .

وروى ابو محمد وابو نوح عن ابى العباس قال : أتانى آت فى منامى رجل ابيض فتقدمنى واتبعته حتى دخل فى قرية « تنزاج » من قرى نفزاوة ، ثم أتى المسجد وقصـد المحراب ، فقال لى : احفر فحفرت حتى أستخرجت قصعة كبيرة ، فوجدت فيها دينارا ، فقال لى خـذ ارث والـدك فسألت « بقابس » عن تاويل رؤياى رجلا حاذقا بتفسير الرؤيا ، فقال لى : القصعة العلم والخير ، والدينار الصافى دين والدك ، فرجعت الى « تمولسة » قال فبلغ فيهـا فى العلم مبلغا عظيما ، وصنف بها عشرين كتابا ، وكتابين معروضين عليه ، وقد عرض جميع ما صنف غير كتـاب واحد تركه فى اجلو مبيضا فى الالواح ، ورغب اليـه الاشياخ فى وصولها اليهم « بايفران » من قرى وارجلان فعرضها عليهم ولده ، وهم : اسماعيل ، وحمو بن المعز ،

وأيوب بن اسماعيل ، وداود بن واسلان ، وأبو سليمان الزواغي .

انكباب الشيخ على المطالعة زمن التلمذة

وروى ابو عمرو عن ابى العباس انه قال : كنت اقرأ على الشيخ سعدون واحضر مجالسه ، فاول ما وقعت فيه المذاكرة عنده مسألة ذبيحة الاقلف ، هل تؤكل ام لا ؟ وقال فى المسألة قولان ، ولم يزد على هذا شيئا ، قال أبو العباس وكان الديوان فى نفوسة مشتملا على تصانيف فى المذهب ، فلازمت الدراسة اربعة اشهر لم اذق فيها نوما ليلا ولا نهارا الا فيما بين اذان الصبح الى طلوع الفجر ، فنظرت فى اثناء ذلك فيما هناك من كتب المذهب التى وصلت من المشرق فاذا هى نحو ثلاثة وثلاثين الف جزء ، فتخيرت اكثرها فائدة فقرأتها حينئذ .

الفتنة التى وقعت بين اهل الدعوة باريغ ، وخروج المشائخ منها

وذكر انه وقعت فتنة ببلاد اريغ سنة احدى وسبعين واربعمائة ، وهى فتنة « خيران » « وتاغمارت » وهى اول فتنة وقعت بين وهبية اريغ ، فلم يمكن ابا يعقوب بن الشيخ مقام ، فهرب الى وارجلان فكان « بتماواط » وهرب أبو صالح من «وغلانة» فقضى الله بوفاة أبى يعقوب بتماواط فاوصى واستخلف على تنفيد وصية الشيخ اخاه أبا العباس ، فجاء أبو العباس الى محمد بن اخيه فلم يجد عنده ما ينفذ منه وصية والده غير دينار واحد ، لانهم كانوا فى عسر شديد عظيم ، بعد رجوعهم الى عين يونس ، فقبض منه الدينار فصرفه فى اوكد وجوه الوصية ، ولم يزل يستخرجها برفق حتى انفذها كلها .

وبلغ أبا محمد ان أبا العباس احتضر وكان قد استخلف أبا موسى على وصيته فجاء أبو محمد مبادرا الى

«أجلـو الغربى» فوجـدوه فى دار يحيى بن جعفـر فى السياق ، فاعلم بقدومه هو ومن معه ، فقال : ايتونى به وباصحابه فلم يدخلوا عليه الا وقد توفى ، رحمه الله ، وكان قد اوصى بان يصلى عليه أبو محمد ، فجهزوه وصلى عليه ودفنوه وكانوا قد ألقوا على القبر سترة فقال بعضهم انما هذا للنساء ، وقال بعض نصنعها للرجال وللنساء ، فهو احسن من ان لا تكون سترة ، فلما دفنوه دخلوا وعزى بعضهم بعضا ، وعزوا اهله فتمثل أبو محمد عند دفـن الشيخ أبى العباس بقول الشاعر :

كـفى الخليلـين ان الارض بينهـما
هـذا عليهـا وهـذا تحتهـا بـالى

وكان وفاة أبى العباس بذى الحجة سنة اربع وخمسمائة ، رحمة الله عليه .

أبو العباس أحمد الوليلى رحمه الله

ممن رزق على العبادة والطاعة طاقة ، وأيـد بالرضا والصبر على العـدم والفاقة ، وكان ذا كرامات يتناقلها الراوون ، وبركات لم ير مثلها الراؤون ، وكان له حسن اعتقاد ، وكثرة قناعة ، واقتصاد .

ساعة تجل ظهرت لابى العبـاس

ذكروا ان أبا العباس أحمد الوليلى طلع سنة من السنين الى جبـل بنى مصعب ، فى أيـام الربيع ، فصادفه هنالك شهر رمضان فلازم ربوة (1) يتعبد فيها عاكفا على القيام والصيام ، فلما كان فى الليلـة السابعة والعشرين مـن رمضان وكانت ليلة جمعـة اقبل على ركوعـه وسجوده ،

(1) وتعرف الربوه الآن فى ميزاب بجبل ابى العباس ، ومصلاه فيها معروف يقصد للدعـاء والتبـرك

فبينما هو كذلك اذرأى كل شيء معه ساجدا ، فلما سلم رأى نورا ساطعا وأبواب السماء مفتحة ، واذا بحورتين (2) قد نزلتا من السماء فقصدتا نحوه وقد التفتا في لحاف واحد ، احداهما كبيرة ، والاخرى دونها صغيرة ، لم ير مثل صورتهما ولا مثل نورهما الذى اضاء البر ، فقعدتا امامه والصغيرة خلف الكبيرة ، فخاطبتاه وجرى بينهما كلام ، حتى اعلمتاه انهما زوجتاه في الجنة ، فحاول الدنو منهما ، فقالت له الكبرى : اليك ، اليك عنا ، فان فيك نتن الدنيا ، ولكن الميعاد بيننا وبينك فى العام القابل ليلة الجمعة ، كدية الطبل من تينسلمان ، وهو منزل أبى العباس ، قال فصعدتا ، ثم اتبعتهما ببصرى حتى غابتا في السماء ، وغلقت الابواب دونهما ، فسار أبو العباس باثر ذلك الى وارجلان فاخبر بعض الشيوخ بما عاين ، فلما دنا الوقت جاء الى اريغ فمر بالشيخ أبى العباس ابن محمد بتينيسلا فرغب اليه هو والعزابة فى المبيت ، فابى، وجاء الى أبى العباس واخبره ان الميعاد بينه وبين الحور العين ليلة الجمعة المقبلة ، فقال لهم ابو العباس : دعوه فان الدولة عنده الليلة المقبلة ، فتوجه الى الرملة فاذا الحورتان كاسفتا اللون كأن بهما كآبة ، وكان أبو العباس اذا وصفهما يقول كأن العين منهما كالقدح ، والاشفار كجناح النسر ، وارنبتيهما كناحية قصر بنى يخلف ، فسألهما عن تغيرهما فقالت لبوحك بسرنا ، ولان اولياء الله يقتلون على امرهم بالحق ، وذلك حين قتل عبد الحميد الولیلی ، واستخف باهل دين الله وما كسن بن الخير يرجم بالحجارة لامره بالقسط ، قيل : وقد ذكرت له الا بدال

(1) هكذا ثناها الشيخ رحمه الله ، والا فالقياس حوراوين

حينئذ . ان ابـدال وقتهم سبعـة : عبد اللـه بن يحيى ، وابراهيم بن اسماعيل ، وابراهيم بن معاذ ، ويحيى بن عيسى ، والنعيم بن الولى ، وقيل سليمان بن عبد اللـه ، وصالح بن محمد ، وقيل يوسف بن ونماواى ، وقيل عبد الله بن يعقوب ، وهؤلاء كلهم رجال صالحون ، ثم قالـت له ليلة الاثنين تبيت عندنا ، وصعدتا الى السماء ، فلمـا صلى صلاة الظهر يوم الاحد بعد ان ودع اهله وقضى جميع ما أراد قضاءه موقنا بما لا بدله منه ، فقال لهم احسست صداعا فما هو الا ان صلى العصر فمات ، رحمه الله .

أبو زكرياء يحيى واخوه زكرياء

ومنهم أبو زكرياء يحيى بن أبى بكـر ، واخـوه أبو يحيى زكرياء رحمهما الله . كانا من الافاضل ، المقتفين آثار الاوائل، لم تزل نفس الديانة بحياتهما حية، وطرق البر ناهجـة والصلاحية ، وطلب علـوم المذهب وسيرمن تنسك او ترهب ، ولهما فى علوم النظر اطول باع ، بادلة ذات اقناع ، وحجج تملأ القلوب والاسماع ، وتغنى عند المحاضرة ما لا تغنى المشرفية عند القراع ، فكانا مـراد الفارين ، على تباعد الدارين .

ما عليه اهل وارجلان فى عهد الشيخ ابى يحيى

ذكروا ان أبـا يحيى زكرياء بن أبى بكر توجـه ذات سنة الى وارجلان زائرا ، ثم رجع فمر بجماعة من اصحابه بقنطرار ، فسألـوه عن احـوال اهل وارجـلان ، وكان ذا فطنـة وبصيرة ، فقال : إما انا ذهـب بصرى فلا أرى شيئا ، ولا رأيت احدا ، وأما وارجلان خلت فما بها احد.

وحكى ان اهل وارجلان قالوا له حين وصـل اليهم : أقم عندنا قليلا نتأنس بك ، فقال لهم : قولوا اقـم عندنا

قليلا يمت قلبك ، وذلك لما اطلع عليه من سوء طريقتهم ، ورداءة احوالهم (I) .

يابى من تلامذته التوقف دون اكمال الدراسة

وذكر غير واحد من تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف قال : اردنا الطلوع الى جبل دمر لدراسة الكتب ، ونحن جماعة نقرأ بتمولسة ، فلم يوافق ذلك أبا الربيع ولا أبا يحيى زكرياء ، فمضينا على ذلك فشيعنا أبو يحيى فقال : اعلموا ان سوء الرأي انما يخرج منه من دخل فيه بالرجوع عنه ، لا بالتمادى عليه ، وقال لهم أيضا : انكم ان مضيتم الى اهليكم على هذه الحالة كنتم كمن تعمد اماتة الدين ، وهذا تحريض وترغيب فى طلب العلم .

وكان كثيرا ما يوصيهم فيقول لهم : اياكم والتسارع الى قبول صنائع الناس وهداياهم ، فانه قيل كن عبدا لله ولا تكن عبدا للناس ، وانشد فى ذلك :

ولست وان قربت يوما ببائع
لديني واخلاقى ، رجاء التقرب

ويعتاده قوم لقوم تجارة
ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي

وكما قيل : اترك الطمع يتركك الفقر ، واحمل نفسك على مالك يحملك وارض بقليل من الرزق يرض الله عليك بقليل من العمل .

وكتب أبو زكرياء الى أبي نوح محمد فى مسئلتين : احداهما خلع الفضول هل ينعقد ؟ وذلك مثل رجل يقول

(I) كان اولى بالشيخ رحمه الله ان يقيم بينهم فترة لينير لهم الطريق خير من الهروب ، كما فعل من سبقه من المشائخ ، ولعله رحمه الله ادرى بالاحوال ، فراى ذلك اسلم .

احكام شرعية في الخلع والتصرف في مال الابن والزوجة

للآخر قد رددت لك مالامرأته عليك على وجه الطلاق ، فيقول : قد قبلت فيبلغ ذلك المرأة فترضاه ، فاجابه بان ليس فى ذلك شيء ، ولو اجازته لانه تقدم بغير امر ، والثانية الوالد والولد والزوج والزوجة هل يجوز لكل واحد منهما حوز مال الآخر ام لا ؟ فاجاب بانه يجوز ذلك للاب والزوجة ولا يجوز ذلك للابن والبعل لانهما خديمان وقيل فيهما غير ذلك ، قلت اما المسئلة الاولى فعلى اصل قول أبى الشعثاء رحمه الله لا ينعقد الطلاق لذلك على كل حال ، لانه عنده فسخ نكاح ، واما على قول أبى عبيدة فتخرج المسئلة على انه ان قال له تركت لك صداق امرأتك على ان يطلقها ، فيقول قبلت ، فتجيز المرأة الترك ويقبل الخروج من العصمة فهذا ينعقد ، والا فتحتمل الخلاف . واما الثانية فان الابن اذا كان فى حجر ابيه جاز له ، وان كان غير محجور فله من مال أبيه النفقة والكسوة والمؤن ، وفى مذهبنا العتق فى الظهار ، وليس له التصرف فى غير ذلك ، وللمرأة فى مال بعلها ما لمثلها على مثله فقط .

ينبغي للانسان ان يتزوج كفاه

وشاور رجل أبا يحيى زكرياء فى التزوج ، واى امرأة يتزوجها ؟ فقال : اذا جئت الى شجرة فاى ثمارها ايسر عندك ؟ ما مددت اليه يدك نحو فمك ، ام ما اشرف اليه عنقك ، أم ما طاطأت اليه رأسك ؟ فقال بل ما مددت اليه يدى ، وما كان امامى فلم احتج فيه الى مديدى الى الاشرف، ولا ان أطاطئي اليه رأسى، قال عليك بقرينتك.

وروى أبو عمرو عن أبى زكرياء بن أبى بكر انه كان كثيرا ما يردد قول يحيى بن معاد الرازى : للتوبة ثلاث مقامات ، الندم ، والاستغفار ، والحقيقة ، فالندم عند التحول ــ والشعور ــ بمرارة المعاصى ، والاستغفار طلب

الغفران بصحة الارادة ، والحقيقة الأوبة الى الله عز وجل فآفة الندم الامل ، وآفة الاستغفار الغفلة ، وآفة الحقيقة الشهوة فيستحسن فيعمر به مجالسه .

من ينبغى ان تجالس

وروى أبو عمرو عن أبى يحيى قال : قال الحواريون لعيسى ابن مريم : من نجالس بعدك يا روح الله ؟ قال من يذكركم الله رؤيته ، ويزيد فى علمكم منطقه ، ويرغبكم فى الآخرة عمله ، قال ابو زكرياء ، مثل ابى يحيى ، وقال ابو عمرو مثل ابى زكرياء .

مصالة بن يحيى ، وفلفول بن يحيى

ومنهم مصالة بن يحيى ، وفلفول بن يحيى رحمهما الله لكل واحد من هذين الشيخين مآثر ، وفضائل مخلدة فى بطون الدفاتر ، ينقلها عن الاوائل الاواخر ، معدودين فى اهل العلم والديانة والبصائر .

كان الشيخ عظيم الثقة فى الله تعالى

ذكروا ان مصالة بن يحيى كان كثير الثقة بالله عز وجل ، وكان يقول : انما استدللنا على ان الله عز وجل قد استجاب دعاءنا الذى ندعوه به فى امر الاخرة ، بما شاهدناه من اجابة دعائنا فيما نسأله فى الدنيا .

وذكروا ان مصالة بن يحيى اوصى داود بن ابى يوسف فقال : اذا عمل اهل وارجلان عملا مما لا تعلم فاحمل نفسك على انك لا تعلم ، وان كان مما تعلم انه سوء عمل فاحمل نفسك على الكتمان ، ودع عنك الاختلاف ، وقد حكاه آخر عن ابى عبد الله ، وقال ابو نوح كان مصالة اذا سئل بماذا تصلى هذه الفضيلة او هذه النافلة من القرآن ؟ يقول : القرآن كله قدح عسل فما والاك منه وجدت عسلا .

كان لا يرى تفاضلا بين آى القرآن

احتفاؤه بالتلامذة

وعن جماعة من تلامذة ابى الربيع سليمان بن يخلف قال لما انفصلنا عن « تمولست » وتوجهنا الى بلادنا جزنا على ناحية اريغ ، فسلكنا من « وغلانة » ومررنا بفلفول بن يحيى فاكرم مثوانا ، واحسن نزلنا ، وكان يقول مع ذلك معتذرا قريتنا صغيرة ، ودراهمنا قليلة ، ويتمثل بالبيتين :

أرى نفسى تتوق الى المعالى
ويقصر دون مبلغهن مالى

فلا نفسى تساعدنى ببخل
ولا مالى يبلغنى المعالى

واقبل تلك الليلة على مؤانستنا وافادتنا بغرائب الاخبار والسير ، حتى كاد الفجر يطلع ، فمما حفظناه تلك الليلة أجوزة فى الوعظ اوردها علينا وهى قول الراجز :

اذا رأيت صلعا فى الهامة
وجذبا بعد انتصاب القامة

وصار شعر الرأس كالثغامة
فأيس من الصحة والسلامة

وعد الى التوبة والندامة
فقد عليك قامت القيامة

وقال : لما مات أبو عبد الله محمد بن بكر قلت للمشائخ « اقتفوا بنا آثاره مادات جديدة غير مندرسة ، قالوا مهلا عليك ، فساعدتهم حتى عفا الاثر ، ودرست السير . ولما انفصلنا شيعنا فقال له احدنا : ارجع ، فقال آه ، لا يقال

كذلك ، انما يقال انظر فى الرجوع ، ولم يزد بعد هـذا خطوة ، لانه قال : انه ماجور ما لم يقل له ارجع ، وكان هذا الشيخ شديدا فى الامر والنهى والدب عن دين الله ، فروى انه حين احتضر كان يتمثل بقول عمران بن حطان رحمه الله :

حتى متى لا أرى عـــدلا اســر بـه
ولا أرى لـدعـاة الخـير اعـوانا

فتح عليه بالقسم الاخير ، وعجز عن الاول ، فطفـق بسئل من حضر كيف القسم الاول من هذا البيت ؟ فكـان هذا من آخر كلامه ، رحمه الله .

أبو موسى عيسى بن يرصوكسن

ومنهم ابو موسى عيسى بن يرصوكسن رحمه اللـه . الشريف منسبا ، الطيب مكسبا ، الرفيع مطلبا ، الهاشمى العربى ، وابن عم النبىء ، نماه عبد المطلب والعباس ، فانتمى الى اشرف بناء قائم على اثبت اسـاس ، الديـن حليته والحياء والكرم جبلته ، والسخاء سجيته ، وهو ممن يتعلم منه الورع والعلم ، وممن يطعم ولا يطعم .

الشيخ احيى مواتا وعمره فظهرت فيه البـركة

فروى ان عيسى بن يرصوكسن شاور أبا يعقوب يوسف المعروف بالطرفى فى نزوله المنزل المعروف « بتلاعيسى » المنسوب اليه ، فاخبره بحال البلد ، فدله على ذلك ، وشكره له ، الا انه قال : اذا توطنت هذا الموضع فلا تمش راجلا ولا تشرب ماءه الا ممزوجا ولا تشربه صرفا ، واستخدم ولا تخدم بنفسك ، وكن للناس كالسمار مع الماء ان علاه الماء خضع ، وانا علا الماء سطع ، فبلغ فى هذا المنزل مبلغا عظيما هو ، وبنوه من بعده ، يحيى وداود ، وعبد الله بن

يحيى ، وانضم اليه الناس وسكنوها معهم ، وغرس بها الشيخ عيسى الاشجار من النخيل ، وصار في النخيل ودايا كثيرة ، وكان اذا قلع الودايا الراكبات في الامهات يسلخها ويرفع جمارها الى « باماوط » مع لحم ما يصيده من الوحش والظباء والارانب ، والظلمان ، والبيض ، والحبارى وغير ذلك ، فيهدى ذلك الى المشائخ العزابة ، فيأكلون اللحم والجمار ، فكان يتبرك بذلك فبارك له ربه في كل ما يحاوله ، وسعى في اصلاح فساد المفسدين من بني وليل حتى اصلح الله فسادهم ، فاستقامت عمارة هذا الموضع ، واشتهرت بركته ، وعمره جماعة معه من المشائخ ، وانضافوا اليه ، ومنهم من ضرب في العقار بسهم وان لم يستوطن المنزل ، والجماعة المذكورة هم : ابو عبد الله بن بكر ، ومحمد بن الخير ، وماكسن بن الخير ، ومعاد بن على ، وعبد السلام بن ابى وزجوف ، وان آثارهم بها الى اليوم معروفة .

خبر خيل الميورقي عندما وصلت الموضع

ولقد حدثني رجل ينتمي الى « لمتونة » يعرف بابن القابلة ، ورد توزر سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، قال : وكنت في خيل يحيى بن اسحاق الميروقى[1] متوجها بعسكره من اريغ الى وارجلان ، أو قال من وارجلان الى اريغ ، فنزل « تلاعيسى » ، وأراد الاجناد والاعراب ان يطلقوا خيلهم في الزرع ، فانذرهم بعض من معهم ممن عرف قديما حال الموضع واهله ، وحذرهم ، فقال : « هذا موضع منسوب الى رجال عزابة ، صلحاء مساكين ، يتقى عقوقهم ، فاياكم واياهم » فمن الجند من تنحى ومنهم من توقف ، فقال لهم عمران كاتب الميروقى ؛ « أبكلام هذا السخيف أسنع فرسي هذا الخصب ، قال لهم ، فليدعوا على

(1) هكذا اثبتت نسبته النسخ المعتمدة

فرسي ، واطلقها في الزرع ترعى ، واقتدى به غيره في هذا الضلال ، والاستخفاف بقدر أولياء الله ، قال وكانت فرس عمران تسوى اربعمائة دينار ، قال فوالله ما رفع من هناك الا رستها وسرجها ، وانها السابقة سبعة وعشرين فرسا للمستخفين من الاعراب ، والاجناد ، كلها صرعى هلكى عبرة لاولى الابصار .

ويروى ان جماعة من دعار بني ولسيل بلغهم ان الشيخ عيسى عزم على المسير الى اريغ ، فهموا بقتله ، ورصدوه ، فركب بغلته وصرف وجهها الى ناحية اريغ فشمست وامتنعت عن المشى ، فضربها فتولت وذبحت براسها ، فلما رأى ذلك استخار الله تعالى فى الرجوع ، فلما رجع الى اهله شعر بمكر اعداء الله فقال : قد وقفت عند كل ما أوصاني به الشيخ ابو يعقوب الا الخدمة فاني لم اجد بدا من الخدمة بنفسى ، يريد لو لا سبب ركوبي ما نجوت من مكر اعداء الله .

اسماعيل بن يدير

ومنهم اسماعيل بن يدير رحمه الله . لم يتأخر عن تلك الطبقة ، ولا فاتهاحد من تلك الحلبة ولا سبقه ، بل هو معدود فى المبرزين ، نقي من درن اعجاز المعجزين ، واذا عد الحفاظ كان أولهم تحصيلا ، أو سمى المجتهدون فهو الذى لا يفتر بكرة واصيلا .

ديوان العزابة والذين تعاونوا على تاليفه

ذكر غير واحد من المشائخ ان جميع الطلبة العزابة لما اجتمعوا على تأليف كتاب فى المذهب ، يسهل على المبتدئين حفظه ، وجعلوه خمسة وعشرين جزءا ، انفرد الشيخ اسماعيل بكتاب الصلاة ، فجاء فيما نحوه احسنهم تأليفا ،

وجاء تأليفه أحسن من تلك التواليف رتبة ، واكثرها فائدة وقيل بل جمع اسماعيل كتاب الصلاة كما ذكر ، وجمع ابو العباس بن بكر كتاب الحيض ، وجمع يخلفتن بن ايوب كتاب النكاح ، وجمع محمد بن صالح كتاب « الوصايا » ولما مات ابو سليمان داود بن ابى يوسف اجتمع تلامذته على تأليف الكتابين المنسوبين اليه ، وليس هو مؤلفهما ، وقال ابو عمرو بل تركهما فى الالواح فعرضهما ابو العباس ، واما الذين ألفوا كتاب العزابة فهم ثمانية شيوخ عزابة طلبة مخلصون ، منهم من نفوسة : امسنات يخلفتن بن ايوب ، ومحمد بن صالح ، ومن قنطرار : يوسف بن موسى . ومن تجديت : يوسف بن عمران بن ابى عمران المزاتى . ومن اريغ عبد السلام بن ابى سلام ، وجابر بن حمو ، وابراهيم بن ابى ابراهيم ، وعرضت هذه الاجزاء على ابى العباس وابى الربيع وماكسن ، وقال ابو الربيع لا يطعن فى هذا التأليف الا شيطان ، ولست ادرى هل الاجزاء المتقدمة الذكر داخلة فى تكميل الخمسة والعشرين ام زائدة عليها .

الطبقــة الحادية عشرة 500 هـ 550

عبد الرحمن بن معــلى

منهم عبد الرحمن بن معــلى رحمــه الله ورضى عنه . ذو المقامات الكريمة ، والكرامات العظيمة أول من أسس بمسجد تقورت الحلقة وانهج طرقها ، واحكــم عقودهــا واوثقها ، وقيدها ووقتها ، وحجر على تلامذته أزقتهــا ، وقسط موازينها ، وحقق قوانينها ، فتخلق كلهم بحميــد هذه الاخلاق ، وتيممها طلاب الخير مـــن جميع الافاق ، يشاهدون البراهين والعبر ، يشهدون المنافع الكبـــيرة ، ويأخذون السنن عن الثقاة والسير ، ويصدقون المخبـــر والخبر ، فلا يكلفهم بمحمل العلوم ، حتى يتجاوزوا هذا المقام المعلوم

رؤى الشيخ وبشارته بالجنـــة

حدث ابو الربيع عن شيوخ عدة ان الشيخ عبد الرحمن رحمه الله لما حانت وفاته وبشر بلقاء الله وتحقق قربــه استدعى اخوانه ، وتلامذته ، فاجتمعوا عنده فى جمـــع كبير ، فاعلموا انه يروم سفــرا ، فاراد توديعهـــم وان يوصيهم ، قال : فحضروا بقلوب كليه غير كليلة ، وكآبة كثيرة غير قليلة ، فقال لهم : اوصيكم بتقوى الله ، وملازمة ما انتم عليه ، وان لا تبدلوا ولا تغيروا ، فانكم والله على

طريقة الهدى ، فان اهل هذا الطريق لمفلحون ، واسمعوا أحدثكم ما رأيته البارحة ، رأيت كان القيامة قد قامت والناس من قبورهم ينتشرون ، والى ربهم يحشرون ، فانتشرت من قبرى ، فرأيت جمعا كبيرا نظر الوجوه بيض الثياب باهر حسنهم ، وجمالهم ، صالحة شؤونهم واحوالهم ، قد انتشرت من مقبرة بتجديت ، فقلت من هؤلاء ؟ فقيل لى : هؤلاء العزابة الوهبية ، فوهب الله لى جناحين فطرت بهما ، حتى اتصلت بهم فكنت احدهم ، فبشرت بالخير ، ثم نظرت الى ناحية أخرى فرأيت أناسا كالجذوع المحرقة ، فقلت من هؤلاء ؟ فقيل لى : هؤلاء الاعراب ، وبنو « تاكسنيت » ، ولقد رأيت فى الجمع الاول رجالا اعرفهم بأعينهم ، من جباة بنى سيتتن ، فقلت لهم بم فارقتم اهل الشقاوة ؟ فقالوا بمخالطة اهل الدعوة ، فاذا كان بملازمة أولئك فما ظنك بالمجتهدين ، وبأهل الفضل والدين ؟ ثم قال : ومصداق كل ما قلت لكم: انى اذا مت وغسلتمونى وأردتم تكفينى فان طراز الكفن يجىء على عاتقى فتريدون تحويله ، فتحولوه ثلاث مرات فيجىء على عاتقى، فتبقونه حينئذ على حاله، ثم اذا حملتم جنازتى وخرجتم تبعتكم عشر حمامات بيض تتبع النعش ، حتى تضعونى فى المصلى ، لتصلوا علي ، فانكم تصطفون فتكون الحمامات صفا من ورائكم ، فاذا هممتم بتقديم من يؤم بكم فى الصلاة على فان جماعة من صلحاء اهل قرى قبلة اريغ سيقدمون برسم زيارتى ، فيعلمون بموتى وخروج جنازتى ، فيخرجون ليصلوا على ، فيرونكم فى أهبة من تقدمون فيقولون لكم من بعيد : رويدا ؛ لا تعجلوا ، فتنتظرونهم ، فاذا وصلوكم كان الذى يؤم بكم اجد

القادمين ، وهو ولي من أولياء الله ، فساءهم واناالهم من الجزع عليه كلما خدثهم ، حتى اذا كان عند التكفين كان ما اعلمهم به ، فتذكروه ، ثم كان من شأن الحمام والزائرين ما اعلمهم به ، فلما وصلوا قدم الجماعة ابا عبد الله محمد بن الخير ، فهو الولي وانه لذلك لحرى ، قلت لعل المذكورين من الجباة من لا يتقلد التباعات ، وكذلك فيما بلغنا كانت تلك الجماعات ، وان الجباة اذ ذاك محسنون عدول فى الجهات .

ابو اسماعيل ايوب بن اسماعيل

ومنهم ابو اسماعيل ايوب بن اسماعيل رحمه الله . بحر تتقاذف في غواربه السفن ، وبدر يقتدى به من اقتفى من المقتفين ، ان سئل فى العلم اجاب فاقنع ، وان استسيل غيث سمائه فى سماحة صاحب فاوسع ، وان استقسى فيهما معا اروى فانفع ، وملأ الآذان والايدى ، بالافادتين وانزع ، وهو ممن وقف على علاماته ، وشوهد عجائب كراماته ، شيخ شيوخ اكثرهم ساد ، وقل ما روى من تلامذته الا من استفاد .

حدث جدى يخلف بن يخلف التميجارى رحمه الله قال : كان شيخنا ابو سليمان ايوب بن اسماعيل كثير الابرار لتلامذته ، وكانت له داران بوارجلان متقابلتان ، يفصل بينهما طريق ، وفوق الطريق ساباط وصل بين الدارين من علو ، فاحدى الدارين دار سكناه والاخرى مطلقة للتلامذة ، والاضياف ، فما كان فى دار سكناه من تحف وضيافة يتحف بها تلامذته ، أو يكرم بها اضيافه فاتينا يوما بجماعة من تلامذته الى الدار التى ابيح لنا فيها

الخبر عن دار الطلبة والضيوف

التصرف فوجدنا بابها مغلوقا ، فقرعناه فلم يجبنا احد ، فوقفنا ، فاذا الباب مفتوح ، فدخلنا فلم نجد احدا ، فعجبنا لكلا الامرين ، فانا لكذلك اذ نزل الشيخ من جهة الساباط فصادفنا عند دخولنا الدار ، فقال من أين دخلتم ؟ وانا أغلقت الباب ؟ فقلنا : أو لست فتحته أو امرت من فتحه ؟ قال : لا ، ولكنى اعلم ان فى الدار من فتحه لكم ممن لا ترونه ، والا فليس فى الدار غير الهرة التى ترونها ، وكنا شاهدنا آيات ذلك مرارا ، فمنها ان أحد عمار داره الذين اليهم يشير ، وعنهم يكنى ، وانا لا نراهم ، أنثى ذات ولد ، كان يخاطبها وتجاوبه اعلانا وكان يوما من الايام ملازما للدعاء ، وكان الزوار يدخلون مثنى وفرادى لا يعرضهم مكروه ، حتى دخل شخص غريب لا رفق معه ، فلما دخل صرخ ورأيناه فى اسوأ حال ، فقال الشيخ مالك ولهذا الشيخ المسكين الضعيف ؟ فسمعنا صوتا مجاوبا له يقول : انه ظلمنى ، كنت عند عضادة الباب وابنى فى حجرى ، فكل من دخل استأذن وبسمل فأنحي ابنى عن الطريق ، فلا يؤذينى احد ولا ولدى ، حتى دخل هذا الجافى فلم يستأذن ولم يبسمل حتى ركض ابنى برجله ، فآلمه ، فجازيته على ذلك بمثله ، فقال لها : ومع ذلك كله غريب مسكين قليل الحيلة قليل القدرة فازيلى عنه ما اصابه منك ، قالت سمعا لك وطاعة يا شيخ ، فذهب فى الحال ما كان من سوء الحال ، ومثل هذا كثير .

وكان والدى رحمه الله متألما ذات يوم لعلة كانت تعتاده فحاولت ما اسلى به نفسه ، واريح به ألمه ، فناولت تعليقة فيها شعر الشيخ ابى يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتى رحمه الله ، فصادفت القصيدة البائية فجعلت اسرد ابياتها

بحيث يسمع فاصغى الي سمعه وسلا ما كان بـه ، فقال :
اعلم ان هذه القصيدة قالها ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم
يرثي بها شيخه ابا سليمان ايوب بن اسماعيل ، ثم قـال
وان فيها الدلالة على صحة خبر كنت سمعته في صغرى من
ابى رحمه الله فقلت وما هو قال : كان ابى فى زمـــان
شبيبته مهاجرا بوارجلان يقرأ على شيخـه ابى سليمـان
ايوب بن اسماعيل حتى قضى حاجته من الطلب ، فانفصل
فجـاء الى قسطيلية فاقام بموضعه بكنومة ما شاء اللـه ،
فبلغه موت عم له كان مهاجرا بوارجلان قاطنا بها بتماواط
وليس له وارث سواه ، قال ابى فسافرت الى وارجلان سفرة
ثانية طالب ورث لا طالب علم ، فلما وصلتها سألت عـــن
شيخنا أبى سليمان لأزوره ، فاخبرت بان الله قد ابتــلاه
فى جسده ببعض ما ابتلى به اولياءه فعم جسده الجــذام ،
ولازمه اشد لزام ولازم المضجع لا حركة له ، فجئت عجلان
ولهان ، فلما دخلت عليه نظر الي وعرفني ، فتقدمت اليه
لاسلم عليه ، فخاطبنى خطاب محذر ان اعافه واتقــذره ،
فقال اليك اليك يا سليمان يا ولدى ، فليس فى حالى مــا
تدنو منه ، فقلت : حاشا للـه ان اتقذرك ، يا شيخنا ،
وسقطت منكبا عليه اعانقه واقبله وابكى ، حتى شفيـت
بعض هيامى ، قال سعيد : ما علمت ان ابى حكاها قط الا
بكى وابكى ، قال احمد : ولا علمت ان سعيدا حكاها قط
الا بكى وابكى ، ولا علمت انى حكيتها قط الا بكيـــت
وابكيت ، قال سليمان : واقمت مدة اقامتى بها لا افتــر
عن الدخول عليه حتى اقتضيت ما كان لى من حق ، فلما اردت
السفر قافلا وودعت الشيخ وزودنى بالدعاء وعموم البركة
فانفصلت وقد بشرنى بان سيخلصنى الله من شدة عظيمة

زيـارة والد المـؤلف للشيخ ابى اسماعيل

فلما صرنا من وارجلان واريغ وكنا في رفقة كبيرة فيهـا أموال جليلة ومعي مال صالح ، مما خف وثقل ، فاغارت علينا خيل كثيرة ، وقد نسي احمد من أي العرب هي ، قال فبادرت ودفنت كل ما معي فعلمته بحربة كنـت دفنـت عودها، وتركت السن بارزا ليكون لي علامة، وكانت الحربة صقلية ، واستباح الاعراب جميع ما في الرفقة من قليـل وكثير وجليل وحقير ، واسروا الرجال ، فلطف الله تعالى به وعجل فرجه ، قال فامنوني ولـم يعرضني احـد منهم بمكروه ، وصحبتهم كاني أخ لهم ، فلما كان من الغـد جددوا لي الامان في نفسي ومالي فاستاجرت احدهم وصحبني الى الموضع الذي دفنت فيه ما كان معي فرأيت سنان الحربة من بعيد ، فمشيت اليه واستخرجت كل ما دفنت فحملته وحملت الاجير والمتاع ، وجئنا حتى وصلنا ، والعجـب للحربة اذ لم يرها احد من العرب بالامس ، وهي ظاهـرة تلمع ، وقدمت الى اهلي سالما من جميع الآفاق ، وما ذلـك الا بفضل الله وبركة الشيخ رحمه الله .

والقصيـدة هي هـذه :

ايـوب مـا ايـوب لا ايـوب
أودى بـه قـدر الردى المجلوب

فتلوثـت أيامـه وتصرمـت
حينـا عليـه ، وللردى تعقيـب

علقتـه اشراك الـردى من بعدما
اوفى عـلى مائة ، وجاب الجـوب

ما خط في المكتوب لا يخطئ الفتى ،
وكذا الفتى لـم يخطئه المكتـوب

حكمت عليه يـد المنيـــة حكمهـا
قبل الممات ، ولوحتـه خطـــوب

سدكت بـه امـراضه و تنحــلت
أوصاله ، لم يشف مـنه طبيـــب

دب البـلاء بجسمه بعـد البـلى ،
فله به طـول الحيـــاة دبيـــب

ذهبت بشاشتـه ، وشـرة مابـه ،
وعلاه من بعـد الشحوب شحـــوب

وتغـيرت منـــه المحاسن كلهـــا
فتؤوب حينا ، ثـم بعـد تلـــوب

حتى تخيـــل كالخيـــال خيالـــه
بعـــد النضارة والـــرداء قشيب

فانسل منـــه الروح عنـد وفاتـه ،
بــابى وامـى الطاهـــر المسلـوب

بل مـــات سبـــع سنين قبل مماتـه
لـــم يبق الا الروح والتـركيـــب

فى كـــل ما يوم يمـــر وليلـــة
ابـــدا يقلب ظهـــره التقليـــب

ضــاه النبىء سميـــه فى دأبــــه
اذ البـــلايـــا بجانبيـــه تـــذوب

فلذا عــدا الــدهر الملوم بصرفـه
فكذاك كــان سميـــه ايــــوب

قـد كان ذكـرى للعباد ورحمـة
للعالمـين ، وانـه لمنيـب

فلئن اتى أيـوب يطلب أجـره
يـوم القيـامـة والالـه مثيـب

واتى امـام الصابريـن يقودهـم
فلأنت انـت الصـابر المنكـوب

ولئـن أتى يحيى الحصـور سيدا ،
لهو الحصـور السيـد المحبـوب

ولئـن أتى عيسى بن مريم زاهـدا
لعـلى هـداه ، وهـديه المحبـوب

ولئـن أتى يعقـوب يحتسب ابنه
اذ غاب عنـه وانحنى يعقـوب

فلكان هـذا كان اعظـم رثـوة
مـن مثكـلات جلهـن رقـوب

بكت السمـاوات العـلا ونجومها
حزنا عليه ، والفـلا والـروب

واستوحشت منـه المساجد كلهـا
لما خلت منـه ، وحـن النيـب

واستشعر التقوى شعـارا خالصا ،
فدثـاره الترغـيب والترهـيب

الف التقى فاعتـاده حبـالـه
وجفا الذنوب ، وقـد جفتـه ذنوب

سبق الخلائق كالجواد بشدة
لما استوى عتقا به الا لهوب (1)

بد السوابق كلها متهللا ،
كيف السؤال اذا احتمى اليعبوب

فضلت فضائله الفضائل كلها ،
واها لجسم لم تشنه عيوب

رجل أتاه الله ربى بسطة
فى العلم ، والجسم الكريم لبيب

لله عبد خالص ، متخشع
متهلل ، متهيىء ، متعوب

عبد دعاه الاهه فاجابه
لما تيقن انه مربوب

منحته ابصار العباد محبة
لما رأته ، والوداد قلوب

طاب الثناء به ، فطاب رثاؤه
والمدح والتبيين ، والتقريب

اضحى اسير الله فى ايامه
فى العالمين ، وحاله مغلوب

والعقل اوفر ما يكون ، وانه
كالشمس نور ثاقب مثقوب

وجه اغر ، وشيمة وجلالة
من نور رب العرش ، وهو مهيب

(1) الالهوب اسم من الهب الفرس اجتهد فى الجرى والعدو

يـا غائبـا مـا تنقضى حسراتنـا
ابـدا عليـه ، ولات حـين يئـوب

يا غائبـا سكـن الثرى فى حفـرة
تعلـو الصفائـح قبـره والطـوب

ان غبت عـن ابصارنا وسماعنـا
لـم تحتجبـك عـن القلوب غيوب

قد كان آن لـك الجـواب لسائـل
يدعو ، ويسئـل كيف كنت تجيب ؟

ما كان ضرك لـو اجبـت نـداءه
ان الحشا ضـرم ، وانـت قـريب

فلئن رحلـت وغبـت عنـا ميتـا
للحـزن فى الدنيـا عـلي رقيـب

ولقد رأيت الخلـق يـوم مصابه
والنعش بعـد لقاهم مـركـوب

حـيرا سكـارى ، هائمـين لما بهم
زمرا ، حيـارى ، مردهم والشيب

تبكى لصرعـته الغـوانى نـوادبا
عـون النساء، وغـادة رعبـوب

فى مأتم حـور المدامع قـرح ،
كادت تمـزق اثـوب وجيـوب

واذا انتحبـن تفرقـت اكبادنـا
وتصدعت منـه القلـوب الهيـب

خطب اجل ، وعبـــرة مسفوحة ،
مهراقــة ، ان الخطـــوب تئـــوب

وعــلا النحيب على رؤوس العاليـ
ـــن الحاضرين وأين منـــه نحيب ! !

وترى العيون مـــن الدموع كانهـــا
ديم السمـــاء تهمى الحيا وتصـــوب

واذا دعـــون ترنمـــا وتفجعـــا
واعمهـــن ! تهتـــك المحجـــوب !

واذا تراجعـــن البكـــاء تفطـــرت
منها النفوس ، وللقلـــوب وجيب

يا يوم مات ولم امـــت كمداً لـــه
اعظـــم بـــه حزنا عـــلي نديـــب

يا رجـــة للعالمـــين لفقـــدهم
علـــم الهـــدى ، وتعـــذر الاسلـــوب

عمدوا الى جبـــل ظليـــل ظلـــه
سكنـــوا ذراه ، ورأســـه لشحوب

جعلـــوه تحت الارض ثـــم تنعمـــوا
يا للخلائـــق ، ان ذا لعجيـــب !

لهفى عـــلى الظـــل الـــذى ضمنته
بطن الثـــرى ، والمستراد رحيـــب

جادت بـــه الدنيـــا وثـــم بدالهـــا
سلبته ، ان الســـالب المسلـــوب

نسيت مناقبــه الــتى سلبت لـــه
والباقيات الصالحــات الطيـــب

فالدين يبكى شجـــوه مـــن فقده
بحلالــه وحــرامــه منســـوب

فكأن مجلســه مساجـــد اسســت
سكنا عـــلى تقـــوى ، ولا تصخيب

يعلوهــم فيــه الوقـــار تخشعـــا
ان الطيور عـــلى الرؤوس رقيــب

لم يشنأوا فيـــــه بغيبــة غائـــب
سفهـــا ، ولا نبـــز ، ولا تقليـــب

طوبى لــه ، عمرا طويلا خالصـــا
فى طاعـــة الرحمن ، وهـــو اديب

مـــن للصلاة بجــوف ليــل مظلم
والليل اســود حالــك وغريــب ؟

او للصيــام اذا تطـــاول يومــــه
وامتــد طرفــاه وهــاج لهيـــب ؟

أو لليتامى والارامـــــل بعــــده
وتواتـــرت فى العالمـين حــروب ؟

أو للامور اذا تفاقــم هـــولهـــا ،
أهل النهى والرأي بعـــد غــريب

وتفاقــم الخطــب العظيـــم لفقده
ولربما هانت عليـــه خطـــــوب

في المعظلات تلاحكت وتلابكت (I)
واستعجمت ، واستبهم المطلوب

أو للجموع اذا اتت وتباينت
وعلا الكلام ، فجفجف الخطيب

وترى الخلائق افحموا ، وتهافتوا
والناس منهم مخطيء ومصيب

يكفيك ، بل يشفيك مما ترتجي ،
فهو الخطيب وانه لمنيب

جمعت محاسنه المكارم كلها
والمسلمون خلائق وضروب

ما ضرنا ما فاتنا من بعده
لم تبق الا روضة وكثيب

ما يعبأ الاعمى بظلمة ليلة
أو حال من شمس النهار غروب

فعليه رحمة ربه وسلامه
حتى القيامة والاله وهوب

سبقت به الايام باقي دهرنا
فمضى وما ادراك ما ايوب

خلق ابن آدم عرضة لمهالك
ان المنية يومها لمصيب

(I) تلاحكت الحوادث تداخلت والتصق بعبها ببعض ، ومثله تلابك الامر أو الشيء اختلط وتلبس

أبو زكرياء يحيى

ومنهم ابو زكرياء يحيى بن ابى زكرياء رحمه الله . كثير الغضب فى الله وعلى دينه ، شديد الغيرة مستشعر خشية الله عز وجل ، لا يخشى غيره ، وقف عندما حده المشائخ ، واعتقد ان طريقهم لجميع الطرق ناسخ ، فهو على بصيرة فى دين راسخ ، قرأ العلوم واتقنها ، ووضح المشكلات وبينها ، ورتب السير واحكمها ، وتعلم العلوم وعلمها .

روى ابو عمرو عن الشيخ ابىزكرياء انه وجد الشيخين عبد الله بن عيسى ، ويوسف بن موسى متصارمين ، فسعى بينهما حتى ازال ما وجد بينهما من وحشة ، وما كان له علم بسبب ذلك ما هو ، فقال له يوسف اما ترى يا اخى ما نالنى منه من العقوق وانا اقرأ فى جزء من كتاب «الاشراف على مسائل الخلاف ؟ » فتوجه الى « تونين » فاجتمع بالمشائخ فاعلمهم بما رأى فبعثوا الي بالهجران ، فاسرعت فى اللحاق بهم فلامونى ثم قبلوا توبتى فسعى فى طيب نفس كل واحد منهما علىالآخر حتى طابت نفوسهم وله فى الادب نبذ تذكر فى مواضعها ان شاء الله .

أبو محمد عبد الله اللواتى

ومنهم أبو محمد عبد الله بن محمد اللواتى رحمه الله هو عبد الله بن محمد بن ناصر بن ميال بن يوسف وزير الامام افلح رضى الله عنه وتربته القديمة « بمرقة[1] » فيما ذكروه ، نجيب النجباء وامام الادباء ، المعتنى بحفظ الاخبار ، وتقييد سير الاخيار ، درس العلوم زمانا وصحب الاشياخ ضروبا والوانا ، حتى غدا وافر البضاعة فى كل

---

(1) فى نسخة « برقة »

الفنون ، مقلداً في كل مفروض ومسنون مميزاً في مكيل ومدروع وموزون ، قرأ عليه جماعة من التلامذة فنجبوا ، وطلبوا ففازوا بما طلبوا .

ذكر ابو الربيع ان ابا محمد عبد الله قدم الى اريغ سنة خمسين واربعمائة وهو ابن ثماني عشرة سنة ، وكان في حلقة الشيخ يزيد بن يخلف الزواغي ، وله لوح طويل فلما وصلوا الى « اجلو » خرج اليهم الشيخ « ماكسن » فصافح العزابة ورجع الى أهله فلحقته خارجا ، فقلت له : يا شيخ ان العزابة قد اتفقوا ان لا يفترقوا ، فهل يجوز لي ان افارقهم ان رايت في مفارقتهم مصلحة ؟ فقال لي انما جعلنا الله احرارا لنملك امرنا ، فصحبته ، فكان هذا امره مع ابي محمد ماكسن .

انا جعلنا الله احرارا لنملك امر نفوسنا

وذكروا ان سبب سفر أبي محمد الى القلعة فكان مما عرفه به مدوار ان قال له : تركت كتابا في تفسير القرآن من تآليف الامام عبد الرحمن ينادى عليه بالبيع في سوق القلعة ، فسافر وليس له هم ولا ارب غير الكتاب المذكور ، واستبضع شيئا من الشب يظهر أنه تاجر ، وغرضه ان يستتر به فيما اعتمده ، وكان وصوله اليها في فصل الخريف فلما وصلها جعل يسأل عن الكتاب في خفاء برفق وسياسة ، فبينما هو يسأل ذات يوم لقي رجلا نكاريا يدعى علم مسائل الفروع ، فسأله عن الكتاب المذكور فقال له :متأسفا على فواته ؛ قد بيع قبل قدومك ، قال ابو محمد وكان في القلعة حينئذ رجل من أهلها يعرف « بمحمد بن عصمة » ، متفقه مدرس عليه حلقة ، فكنت احضر مجلسه ، واعد من جملة آهل حلقته ، فحضرنا عنده ذات يوم فقال لابن له سمعت بأن أغناما لبني ينجاسن دخلت السوق ، وما ضرنا

سفر الشيخ الى القلعة بحثا عن تفسير الامام عبد الرحمن

ان نجتنب الشراء من السوق ثلاثة أيام فان من العلماء من يقول : اذا دخل السوق ريبة فدع الشراء ثلاثة أيام ثم لا حرج بعدها فى شراء ، قال ابو محمد فاعجبنى ما قاله ، فجلسنا يوما عنده حتى تذاكروا الفقهاء ، وذكروا ابا حنيفة فقلت : أليس قد قال مالك : ابو حنيفة شيطان قذفه اليمّ ، ابو حنيفةاضل لهذه الامة من شيطان رجيم ؟ وذلك لوجهين احدهما كونه يقول بالارجاء ، والآخر لنقضه السنن بالرأى ، فلما قلت لهم ذلك وقعت عليهم وجمة وعلتهم كآبة ، ودهشوا فقام الى رجل منهم وفى لسانه ثقل فقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقلت له انى لم اقل من عندى شيئا انما هو قول قاله مالك ، فقال لى : حسبك بالعلماء بينهم كالضرائر ، قال أبو محمد فاشتريت كتبا ووجهتها فى رفقة فأصيبت، ثم استأنفت النظر فى شراء كتب اخرى فبلغ اصحابى ان كتبى التى وجهت قد اصيبت فقالوا لى : ألا تكلم السلطان فى حقك لتكون من قبله معونة فى الذى تحاوله من تحصيل الكتب ، فانه شغل ليس بحقير ؟ فقلت لهم : لا ، بل ان كانت لى حاجة فى شىء رجعت اليكم ، ثم استعنت بكم ، قال ثم اشتريت كتبا اخرى ، فلقينى الرجل النكارى فسلم علي فرددت عليه السلام ، فلما انصرف قالوا لى مالك تسلم على مثل هذا ؟ فقلت مالكم تسلمون على اليهود وهم مشركون ، ولا اسلم انا على رجل من امة محمد صلى الله عليه وسلم ، فأفحمتهم ، ولم يجدوا جوابا ، ورآنى رجل منهم فى موقف الشب وهو مكان معروف باهل وارجلان ، فقال لى وارجلانى والله ! فقلت له ايحل لك ان تخاطب بهذا رجلا مسلما ؟ فقال له أهل سوق ذلك الموضع بئس ما قلت ! وكان ذلك فى مدة قتل فيها أهل وارجلان

جماعة من الاشعرية ، وسمعت رجلا منهم يقول : قل لهم فليخرجوا او يظهروا او نقتلهم . فلما رايت ذلك اسرعت في قضاء حوائجي ، ثم ان السلطان اخرج عسكرا فخرجت معه ، فلما حضرت الصلاة قال لي قائد العسكر : ماذا تصلي يا عبد الله ، وقد علمت الذي خرجنا اليه ؟فقلت له اشتغل بنفسك يا انسان ، وسرنا حتى وصلت «وغلانة» سالما ، وسمع شيوخ «وغلانة» بما اصابني في الكتب ، فاجتمعوا واجمع رأيهم على ان ينظروا في اعانتي بقدر ما اصيب مني ليخلفوه علي ـ فالله يحسن عونهم ، ويخلف عليهم ـ فلما احسست بالذي عزموا عليه أردت الخروج في خفية ، فخرجت بالهاجرة فلم يشعروا بي الا وأنا خارج البلد ، فوصلت «تنوال» سالما والحمد لله رب العالمين .

فهذا الذي كان منه في مواطن كثيرة من هذه الحكاية من تقية وستر حسن جميل ، لا كما زعمه الحاسدون ونسبوه اليه ، فانه واياهم كما قال ابن أبي ربيعة شعرا :

حسدا حملنه في حسنها
وقديما كان في الناس الحسد

وذلك انهم زعموا انه بدل وغير ، وطول وقصر ، وحاشا فضيلته من ذلك .

قائد لبني حماد يحاصر وغلانه

وذكر أبو الربيع عن أبي محمد ان أبا زعبل الخزري حاصر «وغلانة» فاجتمع هو وامثاله من المشائخ فدعوا عليه ، فسلط الله على جنوده مطرا وابلاهطالا ، فاوهنهم وأركسهم حتى انه لا شيء لاحد منهم قبل منهم بشيء ، فتحققوا هذه العبرة ، فقال أبو زعبل ، أيكون لهذه الخوارج دولة بعد هذا وان فيها لدلائل استقامة احوالهم

وايامهم ؟ فقال له وزراؤه : انما ارسل الله اليهم هـذا المطر ليهدم الحيطان ويكسر شوكتهم ، حتى ندخل عليهم بغير قتال ، فدام المطـر اياما فجعله اللـه على أبى زعبل عذابا واصبا ، وجعله لاهل وغلانة خصبا ورفقا وتثبيتا وأذل اللـه اعداءه وحيـل بينهم وبين ما يشتهون ، فلما يئسوا منها ارتحلوا صاغرين داحضين .

على الاب ان يعين ولده على بره

قال أبو الربيع تحدثت مع أبى محمد حتى ذكر اولاده ونظر فى امرهم ، فهونت عليه وقلـت : انهـم ذكران ، رجال ، فلا يهمك امرهم فقال لا تقل هذا القول فان على الاب ان يعين ولده على ابراره ، وقد قال بعض المفسرين فى الذين سماهم الله ابرارا لانهم بروا الآباء والابناء ، ثم قلت له : كيف حالك وابنك احمد ويوسف أذا جاءامن المكتب ؟ قال كيف يكون حال ولدى العجوز ، يعنى الدنيا وانشـد :

فمـن لم يؤدبـه أبـوه وامـه
تؤدبـه روعاتـه ، وزلازلـه

وقال آخر :

وليس يـؤدب الانسـان ابنـا
كتـاديب الـدوائر اذ تـدور

ووجدته فى وقت الهاجرة يكنس غديرا له فقلت مـا هذا ؟ فانشد :

نـروح ونغـدو لحـاجتنـا
وحاجـة مـن عـاش لاتنقضـى

تمــوت مــع المــرء حاجتــه
وتبقــى لــه حاجــة مــا بقــى

وكان كثيرا ما يتمثل اذا اصابه خــوف أو مكروه بقول الشاعــر :

اذا مــا خفــت فى ارض مضيقــا
فشــد اليعمــلات الى ســواها

فانــك واجــد ارضــا بــارض
ولســت بواجــد نفســا ســواها

فنفســك فزبها ان خفــت منهــا
وخــل الــدار تنعــى مــن بنــاها

ويتمثل لمن يتعاطى ما لا قبل له بقول الشاعر :

ومستعجل للحــرب والسلــم حظــه
فلمــا استدرات كــل عنها محــافره

ويتمثل ايضا فى الخادعين الخالبين وفيما ينبغى ان يصحب به الزمان واهله بقول الشاعر :

اذا اقتصــد الفتى فى المــال قالوا
بخيــل لا يهــش الى المعــالى

وان هــو سامــح الاقــوام جــودا
فيالك فيــه مــن حســن المقال ! !

خــداعا يخلبــون نــداه حتــى
اذا عــروه مــن نشــب ومــال

فعــادوا بعــد تقــديس بشتــم
وصــار بعــد مذمــوم الفعــال

انا ابن الدهر تجربة وخبرا
به ، وباهله في كل حال

ارى لك ان تمد يداك قصدا
بلا سرف ولا امساك غال

وقال أبو الربيع قعدت انا وابو محمد على طريق فمرت بنا امرأة فالتفتت اليها ، فقال لى لا يجوز قعود على الصعدات الا لمن ادى حقها ، قلت وما حقها ؟ قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم وما حقه ؟ قال : اغاثة الملهوف ، وهداية الاعمى ، وغض البصر عن المحرمات ، واماطة الأذى .

وصية أبي محمد اللواتي لاهل الدعوة

وله كلام وعظ في اثر ما مضى يقول فيه : « ثم اني موصيكم اخواني ونفسي بتقوى الله العظيم في السر والاعلان ، وباتباع آثار دعوة المسلمين ، فان الاتباع اولى بالهدى من الابتداع ، وعليكم بالائتمار لما امر الله به من طاعته ، والانتهاء عما نهى عنه من معصيته ، فاقتفوا آثارهم ، فان الله اوعد بالنار من خالفهم ، كما اوعد بها من خالفه وخالف رسوله ، اذ قال تبارك وتعالى : «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المومنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا» فاتقوا الله اخواني واحذروا مخالفة ائمتكم في القليل والجليل ، فانه قيل في المثل : حيثما مال الحمل وقع ، واحذروا كثرة مجالسة المخالفين ، ففي ذلك اثر مشهور عند المسلمين كالذى يروى عن أبي نوح وأبي خزر رضي الله عنهما ، وتجنبوا مخالطتهم والميل اليهم ، وكثرة مطالعة كتبهم ، وحذروا من ذلك سواكم ، الا ترون مسئلة

السخط والرضا قد وقعت عند من وقعت من اهل الدعوة من كتاب احمد بن الحسن الضليل ، فرسخت فى قلوبهم ودانوا بها فضلوا واضلوا ، وكذلك خبر سليمان بن يعقوب بن الامام وما تفرس فيه ابوه انه سيضل بقراءته ديوان ابن الحسين ، فضل وقال بمسائل لم يوافقه عليها أحد من الائمة الا الشاذ الذى لا يخرج على قوله ، حتى برأ منه أبو صالح وكان معه من المباهلة ما هو مشهور ، واحذركم الترك بعد الجد ، وعليكم بالحذر من الانهماك فى الشر والخلاف بعد الزجر عنه ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك وغضب منه وقال : أمنهمكون أنتم فيها بعد ما جئتكم بها بيضاء نقية سمحة سهلة ؟ وقد قال الامام رضى الله عنه : بلغنا انه قد ألقى فى ديوان المسلمين ألف مسئلة من مسائل الزنادقة فكيف ديوان غيرهم ؟ وليس عليكم رحمكم الله الا الاتباع فانهم سنوا لكم ما ترشدون به .

ولقد بلغنا عن أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى رحمه الله انه قال لاهل الجبل (والله ما تركتكم الا على الواضحة النيرة ، ما بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الا ثلاث رجال لم أرهم ، وفى بعض الروايات ان أبا خليل هو المتكلم بهذا الكلام ، وقال النفوسى (1) : (نحن اصحاب آثار لو سلكوا بنا على جدار لسكناه) فكيف يقول هذا بل قد سلكوا بنا على ظبات المرهفات ، وسلكناها ، فكيف الجدار ؟ وبلغنا عن أبى عبد الله بن يزيد الفزارى قال : « انما غلبنا اصحاب الربيع باتباع الآثار » وقال أبو صالح يعلو : « السبيل محفور الى الركبة ، فلا يؤخذ

(1) يعنى الشيخ ابى عبيده الجناونى رحمه الله .

منه مخرج الا بالوثبة » وقد حكى أبو سفيان رحمه اللـه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه قال : « قد بينـت الامور ، وقامت الحجة ، وانقطع العـــذر ، فلا جهل ولا تجاهل في الاسلام » وقد روى عن الامام افلح رضى اللـه عنه انه قال : « عليكم بدراسة كتب المسلمين لا سيما هذا الكتاب ، يعني كتاب أبي سفيان محبوب رحمه الله » فانا للـه وانا اليـه راجعون على مـوت الصلحاء والاولياء ، وذهاب سيرهم وآثارهم ، وقد بلغنا عن أبي مسور رضى الله عنه انه قال : ما ارى رميات الاولين مخطئتكم ، ولقد صـدق نبينا عليه السـلام حيث قال : « بدأ هذا الدين غريبا وسيعود غريبا كما بـدأ فطوبى للغرباء في ذلـك الزمان ، قيل ومن الغرباء ؟ قال : الذين يصلحون انفسهم عند فساد الناس ، ويحيون من سنتي ما أماته الناس » .

وقد قال أبو محمد واسلان بن أبي صالح رضى الله عنه : ما مر قط على هذا الدين شر من هذا الزمان ، فقيل لـــه ما يئس الناس ، بل نحن في جموع وجماعات ، وحـلق وظهـور ، غير مستخفين ولا خائفـين من أحد ، لم نكـن كالاولين مختفين مكتتمين معتزلين في الجبـال والمغارات ، والبراري والقرى ، فقال لهم : هيهات لم يرزمان منذ قام هذا الدين الا ولهم امام ، اما ظهور ، واما دفـاع ، واما شراء ، يقتلون ويقتلون ولا يهابون القتل في ذات اللـه تعالى ، القتـل عندهم آثر من الحياة في رغـد عيش ، ولا يريدون غير اظهار الدين ودعوة الاسلام «ليبين للناس ما نزل اليهم»«ولـتستبين سبيل المجرمين» «ليهلك من هلـك عن بينة ، ويحيى من حيي عن بينة وان الله لسميع عليم» فهل حـال اضعف من حـال اهل هذا الزمان ؟ هذا قولـه

رحمه الله ، فكيف بنا وقد قل العلماء ، وكثـر الجهال ، فلا تابع ولا متبوع ، الا من شاء الله .

لا يموت الاسلام حتى يفر عنـه اهله ويتـدافعوه

وقد بلغنا في بعض الاخبار : «انه لا يذهب الاسـلام حتى يتدافعه الناس وكل منه خال ، فنعوذ بالله من اماتة مذهب المسلمين ، ورفض سيرهم .

وقد بلغنا من سليمان بن موسى انه قال : اثبتوا ثلاثا حرمة الاسلام ، والحق ، وصلة الرحم ، خـذوا لانفسكم اخواني منها واتبعوا لها مجالس الذكر ، واختاروا لهـا الارشـد ، ولا تأخـذوا بمتروك العلم الذى جفاه المسلمون فقد قال جماعة من العلماء : «من عمل بمتروك العلم واخذ به لا يموت حتى يفارق الاسلام ، ولا يموت الا محتاجا » نعوذ باللـه من مخالفة المسلمين ونبذ سـيرهم ، وقالوا : لا يذهب الاسلام وتبقى سيره واعلامه ولكن تذهب سيره واعلامه ثم يذهـب ، واحذروا غمض الحـق وتغميضه ، فان من سفه مقالة المسلمين فقد طعن واباح دمه ، وتسفيه سيرهم وآثارهم كل ذلك طعن في الدين .

روى عن أبي الربيع سليمان بن يخلف رضي الله عنه : انه قلما يقوم من المجلس الا قال : نعوذ باللـه من تهوين راي المسلمين وتخطئتهم ، ومن الترك بعد الاجتهاد ، ومن الحور بعد الكور ، ومن ذم ما يأتي ، ومن تحسين القـول وتقبيح الفعل . وقد قال ابن بركة العماني رضي اللـه عنه : قلما تعسف احد مذاهب المسلمين بغير فهم الا حرم التوفيق ، وقال أيضا : أعوذ باللـه من مسامحة الآراء ، وتقليد الاباء والكبراء ، واتباع الامراء .

وبلغنا عن رجال من اهل هذا الزمان ، انهم قد صاروا الى ما حذر منه السلف الاولون من التعسف وقلة التعفف.

ولقد بلغنا عن بعض اهل العلم من اصحابنا انهم قالوا بقيت فرقة ستخرج من هذا المذهب ، نعوذ بالله من سوابق الشقاء ، ومما يعوق عن التقى ، نعوذ بالله من اتباع الهوى المضل ومن قسوة القلب ، وجفاء الذكر، وعليكم اخواني بالنظر لانفسكم مما يخلصها من نار عذابها طويل ، ليس لها من آخر ، ولا تغرنكم هذه الدار الفانية الغرارة ، ولا ترغبوا فيما يفنى، وتدروا ما يبقى فان الموت من قريب سيفاجئكم ، ولا تغفلوا عن الاستعداد لحياة الآخرة ، فانكم لم تخلقوا لهذه الفانية ، انما خلقتم للباقية ، رحم الله عبدا اخذ من نفسه لرمسه ، ومن داره لغاره ، ومن مره لحلوه ، ومن مرتحله لمنزله ، قطنتم فظعنتم ، ورجفتم ففجعتم ، والدنيا قد اذنت بصرم ، وانذرت بكلم ، يا اخواني بيعوا ما يفنى تربحوا ما يبقى فان الله لا يعذر جاهلا مرتكبا لمعاصيه ، وعليكم بان تعملوا ما يهديكم وينجيكم ، اخواني الم تروا التغيير في الناس فاشيا ؟ وقد ذهب الاخيار فزالوا ، وبقى الاشرار فاستطالوا ، فلا مذكر يذكر ، ولا موقظ يوقظ ، فاتقوا الله وجدوا ، واجتهدوا ، وعضوا بالنواجذ على ما ادركتم عليه الاخيار ، فان الدعاة الى الضلال كثير ، واستعينوا بالله ، واصبروا ، « وتزودوا فان خير الزاد التقوى » « واحسنوا ان الله يحب المحسنين » ، وقيل ان الكلام لاسماعيل بن صالح رحمه الله ، فالله أعلم .

وذكر أبو عمرو عن أبي محمد عبد الله بن محمد انه تلقى جماعة عزابة «بايرغت» وقد قدموا من فحص «قسطيلية» فقال : لهم انما ينبغي ان نلقاكم في «سوف» والا ففي «وغلانة» ولكن الزمان غير مساعد ، قال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : لا تزال امتى بخير ما اذا قالت صدقت ، واذا حكمت عدلـت واذا استرحمت رحمـت ، جعل اللـه مجيئكم مجيء أبى مودود الى حضرموت ، فقام عندهم هذا الكلام اشرف مقام .

ابو محمد عبدالله بن محمـد اللنـثى

ومنهم ابو محمـد عبد الله بن محمد اللنثى رحمه الله شيخ المشائـخ واستاذهم ، ومن اذا التجأوا فهو مـلاذهم منه تقتبس الفوائد ، وفي منهله العذب تطيب الموارد ، نور هداه يكشف الغماء ، وغيث حياته يروى فيشفى الظماء ، كثـير الانبساط والانقباض ، والاقبال والاعراض ، ان احب فى الله انبسط واقبل ، وان ابغض فى الله انقبض لا يتأول ولا يتأمل .

قال أبو الربيع لما أسن عبد السلام بـن أبى وزجون جلس ذات يوم مجلسا يكلم فى العقائد ، وقد حضر فيـه جماعة ممن ينسب الى النهوض فى الفن الذى بسط فيه القول ، فقال : ان من رمى احدا من أهل الاسلام بالشرك فليس على من سمعه ان يشركه ، الا ان يكون المرمى من اهل الولاية ، فلما سمع الطلبة كلامه حملوه على الضعف والخرف والكبر ، ولم يردوا عليه فى مجلسه ذلك بكلمة واحـدة ، وكان فى المجلس عـبد اللـه بن محمد اللنثى وغيره ، فاجمعوا بعد قيامهم من المجلس عـلى ان يتكلموا غدا عن المسئلة ، ويصرحوا بتشريك الرامى ، فلما كان الغـد جعلوا منهم من سـال عـن المسئلة فاتفقوا على ان الرامى مشرك ، لم يخالف احد من الطلبة فى هذا الجواب، وبلغه ما اتفقوا عليه وفطن انه تعريض بما جرى امس

حكم من رمى احـدا من اهل الاسـلام بـالشرك

في المجلس ، فلما انتهى السؤال اليه اجاب كجواب امس ، فلم يخجلوه أيضا اجلالا لسنه وتعظيما لقدره ، قال الشيخ أبو عمرو ان ادعى التأويل كأن الرامى منافقا كالصفرية وان لم يدع التأويل كان مشركا .

وكانت لابى محمد حلقة في تينزارتين ولم تزل به الحلقة قائمة ، قد رتبت على الشيخ ابى محمد لا يخشون احدا ولا يمسهم سوء، حتى جعل الله لخروجها سببا، وسبب ذلك فيما ذكر ابو الربيع فيما ساقه من هذه الحكاية ، قال :

تصرف اهوج يثير فتنـــة

كان تلامذة ابى الربيع سليمان بن يخلف من اهل سوف ، واريغ ، ووارجلان ، ومزاب ، وقسطيلية ، حلقوا على ابى محمد فى تين زراتين ، وكانت الفتنة حينئذ بين بنى « تاكسينت : وهيبتهم ، ومالكيتهم ، والوهبية منهم قبيلة يقال لها « بنو يريتن » والمالكية من عداهم من قبائل بنى تاكسينت ، فكانت بينهم الفتنة ، والعزابة منها فى أمان لا يخافون مكروها ولا يسمعونه ، فقدر بأن حضر بنو يريتن فرقى على السور رجل جاهل ممن شملته الحلقة ، يقال له : توزين من اهل قنطرار ، فقال لاهل العسكر : انصتوا واسكتوا ، ففعلوا . فقال لهم : فلان وفلان وفلان حتى عد جماعة من ائمتهم عليهم اللعنة ولهم سوء الدار ، فلما سمعوا ذلك منه تركوا القتال ، واستدعوا شيخا لهم ، يقال له : مظهر بن نفاط ، فاخبروه الخبر ، فقال أسمعتم ذلك حقا ؟ قالوا : نعم ، فقال لهم : احرقوا ، واسبوا ، واقتلوا ، فلما سمع العزابة ذلك خرجوا ليلا وتفرقوا الى اليوم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

أبو عمرو عثمان بن خليفة

ومنهم ابو عمرو عثمان بن خليفة السوفي رحمه الله .

هو في اهل المذهب احد الاعلام ، الكاشف بحسن بيانه ونور منطق لسانه دياجي الظلام ، المفتي في العلـــوم لا سيما علم الكلام ، المجاحش المدافع عن كلمة الاسلام ، حتى ان له في مواطن اللين قراعا بلسان مخدام ، وربمـا كان في محل هدنة فاشتعل الاضرام ، ولم يعبأ بمن قال ، كل مقال له مقام .

مجادلة بالباطل تؤدي الى انقراض اهل الدعوة من حامة قابس

فمن ذلك ما حكـى أبي رحمه اللـه وقد سألـه بعض الجلساء ما سبب انقراض المذهب من الحامة ؟ قال : ان الحامة لم تزل في ادبار منذ عهد ابي القاسم وابي خزر رحمهما الله وما طرأ على كل واحد منهما وعلى من بعدهما ، حتى اذا كان في زمان الشيخ عثمان بن خليفة فورد الحامـــة ، وليس فيها من اهل المذهب الا أطلال بالية ، ومساجد عامرة كالخالية ، وكان ابو عمرو عابر سبيل ، فأراد ان يذاكـر من هناك من أهل المذهب بما يثبتهم في الدين ، ويمسكهم في عقائدهم على يقين ، وكان المخالفون من اهل الموضـع قد سكنت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم بانقراض مذهبنا من بلدهم ، وضعف من بقي من اهله ، فلما سمعوا بقدوم أبي عمرو بما شرع فيه عضوا عليه الانامل من الغيظ ، واجتمعوا فيما بينهم ، وارادوا ما يفضـح ابا عمرو اذا ناظروه ،فتشاوروا في ذلك فجعل كل منهم يدلي برأي ، فقال فريق منهم : اعلموا ان الرجل عالم ذو قدرة عـــلى المناظرة ، ولا طاقة لكم به ان حاولتم اخــذه في الطريق المهيع ، لكن ان سلكتم معه بنات الطريق وجادلتموه بالباطل

أوقعتموه في آذان العوام ، وان طلتم فانكم تظفرون به ،
فقالوا وكيف يمكن الظفر به من طريق الباطل ؟ قالوا:
يسئله احدكم ، هل يجوز في مذهبكم تزوج نسائنا ؟ فانه
حينئذ يقول الحق ويجيب بأن يستعظم هذا ، ويقول :
ياسبحان الله قد جاز عندنا تزوج اليهوديات والنصرانيات
فكيف نساؤكم ؟ فاذا قال هذا الزمناه الذنب بان نقول
نراك انزلتنا منزلة اليهود والنصارى ، فنكفره ونفحمه ،
وان هو اجاب بنعم فقد استانفنا سؤالا ثانيا ، فلما كان
غدا اجلبوا عليهم بخيلهم ورجلهم ، وحضروه هو وتلامذته
فسأله سائلهم بما اعد من مسألة النكاح ، فأجاب بما كان
خصمه ينتظره منه ، فلما قال ذلك قال مدره القوم :
ألا ان هذا انزلكم منزلة اليهود والنصارى ، فقاموا عليه
قيام رجل واحد شتما وصفعا وضربا ، وطردا عن
نفوسهم من البلد ، واكرهوا كثيرا ممن بقي من اهل
المذهب على الرجوع الى مذهبهم ، وعمدوا الى المسجد
الكبير من مساجد الوهبية ، وغسلوه بمياه كثيرة ، حتى
جرت انهارا وسالت في الطرقات ، وخرجت من البلد
هامية يعتقدون ان ذلك تطهيرا للمسجد ، قال : ودعوا
عليهم فأجاب الله دعاءهم ولكن بعد حين فلما دخلها اسحاق
الميروقي قتل فيها سبعمائة رجل ، حتى سالت دماؤهم
واختلطت عجاجا شبهه من رآه بالوادي الذي اجروه
ليطهروا به المسجد فيما زعموا ، قال فلم يبق الا مستضعف
لم يكن على بصيرة ، أو هارب بدينه الى حيث أمكنه من
البلاد .

وقال عثمان خرجت من وارجلان اريد ناحية بلادنا
فخرج معي أيوب ابن اسماعيل وموسى بن علي يودعاني ،

فقال لى ايوب « يا عثمان العلم والوطوطة لا يجتمعان »
وقال له موسى الحجر المتقلب لا يثبت على بناء ، فرأيت ما
اشار به هو الصواب .

الحكم فى العطايا

وقال أبو الربيع قال لى الشيخ أبو عمرو عثمان : العطايا
اربع : اثنتان جائزتان ؛ عطية لما عند الله وعطية لثواب
الدنيا . واثنتان غير جائزتين عطية اكراه وخوف ، وعطية
على وجه الركون .

الطبقة الثانية عشر 550 هـ 600 هـ

أبو عمار عبد الكافى

منهم ابو عمار عبد الكافى رضى الله عنه . هو ابن
ابى يعقوب التناوتى . تدارك المذهب قد اقبر فانشره
نشورا ، ونوه به وقد اتى عليه حين من الدهر لم يكن
شيئا مذكورا ، فأحيى الله به رفاته ، وجمع ببركته شتاته
خدم العلم دهرا حتى وعاه ، واوعى منه الاوعية ، ثم
أخذ يفتيه ويعلمه ، فسالت منه الاودية ، فى تصنيف
كتاب ، أو تهذيب جواب، أو تدرب متكلم، أو افادة متعلم
وهو الذى ازرى بموجزه(1) على الماضين، واتعب الحاضرين
والآتين ، فانه رتب مقدماته ارتب تقديم ، وقوم فصوله
احسن تقويم ، وقسم الفرق ابين تقسيم ، بالفاظ عذبة
وقصد مستقيم ، وله تصانيف يشفى بريها هيام النفوس
الهيم ، واما الورع والسخاء فهما اقل صفات خلاله ،
فذكرهما الشيخ بالنسبة الى جلاله .

ما كان من الشيخ ابى عمار وهو بتونس

ذكر شيوخنا ان ابا عمار لما عزم على طلب العلوم رأى
ان اهم ما يقدمه اصلاح اللسان ثم اصلاح الجنان بعلوم

(1) يشير الى كتاب الموجز فى الكلام والعقائد ، وقد تقدمت الاشارة اليه فى اول الكتاب .

القوانين والبراهين ، فهاجر الى تونس فاقام فيها اعواما
يدرس الليل والنهار ، ولا يحضر بباله ذكر الاهل والدار ،
والذى توخاه فى قصده تونس شيئين أحدهما ملاقاة من
يشغل خاطره عن ذكر اهله ، والثانى اراد ان ينقطع عن
اللسان البربرى بالبعد عمن يخاطبه به ، والتدرب على
لسان العربية ، بكثرة مخالطة من يخاطبه به ، وكان أبو
عمار موسعا عليه ، فكانت تأتيه من بلده فى كل عام ألف
دينار ، وبطاقة فيضع البطاقة فى موضع ، ويقسم الدنانير
نصفين فيدفع النصف الى شيخه ويصرف النصف فى نفقته
وكسوته ، وشراء ما يحتاجه من الكتب ، فلما كان عند
عزمه على السفر وقد رأى انه قضى حاجته من طلب العلوم
التى اعتمدها هنالك اعلم شيخه بذلك ، واجمع على
الارتحال ، فأخذ فى قراءة الكتب الواردة من بلده كتابا
بعد كتاب ، فوجد فى الكتاب الاول اعلاما بوفاة أحد ابويه
وفى الثانى وفاة الثانى ووجد شواغل لا علم له بها ،
فاطلع على ذلك شيخه واصحابه فعزوه وانفصل الى بلده ،
ولقد حدثنى بعض الطلبة النفطين الذين قرأوا بتونس
عن بعض اشياخه انهم قالوا : ادركنا اشياخنا يذكرون
طالبا من أهل وارجلان قرأ معهم على شيخهم اذ ذاك ، قالوا
أدركناهم يتعجبون من فهمه وحفظه ومواظبته وورعه ،
وسخائه ودلالة نفسه ، وسعة خلقه ، قالوا ولم ير مثله
من العرب ولا من البربر ، قال لى وكانوا يذكرون انهم
اطلعوا على كتاب معه فى علوم مذهبه ، وكان نظما فى
قصائد فما هذا الكتاب ؟ فقلت له : هو دعائم ابن النظر ،
كانت منه فى بلادنا من قبل هذا نسخة غير محلولة ، ولما

حله ابن صاف (I) لم يرد بلادنا حتى ورد به الشيخ أبو موسى عيسى بن زكرياء واعلمته ان الطالب المذكور هو أبو عمار، واطلعته على كتاب الدعائم لما ذكره وسأل عنه، فلما رآه جعل يتعجب منه فنظر منه بعض قصائد العقائد وهي الرائية التي في الرد على القدرية، فقال معرضا ما أرى هاهنا الا موافقة اهل السنة، فقلت له : وما خالف هذا الكتاب فهو خلاف السنة ».

وكان ابو عمار ذا كرامات فمن كراماته ما حدثنا به في وارجلان شيخ من اهل الصدق والبر حكاه عن ثقات قال خرج ابو عمار في سنة من السنين في فصل الربيع الى بادية بني مصعب بغنمه فتوغلوا في البرية، تتبعا لطلب المرعى، حتى قربوا من جبال « بني راشد » فلما كان يوما من الايام قال ابو عمار لاهله اشتغلوا بعشاء عمار الليلة المقبلة، وكان هذا القول منه غدوة، وكانوا قد عهدوا عمارا بوارجلان، الا انهم لم يمكنهم الا امتثال امر الشيخ، فوافق وقت اعلامه اياهم توجه عمار من وارجلان الى قصور بني مصعب، فلما اصبح صباح يومئذ، قال لمضيفه : انظر لي دليلا استأجره ان يصحبني الى موضع الشيخ، بشرط ان يكون على نجيب مثل نجيبي، ليكون مبيتي عند الشيخ فاني شديد الاشتياق اليه، فقال له : ليس لها الا « فلان » فارسلوا اليه فوجدوه ينضح زرعا له بالطبق، فقال اخشى على زرعي ولا بد من موافقة ابن الشيخ، قال فاستأجره بدينار فركب كل واحد منهما نجيبه، وصارا يرجفان ويجدان السير بجهدهما، قال

(I) هو محمد بن وصاف العماني من مشائخ الاباضية بالمشرق شرح دعائم احمد بن النظر – وهو مجموع قصائد في العقيدة والاحكام الشرعية – والشرح في ثلاثة اجزاء وهو من المخطوطات القيمة

وكان نجيب المصعبى أسبق من نجيب عمار ، وكان اذا تقدم قال له : مالك يا هذا الوارجلانى ؟ هلكت زرعى عطشا يعنى أجهد ليكون رجوعى الى زرعى سريعا ، فقال وكان بين الموضع الذى فيه الشيخ وبين القصر الذى خرجا منه مسيرة ثلاثة ايام ، فما صلى الشيخ الا عمار وصاحبه قد انا خوا عندهم ، وأكلوا العشاء معهم .

وذكر عيسى بن أحمد ان أبا عبد الرحمن الكرثى كتب الى جماعة الشيوخ بوارجلان كتابا يسئلهم سؤال مسترشد قال : فلما ورد عليهم كتابه لم يروا نفوسهم اهلا لمجاوبته الا ابا عمار ، فجاوبه عن جميعها حسبما يفسر.

(سؤال) ما اليقين والقدر وما الفرق بينهما ؟ .

اسئلة الشيخ ابى عبد الرحمن الكرثى والاجابة عنها

(الجواب) : اليقين صحة الاعتقاد ، وهو من افعال القلب ومن افضل افعال العباد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اعبد الله على الرضى واليقين ، والا ففى الصبر على ما تكره خير كثير » ، وقال : لو ازداد يقينا لمشى على الهواء . والقدر ما قدره الله قبل ان يكون قال عليه السلام فى الايمان : (ان تؤمن بالقدر خيره وشره أنه من الله)

سؤال هل يقال لله تعالى بالبربرية ايراد ؟

الجواب : ما سمعنا احدا اجازه الا ابو سهل ، ولعل هروبهم من جوازه اشتراك اللفظة فى لغة البربر ، فانهم يسمون الداجن من الطير والوحش « ايرادن » ولمن اخلف الوعد « يردى » وهذا على حسب اللغات ، والهروب من المشكل الى الواضح أولى .

سؤال : ما الحكم فيمن قال ان الله ليس بييكش ؟

الجواب : ان كان بر بريا أو ممن يعرف اللسان البربرى فهو كمن قال : «ان الله ليس بإلاه» ومن قال ذلك فهو مشرك ، فقال بعض من حضر اراك ادرجت المسئلة فقال أو تشكون في ربكم ؟ فقال حينئذ عبد الله بن سجممان سمعت شيخنا ايوب بن اسماعيل يقول : من قال ان ايكش السلحافة فهو مشرك بالله العظيم .

سؤال ما اعلام الساعة ؟

الجواب : انها خمس اثنتان منصوصتان واثنان مستخرجتان من النص وواحدة من الحديث ، فالمنصوصتان قوله تعالى : حتى اذا فتحت ياجوج وماجوج الآية وقوله في عيسى عليه السلام وانه لعلم للساعة الآية والمستخرجتان من النص طلوع الشمس من مغربها قال الله تعالى : (يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا ايمانها) والدابة ، قال الله تعالى : « واذا وقع القول عليهم اخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » والحديث قوله عليه السلام : « نار تخرج من عدن تطرد الناس الى محشرهم » وحبشي يعلو على الكعبة بفاسه يهدمها ، وخسف بجزيرة العرب .

قلت وهذه الاجوبة انها هي على قدر وسع السائل لا بكونه مقدار المجاوب ، بل انما عرض في تلك السوق ما اشبهها من المتاع ، وما ينفد فيها ، وادخر الخز والديباج لاشكاله ، اللهم الا في جواب السؤال الاخير .

وقال ابو عمار حضرت انا ، وابو يعقوب يوسف بن ابراهيم ، مجلس شيخنا ابى زكرياء يوما فقصصت رؤيا رأيتها ، وذلك أني رأيت ابراهيم عليه السلام نزل من

السماء إلى « تموصين » ، قرية من قرى وارجلان فتعلقت نفس الشيخ ابى زكرياء الى الرؤيا : فجعل يقول كيف رؤياك يا عبد الكافى ؟ يحب ان اكررها عليه فالتفت الى ابى يعقوب فقلت له ، لا اعلم احدا كملت فيه هذه الصفات غير النبوءة في هذا الزمان ، الا هذا الشيخ وانى لاحسب انه سيموت فى هذا العام ، فمات فيه بعد اشهر ، وهذه الحكاية من مناقب أبى زكرياء الا ان لابى عمار فيها صدق الرؤيا واصابة التأويل .

حكم مال من اشتهد بالاغارة والنهب

وسأل الشيخ ابو يعقوب يوسف بن ابراهيم ابا عمار رحمهما الله بمحضر من أصحابهما وذلك بجبال مكة، فقال عجبا منا نتنزه من اموال العرب (1) التى بايديهم ، وننهى عن الدنو منها ، وعن الدنو ممن يدنو منها ، ونتجهم فى وجوه من يصاحبهم اذ كنا ببلادنا ، ها نحن الآن نأكل منها ونحمل عليها ، ونتزود منها ، ونحن فى أكرم بقعة وابرك بلدة ، ونحن عايناهم يأخذون اموال الحجاج، ويسلبونهم ، ويقتلون من دافع منهم عن نفسه اضراب « بنى مجزية » وغيرهم ، ممن شهر بالنهب والغصب ، فقال ابو عمار هذه جزيرتهم الا قعد فيما بايديهم والاغلب عليه الحلال ، وتلك جزيرة البربر انهم فيها غارة وكل ما بايدى الغارة ريبة ، الا من ابصر شيئا عيانا فلا يحل له الدنو منه فى بدو ولا حضر، فانهم فى بلادنا غارة، ونحن البربر في جزيرتنا كالعرب فى جزيرتهم .

قلت هكذا وجدتها ، واقول والله اعلم ، ان الذى استثناه من قوله (من ابصر شيئا عيانا فيجتنبه) انما ذلك

---

(1) يعنى بهم قبائل الاعراب التى تعيش على الاغارة والنهب ، واتخذتها حرفة ، وعرفت بذلك ، وخاصة زمن اضطراب شمال افريقيا فى عهود المؤلف (راجع ابن خلدون ج 6)

فى بلاد العرب وجزيرتهم ، والصواب ان يذكر أولا قبل ذكر بلاد المغرب (2) .

راي الشيخ في اهل الفتنـــة

وروى ان ابا عمار كان يقول : اذا وقعت الفتنة بـين فئتين من المؤمـنين فالاحب الى ان يصطلحوا ، فان لم يفعلوا فالاحب الى ان لا تغلب فئة فئة ، فان من احـب ان تغلب احداهما الاخرى فقد دخل فى الفتنة ، ولزمه ما لزم اهل تلك ، وكأن سيفه يقطر دما . وروى عنه عيسى بن احمد انه قال السلامة عندى ان يكونا فى البراءة سواء ، لا يرجح احدى الطائفتين ، فانه متى رجح أثم .

ومنهم أبو يعقـوب يوسف بن ابراهيم السدراتى وابنه أبو اسحاق ابراهيم رحمهما الله

نبدأ بذكر أبى يعقوب فى صدر الاسلوب فنقول : هو بحر العلم الزاخر ، المسخر للنفع فترى الفلك فيه مواخر الرفيع القدر والهمة ، الجامع لفضائل كل امة ، المحتوى على علوم جمة ، كأن التوحيدى ينظر اليه فى وصفـــه للقاضى أبى حامد ، وما اشتمل عليه من صنوف الفـوائد اذ كان له فى كل جو منتفس ، ومن كل نار مقتبس ، وهذا الشيخ له يد فى علم القرآن ، وفى علم اللســـان ، وفى الحديث والاخبار . وفى رواية السير والآثار . وعلـــم النظر والكلام ، والعلوم الشرعية عباداتها والاحكام ، وعلم فرائض المواريث ، ومعرفة رجال الاحاديث ، ولم يخل من اطلاع على علوم الاقدمين ، بل حصل مع ملازمة السنـــة قطعة من علم الحكماء المنجمين .

---

(2) الاولى ان يكون الحكم عاما فكل من عاين وشاهد ما لا حـراما بعينيه بيد غاصبه او سارقهفلا تحل له معاملته فيه ، سواء فى وطنه او فى غير وطنه

واما ابو اسحاق ابراهيم فامام فى علـــم الادب ، وان ذاكر فى الفروع فيا للعجب ، لقد تمسك من الحديـث ، والاصول بسبب أقوى سبب ، وعند كليهما مـــن الورع والزهد والتواضع والاقتصاد ، ما ليس يدركه احـــد من المتنسكين وذوى الاجتهاد ، وان تقاربا فى نظم القريظ فان للشيخ قدرة على تاليف التواليف ، وله من ذلك الصدر الفسيح الغليظ، وقد كان لا تهمه عظائم المهمات، الا خدمة العلم منذ نشأ حتى مات .

انقطاع الشيخ الى خدمة العلم

وذكروا عنه انه اقام سبعة اعوام ملازما داره لا ينصرف فكان متى زاره احد من الزوار وجـــده اما ينسـخ واما يدرس ، واما يقابل ، واما يبرئى الاقلام ، واما يطبـــخ الحبر ، واما يسفر كتابا ، لا يعدل عن هـذا الفـن الى ما سواه الا ان قام لاداء فريضة ، وكان اذا اعتمد تأليفـا أو نسخ ديوان لا يهوله ولا يستعظم فيه صعوبة ولا كثرة فان له على ذلك قدرة ، ولقد حدثنا بعض الثقــاة قــال : وقفت ببلادنا قسطيلية وسوف واريغ ووارجلان على سبع نسخ أو ثمان من كتاب العدل والانصاف[1] تأليف أبى يعقوب كلها بخط يده ، واما انا فرأيت منها ثلاثا.

حرص اهل وارجلان على الاستفادة منه

وكان اذا جاء الى موضع الوضوء فى مسجد فى وارجلان انصرف كل من حـول المتوضى ، فيضع من يـده سفـرا ومفتاحا ويضع عمامته وكساءه ، ويقعد فى ثوب واحد فيدخل المطهرة ، فيرجعون ويأخذ احدهم شيئا منها ويأخذ الآخر شيئا آخر ، حتى يرجع الشيخ فلا يجد شيئا فيقول ردوا علي علائقى ، فيقول احدهم ارد بعوض فيسأل عن مسألة فى النحو ثم يجيب فيرد ما أخذ ، ثم يسأل الآخـر

(1) كتاب له قيم فى أصول العقائد والفقه لا زال مخطوطا

عن فريضة ويسأل الآخر عن مسألة فقهية ويسأل الآخر عن تأويل آية ، ويسأل الآخر عن تأويل رؤيا وعن غير ذلك ، فيجيب كلهم فحينئذ يردون عليه ما أخذوا ، فكان هذا دأبه رحمه الله حتى لقي الله .

وحدثني ابي رحمه الله قال حدثنا بعض اصحاب ابي سليمان ايوب بن نوح قال : سألت ابا سليمان عما حصل من علم النجامة قال : رحم الله شيخنا ابا يعقوب عمد الى العلوم النافعة كعلم القرآن والفقه وعلم اللسان فحملها ابنه ابا اسحاق ، ووجد عندنا افهاما قابلة لعلم لا ينفع يعني علم النجامة فعلمناها ، وقلت له ما غاية المنجم المحقق. ايعلم يومه متى يكون ؟ قال اعلم ان غاية المنجم العالم يعرف أسعيد هو أم شقي ، وكان أيوب هذا يقول يكون أجلي يوم كذا ، فكان كما قال (1) .

وصول الدعوة الموحدية الى وارجلان

وحدثنا بعض اهل وارجلان ان أول داع وصل الى وارجلان من دعاة الدعوة المهدية العيتروسي وصلها في خيل ، فلما قدم اليهم دعاهم الى اجابة الدعوة ، فتشاوروا فيما يأتون وما يدرون ، فاجمع رأى اكثرهم على قتله واصحابه ، حتى لا يظهر لهم ذكر ، فقال علماؤهم ما ضرنا ان نصل الى الفقيه ابي يعقوب نعلمه بما وقع في نفوسنا ونأخذ ما عنده ، فجاؤوه بجمعهم ، فقالوا له ، ان هذه خيل تدعو الى سلطان قد ظهر ، وقد اجمعنا على ان نقتلهم قبل ان يعرفوا بلدنا ، فانا نخاف ان يخربوا بلادنا ان عرفوها ، فقال لهم ، هؤلاء لا يخربون بلدكم بل تنالون في

---

(1) لا يخفى ما في هذا الكلام من مبالغة ، ففي القرآن الكريم « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس باى ارض تموت ان الله عليم خبير » هذا مع قطع النظر عما قيل في مثل هذه المعلومات ان صح ان تسمى معلومات من التنجيم وغيره .

ايـامهم عزا واقبـالا ، وتلقـون منهم فى بلادهم خـير لقـاء واكـراما واحسـانا ، اكثـر مما تلقـونه فى بـلادكم ، فأجيبـوا دعـوتهم تفلحـوا فليسـوا بالذين يخربون بلدكم ، واما الذى يخـرب بلدكم فيخـرج من سلجماسة ويموت فى البحر ، وان خرج من البحر فانـه يموت فى سلجماسة ، وهو المتلثم ، فاذا ظهر فلا بد ان يرد بلادكم قاعا صفصفا ، سمعت هـذا الخبـر سنة عشرين وستمائة فلما كان سنة سـت وعشرين أو سبع وعشرين دخلها يحيى بن اسحاق الميروقى المتلثم ، فهدم كل ما دار عليه سورها الى المسجد ، وعاد وارجلان كان لـم تغـن بالامس . (2)

الحديث عن حجازية ابى يعقوب

وبلغنا ان ابا يعقوب كان فى عصر شبيبته يقرأ بقرطبة ففيها أتقن هذا الفن ، وفيها حصل بضاعة وافرة من اللغة غير مزجاة ، وفيها قرأ جملة من كتب الحديث ، ومما يدلك على سعة ما عنده من هذه الفنون قصيدتـه الحجازيـة المتطاولة ، فانه أودعها فصولا على ما ذكرته مـن ذلك ، ابياتها عدد ايام العام بدأ فيها بغزل رقيق ، ثم الرحلة عن وارجلان ، والتنبيه عمن صحبهم فى ذلك الركب ، وذكر الطريق منزلة منزلة فى سيرهم حتى وصلوا ، وذكـر المناسك ، ثم فعل كذلك حتى خرج ، ثم خرج الى شىء مـن علم الحدثان ثم وعظ احسن وعظ ، وتذكير ، ففيهـا ما يشهد له باتساع الفن ، فكنت اعتقدت ان اودعها هـذا الكتاب واشرحها اجابة لرغبة من رغب الى ذلك ، لكـن منعتنى العجلة فى تعليق هذا الكتاب ، وكونى أيضا لـم اجد من يرويها عن ابى يعقوب فارويها عنه على صحـة

(2) يشير الى خراب سدراته على يد الميورقى وما أصاب وارجلان

واعرف مقاصده فأحدو حدوها ، ولعمر الله ان فيهـا لفوائد كثيرة .

ولابى يعقوب تآليف كثيرة ، احسنها فيما ذكر لى أبو العباس ابن محمد كتاب الدليل والبرهان هو فى علم الاصول ، واما انا فلم اقف عليه لانى اذ كنت بوارجلان لم اعلق همتى بنظر هذا الفن ، فلا قوة الا بالله ، وأيضا فان الامهات منه قليلة .

وسمعت في وارجلان من جماعة شيوخ ان ابا اسحاق رأى فى منامه كان نخلتين صنوان احداهما باسقة والاخرى قصيرة وكان والده فى الطويلة منهما يجتنى منها ثمارا وكأنه عالج الطلوع فقدر على الصغيرة ، فلما صار اليها عالج طلوع الكبيرة الى حيث كان ابوه فلم يطق ، فقصها على ابيه فقال يا بنى انك تحاول منزلة ابيك فى العلم وانت دونها .

أبو يعقوب يوسف بن خلفون

ومنهم ابو يعقوب يوسف بن خلفون المزاتى رحمه الله المحقق الوصول الى الغاية فى علم الفروع والاصول ، ان درس فلقن أحسن تلقين ، وان افتى فمغترف من عذب معين ، لا يخشى منه تعسف ، ولا يدرك الفاظه تكلف ، كثير الاطلاع على مسائل الاتفاق والاختلاف، وكثير الدفاع عما قيده فقهاء الاسلاف ، وله تعليقات عجيبة ، واجوبة محافظ على بيضة الدين ، محصن للمذهب امنع تحصين ، مقنعة مصيبة ، الا انه كان مع محافظته وكثرة حفظه ، يعجب من ضعف بخته مع الاخوان ، وقلة حظه ، فانهم لم

يقيلوه في العشرة انصافا ، ولم يهبوه من انفسهم اسعافا ،
بل قد أذاقوه العقوق اصنافا ، وجرعوه منه مرا زعافا .

حدثني غير واحد من اصحابنا ان ابا يعقوب يوسف بن خلفون كان كثير المطالعة في كتاب الاشراف (1) وغيره من تصانيف علم الخلاف ، فكان العزابة يكرهون ذلك وينتقمون عليه ، وينهون عنه ، حتى انه ربما شافهه بعضهم يقول « تركت المذهب ، أو رغبت عن المذهب » واظهروا له الكيل بهذا الصاع، فلم يكن رغبة عما اكرهوه ولا اقلاع ، قال فلم يروه معرضا عن سلوك ذلك المنهاج ، ورأوا منه التمادى واللجج فاوجبوا عليه كلمة الهجران وقالوا له لا تقربنا من الآن فانك اسهبت في المناقضة أي اسهاب ، ورغبت عن طريقة امامك عبد الوهاب ، فعند ذلك التفت اليهم وقد ولى فقال لهم : «والله ما فيكم وهبي غيرى » ومما نقموه منه اعلان القول بان يقول لهم والله ما علمت لكم كتابا غير كتاب «اختلاف الفتيا» و«والغانمى» فكانوا ينسبوه بذلك الى تعجيز العزابة وذم تواليفهم ، والبحث عن معايبهم والتصريح عما يضع منهم ، وحاشاه بل لو قال الآن احد هذا القول لم انسبه الى نقص ولا تنقيص ، والذى يظهر في هذا الشأن ان كلهم مصيب ، فان العزابة اذا فضلوا كتب العزابة وعصبوا الترجيح غيرها عليها فوجه العذر لهم وللمولعين بين ظاهر ، وهو ان الذى صنفه الاشياخ انما جاءوا به على حسب موافقة المبتدئين اهل اللسان البربرى ، وذلك جهد طاقتهم ، فاذا اوجبوا

خبر اختلاف الشيخ مع العزابة فى مطالعة كتب المخالفين للمذهب

---

(1) لعل الكتاب هو كتاب الاشراف على مذاهب الاشراف ، لابى بكر النيسابورى الشافعى المتوفى سنة 318 هـ جمع فيه المذاهب الاسلامية ، وقد علق عليه الشيخ ابو سعيد الكدمى العمانى وسمى كتابه زيادات الاشراف ، وكتابه هذا من ضمن المخطوطات اما انكار العزابة منه مطالعة مثل هذا الكتاب فراى شخصى ، وقد وجهه المؤلف ، وليس رايا عاما لعلماء المذهب الاباضى ، كما يدل على ذلك صنيع الشيخ ابى سعيد الكدمى

الذنب على امثال ابى يعقوب فانما اقتدوا بقول من قال من المشائخ لما وقف على الخمسة والعشرين جزءا ، لا يطعن فى هذا التأليف الا منافق ، يتخيلون ان قد حقت عليهم كلمة الخلاف ، وانه لم يبلغه هذا القول ، ولعله اذ بلغه جعل للمطعن وجها وللنفاق وجها غير الوجهين الذين ذهبوا اليهما ، وينبغى ان يحمل ذلك على أحسن محتملاته ، تزكية للفضلاء ، وقياما بحق أولياء الله العلماء .

ووجه العذر له فى ترجيح الكتابين ظاهر ، وهو انهما كلام عربى غير متكلف مع كثير ما تجد فى مسائلهم المسند اليه ، والمعتمد فيهما غير المبتدئين ، فكانهما ارفق لنفوس النجباء مثل ابى يعقوب ، ولقد حدثنى ابو الربيع عن أبى الحاج أبى عبد الله محمد بن سعيد رحمه الله ، انه يحكى عن جدى يخلف حكاية تدل على براءته مما قذف به ، قال أبو عبد الله : خرجنا حجاجا مع شيختنا يخلف بن يخلف حتى اذا كنا « بعقاب » قدم علينا فى وقت المساء رجل لا نعرفه ، فرأيناه يسأل عنا ، فقال له يخلف من هذا السائل ؟ وممن هو ؟ قال انا ابن صباح المزاتى ، فاستحال ذلك شيخنا فبادره بان قال كذبت ، قال ابو عبد الله وما رأيته قط عجل بسوء معاملة قاصدا الا تلك الليلة ، ثم تدارك فسأله ما شأنك ؟ وما وراءك ؟ قال قدمت مع عمى يوسف بن خلفون واعلمه بامور دلت على صدقه ، فجعل يستغفر الله ويتوب مما فرط منه ، فقال له وأين عمك يوسف ؟ قال يبيت عندكم الليلة المقبلة ، قال أبو عبد الله فلما كان فى الليلة المقبلة لحق بنا هو ومن معه ، فلما حل بنا أبو يعقوب لم يمكنا اقبال عليه لانا قد خرجنا من بلادنا والعلم عندنا بانه فى الهجران ، ولا علم عندنا

بتوبته ولا غيرها ، فجهدنا انا نتأسى بشيخنا فما تقـــدم
فيه تقدمنا ، قال فلما نزل الشيخان وضع شيخنا يـــده
فى يد أبى يعقوب وتنحيا عنا غير بعيد ، فجعل يثرب عليه
ويعدد ما نسبوه اليه بتثريب ، لم نفهـم منه الا ما عاينا
الشيخ كلما ذكر خطيئة خط باصبعه في الارض فكلما عد
عليه شيئا ذكر وجهه وسببه واعتذر، واستغفر، حتى أتى
على جميعها وظهرت براءته وكان الشيخ يخلف يقول له في
تثريبه يا ابن خلفون كيت وكيت ثم يخط ، ويقول يا ابن
خلفون كيت وكيت ، واطال العتاب ، وابو يعقوب مطرق
الا انه مهما عد عليه شيئا ذكر عذره ووجهه ، وسببه حتى
توجه عند الشيخ عذره فسمعنا شيخنا يقول الحمد لله رب
العالمين . وقاما معا واعتنقا وقمنا نحن أيضا وسلمنا عــلى
الفقيه ابى يعقوب وسلم علينا وتأنسنا به ، وسرنا الى بلد
الله الحرام ، فادركنا هنالك ركب اخواننا اهل عمـــان
ومعهم فقيههم الذى حج بهم يسمى ناجية بن ناجية ، قال
ابو عبد الله فحججنا حجة لم يحججها مغربى قبلنا ولا بعدنا
وذلك انه لا يضيق الحال باحد من اصحابنا أو تنزل عليه
نازلة من مسائل المناسك أو غيرها من مسائـل الدنيـا الا
والاها احد الفقهاء الثلاثة ، فيجد عنده الشفاء فيما يأتى
أو يذر ، ورجعنا الى بلادنا وابو يعقوب راض مرضى عنه

وبلغنا عن بعض من عاصره انه قال قدمت من جهـــة
طرابلس بعد قراءتى فيها على الشيخين ابى محمد عبد الله
وابى عمران موسى النفوسيين مسائل المذهب فقصدت جهة
وارجلان لألاقى الشيخ « ابا رحمـــة اليكشى » وأعرض
عليه ما اخذت ، قال فاجتزت على « تينبماطوس » وبهـا
الشيخ ابو يعقوب ثم جئت الى ابى رحمة « بايفران » فلما

رآنى قال لى : على « تينبماطوس » كان طريقك ؟ قلت نعم قال هل سلمت على فلان ؟ قلت لا ، قال لو سلمت عليه لـم اسلم عليك ، فهذا الخبر وشبهه لعله كان قبل قصد أبى يعقوب الى الحج ، أو كانت وحشة بين الشيخين لا ذنب فيها على احدهما ، أو لا ذنب فيها على ابى يعقوب ، والا فليكن صحيح اعتقادك على ما حكاه ابو عبد الله بن سعيد .

ومما قيد من تعليقات ابى يعقوب للاجوبة عن المسائل التى سأله عنها سائل فكتب بها اليه وبين ما فى جميعها من أقاويل العلماء ، فوجه ما قاله اصحابنا ، واستـدل على صحته بادلة قاطعة ، رسالته الى اهل جبل نفوسة مشتملة على فقه ووعظ .

أبو عبد الله محمد بن علي

ومنهم ابو عبد الله محمد بن على السوفى رحمـه الله . ذو السخاء والفتوة ، والدين والمروءة ، والقيام والصيام، والسهر اذا الناس نيام المتحرى الاورع ، الوقور الاروع ، الحازم ولم يفرط ، الزاهد ولم يقرط ، سلمت له دنيـاه مع سلامة الدين ، وكان يذكر فى الهادين المهتدين ، وممن تجرى الصالحات على يديه ، ويفزع فى الصغائر اليـه ، فانه لحليم أواب ، وذو دعاء مستجاب ، وله يد فى مسائل المذهب ، وفى المواعظ اذا رغب أو رهب .

الصلح الذى تم على يده بين اهل درجين

وحدثونا انه وقعت فتنة ببلاد درجين السفلى الجديدة ، فافضت الى حرب الاوطان وذهاب الانفس والامـوال ، واشفى كلا فريقيها على التلاشى فبلغ ذلك أهل الدعوة فى الجهات الشرقية والغربية ، فعظم عليهم ما نال اهل درجين من الضعف واستبدال احوالهم ، واستبعدوا استصـلاح

حالهم بعدم الاسباب المعينة على ذلك ، فحرك الله سبحانه الى ذلك ابا عبد الله محمد ووفقه لما يحبه ويرضاه من امتثال امره فى الاصلاح بين الفيئتين من المؤمنين اذا اقتتلوا ، ونصرة السبيل الذى منه يتوصل الى اصلاح ذات بينهم ، فقدم من سوف الى ان وصل «درجين» فتمادى الى خارج ربض « نفطة » ولم يدخل درجين ، فنزل اليه من بربط نفطة من العزابة فيهما الحاجان يخلف بن يخلف ، ومحمد ابن سعيد ، فرغب اليه يخلف فى النزول الى الضيافة فامتنع ، وقال انا جئت لهم ولا ابدأ بغيره حتى يقضيه الله ، وييسره ، وانا أحب معاونتكم بأن تستحضروا له كل مهاجر اليكم ، وفارق لوطنه بسبب هذه الفتنة ، وترغبوا اليهم فى الدخول فى هذا الصلح ، فانهم عندى اشد ممن فى درجين ، وارجوا ان اجد ممن فى درجين من المطاوعة ما لا اجده فيمن عندكم ، فاغيثونى باحضارهم وهلموا بهم الى خارج درجين ، فصحبه عزابة الربض ومعهم من طاوعهم من اضيافهم من بنى درجين ، والاكثر قد طاوعوا او انابوا ، ولما صاروا باجمعهم مع الشيخ أبى عبد الله حول مسجد قنطرار الفوقية خرجت اليه جماعة بنى درجين من كلا الفريقين ، فيهم الواتر والموتور ، ورغب الى أولياء الدماء فعفوا عنها ، وندب جميعهم الى الصلح فاجابوا ، وعقد بينهم الصلح ، فلما اصطلح الفريقان استدعى سبع حصيات من ايدى سبعة رجال حجاج حضروا حينئذ ، ثم قال هذه حصيات تناولتها ايد قد استلمت الحجر الاسود ، وحفر فى الارض على قدر ذراعين حتى غاب عاتقه ودفن الحصيات ، ثم قال هذه فتنة اهل درجين قد دفنت ، فمن أثارها جعل الله بأسه فى

رأسه ، فامنوا كلهم على دعائه ، وقطع الله تلك الفتنة الى اليوم ، وكان الذين تخلفوا بالربض وأبوا ان يحضروا الصلح وأن يرجعوا الى البلد ثلاثة أشخاص ، فدعا عليهم فلم يعقبهم خيرا ، ودعا على الذين عفوا عن الدماء وأنابوا الى الصلح فنموا وكثروا .

وذكروا عنه انه قال : دعوى القبائل هى التى تحرك الفتن فادعوا الله على من دعا بها ، ففعلوا ، فلما انعقد الصلح دخل وتضيف وحمد الله تعالى وشكره على ما جرى على يديه من الخير والصلح .

وذكروا عنه انه لما عزم على المسير الى الحج اودع عند الشيخ افلح المرغنى مائتى دينار ، فلما قدم بعد عامين قال له ما فعلت الوديعة يا افلح ؟ قال اكلها الزمان يا محمد فلم يسأله عنها حتى لقي الله تعالى .

وكان أبو عبد الله عظيم القدر فى اهل المذهب بحيث لا يجهل موضعه ، ولا يجحد حقه ، ولا ينكر فضله ، فمما يشهد بذلك قصيدة الشيخ أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتى الحجازية وقد حضرت الفقيه أبى العباس احمد مرارا وفى يده ديوان شعر أبى يعقوب فاذا قرأ لنا القصيدة المذكورة وبلغ قوله فيها :

خرجنا نؤم الشرق من حيز وارجلان
بفتيان صدق من وجوه العشائر

الى قوله : ومغراوة عليا زنانة كلها ، يقول لنا لم يسافر فى ذلك الركب من مغراوة غير أبى ، يعنى الشيخ أبا عبد الله فيسلم له بذلك جميع من حضر من مغراوة ، وناهيك

بواحد يقوم مقام جماعة فى مثل تلك القصيدة التى بقيت تاريخا .

أبو يحيى زكرياء اليراسنى

ومنهم الشيخ أبو يحيى زكرياء بن صالح اليراسنى رحمه الله ، علم المذهب ومناره ، المحمود فيه عينه وآثاره وناصره متى قلت وكلت انصاره ، وعامر ربعه متى ولت واعتلت عماره ، اتاه الله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، أشهره الله فى خدمته فاطال عن خدمة الدنيا وسنه ، واوسع عليه في الاخلاق والارزاق والاعمال والمال والعطاء والثناء سعة تناقلتها الالسنة ، ومنحه من البركة ويمن الحركة ما اقام فى ساعة من العمر مقام سنة ، وهو الذى فضله الله باشياء فضل بها الاله الاموات والاحياء : الورع ، والسخاء ، ولزوم السيرة ، ونفوذ عين البصيرة ، وتساوى صلاح العلانية والسريرة ، واليد العليا فى الكبيرة من الصلات والصغيرة .

ما كان منه وهم فى الطريق الى نفزاوه ومعهم اموال

سمعت من غير واحد من المشائخ حكايات فى مناقب الشيخ أبى يحيى زكرياء بن صالح ، منها ما هو فى باب الجود والكرم ، ومنها ما هو فى الكرامات وعجائب البطائن ، ويمن الناصية ، وبركة الرأي ، فمن ذلك ما سمعته مرارا عن أبى رحمه الله قال : وصل الشيخ أبو زكرياء ذات مرة من سلجماسة الى وارجلان ، ثم خرج من وارجلان متوجها الى جربة فى جماعة من اصحابه يكونون خمسة وعشرين راكبا ، أو عشرين راكبا ومعهم قريب من مائتين وخمسين مثقالا ذهبا تبرا ، لما صاروا ببعض الطريق بين وارجلان ونفزاوة وأصبحوا راحلين غادين

بين كثبان رمل اشرفوا من أعلى كثب فرأوا نعما كثيرا فى المرعى ، ومن ورائها احياء فأيسوا من السلامة ، الا انهم تضاموا واخفوا شخوصهم قبل ان يراهم احد ، ثم تشاوروا فيما بينهم ، فقائل يقول (ندفع ما معنا) وقائل (نولى خلفنا) وقائل (نرسل اليهم من يجاعل على سلامتنا بجزء مما معنا) ثم قالوا لى ما عندك يا شيخ البركة ؟ فقال انما مثلنا مثل أعمى سلم عينيه الى القادح ليقدحها رجاء انجلاء العمى ، فان ابصر نورا فبضل من الله ولطفه به ، وان لم يبصر فانما كان اعمى وبقي اعمى ، وكذلك نحن ، وعندى رأي هو بمنزلة القدح فان فعلنا ونجونا فبلطف من الله ، وان عطبنا فنحن عاطبون من قبل ذلك ، قالوا وما رأيك المبارك ان شاء الله ؟ قال : أرى ان نستدير مع بعض الاحقاف الى اقرب قطيع يلينا من النعم الذى رأيناه ، فنخرج الى القطيع على حين غفلة من ارباب الابل ورعاتها ، ثم ندخل فى وسط القطيع ، ثم نقول لهم ، نحن دخلاء هذه الابل ، ففعلوا فعند مروقهم من بين الكتبان ودخولهم فى الابل راتهم فرسان ، فما كان باسرع من اتيان الخيل اليهم مثنى وفرادى متوجهين مرجفين ، فاذا هم من «المغترف» وللمغترفين اذ ذاك احساب طيبة ، واذا برب القطيع من اشرف اول فارس ، فقال لراعى ابله ما هذا ؟ قال لا ادرى ، الا أن الابل كانت ترعى فلم أشعر الا والركبان كانت فى وسطها، وقالوا نحن دخلاء لصاحب هذا الابل وقال الفارس لهم امان الله، واذا بالخيل تركض فقال لهم : لا تتعبوا خيلكم فقد حرموا ، قال : فأنزلهم واكرم مثواهم ، ثم صحبهم أو اصحبهم من خيله من بلغهم الى مأمنهم من قرى « نفزاوة » .

مكانة الشيخ لدى العبيديين بمراكش

وسمعت من جماعة منهم أبي رحمه الله ان الشيخ أبا زكرياء يحيى كان بمراكش في أيام ولاتها ، فبلغت عندهم منزلته مبلغا عظيما ، وكان له بها جاه عظيم لما اشتهر من امانته وصلاحه ، ومحافظته على دينه ، ولما ظهر من كراماته وبركاته ، وكان مختصا بيعقوب (1) وهو اذ ذاك وزير أبيه ، وقبل أن يلي الوزارة ، فكان يلبي له كل مطلب ، ولا يكاد يحوجه في كثير من المسائل الى أبيه ، الى ان قال يوما عرفني بكل سبب تامله عند امير المؤمنين لأتكفل لك به عنده ، واسعى لك في كتاب كريم يكون لك ظهيرا ، واتمشى لك به كلما تحب ، فقال له : بل ان عندي شيء أريد أن القيه اليك ، قال وما هو ؟ قال صح عندي بدليل لاأرده انك الذي تلي الخلافة بعد أبيك دون من سواك من بنيه ، وأراك ان تكتب لي ظهيرا بما ذكرته فيكون منك ، ولا احب ان يكون من سواك ، فقال له ان كتابي لا ينفعك شيئا ، ثم من اين لك ما ذكرته ؟ قال له ما ذكرت لك الا قولا صحيحا ، فكن منه على يقين ، ولا اعتقد النفع الا في كتابك ، فاستبشر وكتب له بما احب، فلما ولي انحدر الى افريقية بعسا كره فوقف اليه وذكره الموطن واحضر كتابه ، فضاعف اكرامه وقضى مسائله ، واعلى منزلته وشفعه في كل من شفع فيه ، وانتفع بعنايته جميع أهل الجزيرة بل أكثر أهل المذهب الا ما شاء الله .

ومنهم أبو يحيى فصيل بن مسعود رحمه الله

شيخ الانبساط والانقباض ، والعزوب عن الدنيا والاعراض ، والاحتقار لما يستعظم الناس فيها من

(1) هو يعقوب المنصور من احفاد عبد المؤمن مؤسس الدولة الموحدية ، وله أعمال هامة في بجاية والمهدية ، مات سنة 580 هـ

الاعراض ، وسلامة الصدر من الشهوات والاغراض ، المجدد لما كان من السير قد أشفى على الانقراض ، المزرى بجزيل معرفته ومعروفه على البحر الفياض ، المفنى أيام عمره فى الصلاح فتساوى عنده مستقبل وماض ، الموفى لله عز وجل بما تعين عليه من الافتراض .

الشيخان أبو عبد الله محمد ، وأبو الربيع سليمان

ومنهم الشيخان أبو عبد الله محمد بن داود وأبو الربيع سليمان بن داود رحمهما الله كلاهما بحر العلم والسماح ، وعمادا أهل التقوى والصلاح ، فسيحا الجنان وان كان فى اللسان تعذر افصاح ، نصيحان فى الله متى عدم النصاح ، ان وعظا او ذكرا فنور الايمان يمتاح ، وكذا الزيغ والفساد ينكشف عن مستمعه اى انكشاف وينزاح ، لا يرى عند مرضاة الخالق بسط المخلوق من جناح ، طالت أيام أبى الربيع فعمت السعادة غدوها والرواح ، وشملت بركته أهل القرب والانتزاح .

حدث أبو الربيع عن أبيه قال حججنا وقفلنا الى بلادنا فتشبث رجال من اصحابنا من نفوسة الجبل بشيخنا يخلف رحمه الله ، فلما وصلنا حيز طرابلس رغبوا اليه كل الرغبة فى ان يصحبهم الى بلدهم ، ليبين حدودا جهلوها فى نسبهم ونشبهم ، ورجوا ان يجدوا عنده حفظ ما يخلصهم في دينهم ومذهبهم . قال فأجاب رغبتهم واذن لنا فى التقدم عنه ، فودعناه وتقدمنا ، فلما فارقته وجدت من الوحشة لفراقه اضعاف ما كنت وجدت من التأنس به ، فكنت المطلق المسجون ، المؤالف الشجون ، فما راقنى من لقيت بعده حتى قدمت على الشيخ سليمان بن داود رحمه الله

وذلك بمنزله «بتونين» قال فلما لقيته لقيت شيخا جليلا عظيم القدر ، متناهيا في الصلاح ، ووجدت منه تأنيسا وافادة ، حتى سلوت عن كل هم ، وكان مما حفظت عنه عند التسليم اني قلت : ادع ، فقال : بل ادع انت ، ففي الاثر « استقبلوا الحاج واستدبروا الغازى » وحضرت الصلاة وهي رباعية وأظنها صلاة الظهر ، قال فأقام الصلاة وقدمني ، فقلت : اني مسافر فقال لي اعتقد الاقامة هنالك ، وصل بنا ، فامتنعت منه كل الامتناع ، فقال ساعد ، فما من ذلك بد ، قال فلما قضيت الصلاة وحضرنا طعامه أوتى بزجاجة فيها شراب ، فعرض علي الشراب فامتنعت فلم يكرر علي ، وشرب هو ، وقال هذا شراب حلاب اقتات به ، اذ لا أقدر على الطعام لضعفي ، ولما اكلنا تناول باصبعه من الفضلة ، فقال آكل هذا تبركا وان كنت لا اقدر عليه .

الشيخ ابو عبد الله يعظ اهل جربة وينهاهم عن المداينة

وحدث بعض اصحابنا ان أبا عبد الله محمد بن داود رحمه الله دخل جربة سنة من السنين زائرا فجلسوا عنده ذات يوم فجعل يعظهم ويذكرهم ويخصهم واحدا بعد واحد ، حتى افضت النوبة إلى الشيخ أبي مسعود فقال له ما هذا الذى بلغني عنك يا أبا مسعود ؟ فقال له وما هو ؟ قال بلغني عنك انك تداين ضعفاء أهل جربة في حال العسر ثم تاتيهم لتقاضي دينك ، فاذا رأوك من بعيد ادخلت الروعة على المرأة والطفل ، وأثمت فيهم ، ويروع المديان منك ، واستدعيت منه بذلك ضعف دينك وقلة مروءتك ، وما هو الا ان يروك ويقولوا هذا ابن أبي زكرياء قد أقبل ، فعل الله به وصنع ، أترضى لنفسك ومنزلتك وأبويك ومنصبك ان تكون هذه منزلتك ؟ كلا

والله ، ولكن جانب المداينات ما استطعت ، فان لذلك رجالا ، فقال اني تائب يا شيخ ولا اعود .

ومنهم أبو محمد عبد الله بن يحيى بن عيسى العباسي رحمه الله

ممن يقدمونه اذا عد الاتقياء ، وينسبون اليه السخاء متى عد الاسخياء ، وكان لتحرجه لا يتحرى من الطرق الا ما يجرى فيه خلاصه ، ومن جوده الذى حيل عليه كان من المؤثرين على انفسهم ولو كان بهم خصاصة .

حدثني بعض العزابة عن الشيخ عبد الله عن علي قال خرجت من أريغ أريد وارجلان في جماعة من العزابة ، فسلكنا على تلا منزل الشيخ عبد الله بن يحيى ، قال فخرج الى العزابة فسلم عليهم ، وانزلهم للضيافة ، فلما دخلنا موضعه قدم لنا تمرا كبيسا معسلا ، ولبنا عجيبا ، فلما اكلنا من ذلك ما اشتهينا احضر صحفة ثريد ، يقدر كل واحد منا ان يأتي على آخرها وحده أو هو وآخر حتى لا يبقى منها شيئا ولا يدره ، قال وعليها من الزبد ما اخرجه من اللبن الذى شربناه اولا مع التمر ، قال فينظر كل واحد منا الى صاحبه تعجبا منه كيف قابلنا بالطعام القليل ونحن تسعة او عشرة ، قال ووضعنا فيه ايدينا وكلنا قد استقله ، قال فوالله لقد صدرنا شباعا غاية الشبع وفضلت منه فضلة صالحة ، قال فلما اراد العزابة الخروج عدت اليه لأخبره بذلك فوجدته يفرق تلك الفضلة على الجيران ، ثم دخلت عليه فصادفته على مرضخه وبين يديه حشف أحرش يابس وكوزماء ، وكلما رفع حشفة رضخها وازال نواتها واكلها ، واتبعها بجرعة ماء

الشيخ يدخر كرائم ماله لاكرام الضيف

من الكوز ، وفض النواة لعلف الغنم ، فقلت لــه ما هذا يا شيخ ؟ هلا اكلت من التمر الذى أطعمتنا منه ؟ فقــال يا بنى ان من اكل خيار مالــه فقد اكل دم وجهــه ، وذلك مدخر لا مثالكم ، وان الذى بين يدى مع العافية كثير .

يعرض عليه الاقـامة والنفقة ليحفظه القرآن

ثم قال هل لك يا عبد الرحمن فى رأي هو خير لك من السفر ؟ قلت وما هو ؟ قال : ان تقيم هنا وتنتفع بتحصيل القرآن ، وفوائد ، ولا تعدم ما تتزود به من المال ، قــال فقبلت بنصحه وأقمت عنده وكان قوي الحفظ لكتاب الله العزيز ، فكنت عنده فى أرغد عيش وفى اجتهاد وعكوف على درس القرآن ، قال واقبل فصـــل الربيع وخرجت أغنامهم الى المنزل الموالى للبرية طلبا للمرعى ، ولينتفعوا بالبانها ، وخــرج بعض العيالات ، وكان الشيخ مقيمــا فيمن اقام الا انه لابراره بى قال يا بنى انى لأكــره ان يفوتك اللبن وهو فى هذا الفصل غنم ، والاغتذاء به نعم وأرى لك ان تخرج مع العيال الى المنزل البرانى ، وتخرج معك مصحفا ولوحك ، فاذا حفظت محوت كلتي صفحتيه ثم كتبتهما من المصحف ، ثم جئتنى فتعرضه على ، ثم تخرج وتكون هنالك حتى تحفظ ما تحصل فى اللوح ، فلا يزال ذلك دأبك مــدة الربيع ، قال ففعلت وأمــر من تكفــل بمعيشتى ان يخرج تمــرا طيبــا برسمي وامــر المتكلف بعيشى ان يجعل وصيبا مملوءا برسمي لا يتناوله غيرى ، فكنت على ذلك حينا حتى نلــت مــا منانى به من حفــظ القرآن والسير والفوائد ، وافادة المال .

عبد السلام بن عبد الكريم

ومنهم عبد السلام بن عبد الكريم المزاتى رحمه الله .

الورع الجواد الكثير الاجتهاد ، كم تردد على الخلق حتى استفاد ، وتكرر فى زيارة الشيخ حتى فاز بالمراد .

حكى عنه انه قدم أول قدومه من الحلقة فسأله يوسف بن ابى حسان عن ثلاث مسائل مما يستعجز به المبتدؤون العاجزون ، فلم يجبه عن واحدة ، فقال عجلت بالرجوع يا عبد السلام وانت محتاج الى الحلقة فليت شعرى ما الذى جاء بك ؟ قال وقد اخجله بكلام شافهه به ، فكان ذلك سببا لرجوعه الى الحلقة ، قال فرجعت الى عيسى بن احمد فقرأت عليه ما شاء الله ، ثم رجعت فاجبت السائل الذى سألنى عن مسائله وعن غيرها ، قيل وكان مفتيا لاهل مكانه يحتاج اليه اهل زمانه ، وعنه يحكون انه قال : سافرت مرات فأحسن سفرة سافرتها انى سافرت مرة ومعى اصحابى عزابة قدر ثلاثين رجلا ، فاذا دعا اهل الرفقة بالكلام الذى هو اشعار بالاكل حط العريف الزاد عن البعير ، فما يحطه الا واصحابى محدقون به لم يغب منهم احد ، واحسن كتاب قرأته كتاب كتب الى به الشيخ ابو عبد الله محمد بن داود وكتب لى فيه اخبار اهل الدعوة كلهم ، واحسن مركوب ركبته حمار صحبت به خيل الاعراب ، فكانوا يهمزون خيولهم بالاشابر وحمارى لم يتخلف عنهم .

أبو نوح يوسف وابنه أبو زكرياء يحيى

ومنهم ابو نوح يوسف وابنه ابو زكرياء يحيى رحمهما الله ، لكليهما فيضان فى العلوم يزرى بفيضان البحر ، ونظم يزرى بالدر ، يباهى قلائد النحر ، بل تزان به فوائد الدهر ، ومآثر حميدة الذكر ، لها انفاس نفيس العطر ، وهما اللذان احيا ما ورثاه عن جدهما محمد بن

بكر ، وبقيت فيهما بركته تتوارث الى هذا العصر ، بـــل هي باقية ان شاء الله الى يوم الحشر ، وكان كل واحد منهما شديد الغضب في الله متى قام في انكار المنكر ، معتمـدا على الحق في السر والجهر ، فاما ابو نوح فقد كان ساعيـة دأبه في تنمية الصلاح ، ومحو آثار الفساد بحيث ما كان لا يفتر عن هذا الفن ، وكان مطاعا مسخرا الى القـــوي والضعيف ، والقريب والبعيد من اهل مذهبه وغيرهـــم ، وكان اوسع بضائع حفظه سير اهل الدعوة واخبار السلف فمتى رأيت في هذا الكتاب أو في غيره من كتب المشائخ رواية عن أبي نوح فهو هذا الشيخ فاعرفه . وأما أبـو زكرياء فحدثوني عنه انه كان اكثر حفظا من ابيه ولـه تأليف في المذهب ، وله فضائل مشهورة منها القصيـدة الحجازية . وقصيدة في الاعتقاد ، ومخاطبته الى الفقيـه ابي اسحاق وغيره ، امسكت عن تقييد لك كله اختصارا .

قيام الشيخ باحقاق الحق في وغلانه

وحدثنا بعض تلامذته قال انتقل الشيخ أبـو زكرياء وبعض آله من « تينيسلى » الى « وغلانة » فانزلهم اهـــل وغلانة ، واكرموهم اكراما بليغا ، ووهبوا لهم انـــواع المواهب حتى ملكوهم انواع الاملاك العظيمة من مركوب ومسكن وجنات وعيون ، واكثر ذلك لابي زكرياء وكـان فيها بحلقته على ابر الاحوال ، وكان متى سمع عن احد من اهل قرى اريغ فعلة شنيعة عن فساد أو فعل شيء من الكبائر أو ما يفضى الى الفتنة وتخريب العمار كائنا ذلك ما كان فانه ينهض اليه بالحلقة ، وان احتاج الى عسكر استنهضه حتى يتمكن من الفاعل ، فاذا ثبت ذلك عليه واستحـــق ووجب حد ان قتل قتل ، وان سجن سجن ، وان تعزير بالحد أو النكال انفذ ذلك كله ، قال فلقد كنت في جملة تلامذة

احتفاء اهل وغلاية بالشيخ وقيامه بالعدل والاصلاح

حلقته مرة من المرات ، وكان فى فصل الشتاء وكان البرد فى ذلك العام شديدا ، فنال التلامذة ألمه فآثره بعض اهل الموضع بقطيفة ، فكانوا يتدثرون بها فى الليل فى بيت بالمدرسة ، مكان مبيتهم ، وكان اذ ذاك ببلاد « تنتمرنت » رجل عات من افتك الفتاك ، واشهر الدعار ، فبات التلامذة ليلة من الليالى فنزع عنهم القطيفة ، فقاموا ليدافعوه عنها فأصاب بعضهم بجراحات ، فلما أصبح وقد عرف الفاعل استعظم اهل الموضع ذلك ، فخرج الشيخ وقد بلغت فيه هذه الفعلة مبلغا عظيما لتعديه على غرباء مساكين، منقطعين الى الله ، وكان الفاعل ليس من اهل المذهب وفى بلد ليس فيه احد من اهل المذهب، فاجمع رأي جميعهم على ان يخرجوا بعسكر عظيم وينزلوا على البلد ، ويطلبوا من اهله ان يدفعوا لهم الجانى فان دفعوه لهم ارتحلوا عنهم ، وان أبوا قاتلوهم ، فرحلوا بعسكرهم حتى نزلوا تنتمرنت فدفعوا لهم الجانى وارتحلوا عنها ، فلما صاروا ببعض الطريق ابتدره بعض العبيد فقتلوه .

ميمون بن أحمد المزاتي ويوسف بن أحمد

ومنهم ميمون بن أحمد المزاتي ويوسف بن أحمد الوسيانى رحمهما الله ، كلاهما لخلال الخير جامع ، وقد ألجأهما الى سكنى درجين زمان غير مطاوع ، فكان كل ما حفظاه من المسائل كالضائع ، وان كان أحدهما أكثر حفظا بل الآخر افقه فى الشرائع ، واعلم بالاجوبة المقاطع .

ذكروا ان الشيخ ميمون بن احمد كان ذا فطنة وذكاء ، وعقل وذهن، وكان مصدرا بدرجين من قبل مقدمها مولاهم أبي علي والجماعة ، فكان حكمه عدلا ، وقوله فصلا ، الا انه

طال عمره حتى كف بصره ، فتخلى عن التشديد ، وكـــان يتمنى ان يلقى من يسأله عن المسألة سؤال مستفيد ، فقلما ظفر بسائل ، أو بلقاء عارف ، أو معترف بما أوتى مـــن الفضائـــل .

حدثني ابى رحمه الله قال دخلت حلقة بني درجين وانا صبي قبل ان اكمل حفظ القرآن فكان الشيخ ميمون سببا لتمرني على قراءة الكتاب لانه كان يعظمني اجلالا لوالدى ويخصني بالفوائد ، وذلك انه متى خرج الى المسجد دعاني وقال اقرأ فآخذ الكتاب فاقرأ ، فمتى توقفت في بعض ما يشكل علي قال لى حرك ولا ترهب ، فاذا قرأت حـــرفا فأصبت أو صحفت استحسن ذلك ، وكان يقول لى لما كف بصره اقرأ علي سورة كذا وكذا ، وكان لا يخليني من فائدة وحدثني من لا اتهم عن جدى يخلف انه كان متى حضرته تحفة ذكر عندها الشيخ ميمون وكان يحض على اكرامه ويقول : اكرموا ميمون بن احمد، قد اجتمعت فيه الصفات الثلاث عزيز ذل ، وغني افتقر ، وعالم بين جهال .

واما يوسف بن احمد فلا يبعد ان يكون حامل فقه الى من هو افقه منه ، فانه كان حفاظا ، ولكن لا يحسن التصريف فيما يحفظه .

بلغني ان رجلا من أهل توزر قدم نفطه ثـم حضر الى درجين فطلب مناظرا من أهل مذهبنا ، فيمن ينســب الى التفقه فابرزوا له يوسف فذاكره في مسألة يحفظها سردا فتلعثم فيها ولم يتكلم بفائدة تقنع ، فبلغ ذلك الشيـــخ ميمون فغاظـه واستقبحه ، وقـال : أقدمتم ذلك الجبان لمناظرة المخالف ؟ بئسما فعلتم ، وبئسما فعل ، وكان الشيخ

يوسف كثير الورع والاجتهاد ذا خمول واقتصار ممن يتعلم منه ويستفاد .

أبو الربيع سليمان بن عبد السلام

ومنهم ابو الربيع سليمان بن عبد السلام الوسياني رحمه الله . احد شيوخ الحلق الكبار ، الحافظ للسير والآثار ، المروى عنه التواريخ والاخبار ، لم تفته سيرة لاهل الدعوة في كل الاعصار ، وجملة أوصافه باختصار انك متى وجدت في هذا الكتاب او غيره رواية قديمة عن أبي الربيع فهو راويها عن شيوخه الاخيار .

يخلف بن يخلف وعلى بن يخلف

ومنهم يخلف بن يخلف وابنه علي رحمهما الله . اما الشيخ فعلامة نسابة ، ذو خشوع وانابة ، واجوبة في فنونه معلنات بالاصابة ، وادعية سريعة الاجابة ، وفتوة على ذي الجنابة والغرابة ، يستطيب بذل المعروف كل الاستطاب ان كهم قلمه فاللسان قد حدت الآداب غرابه . واما الابن ففصيح اللسان ، ذكي الجنان ، كثير الاصابة والبيان ، ممن يقلد في فنون الآداب وعلوم الاديان .

مكانة الشيخ يخلف لدى اهل الدعوة وغيرهم

وحدثني من لا اتهم انه كانت جماعة البربر وجماعة العرب من قبائل مختلفة ، ومذاهب مفترقة يقصدون الشيخ يخلف ، فيجتمعون عنده افواجا يقضي بينهم في الجراحات وغيرها ، كلهم راضون بحكمه ، لا يرغب عنه احد لمخالفة مذهبه ، ولا يرد عليه قوله، واما سكان الحاضرة فكانوا مفتقرين الى علمه ، وحدثني ابو عبد الله بن بهلول النفطي قال : ورد بعض الزوار على شيخنا ابي علي حسنون

بن محمد بن عمران النفطى ، قال فأخذ جلساؤه من أهل نفطة فى ذكر مناقب يخلف العزابى وبنيه ، واهل بيته فاوسعوا فى القول والزائر الغريب يستحسن ويستغرب ، حتى قال احد الجلساء للشيخ أترى يا سيدى أنهم يرجى لهم الخير عند الله لهذه الاوصاف ؟ وهم على ذلك المذهب فلم يجبه بغير الصمت ، فقال الزائر للشيخ يا سيدى وما مذهبهم ؟ قال الصلاح ، وانقطع الكلام .

وحدثنى ابو الربيع عن ابيه قال : قبلنا يوما انا والشيخ يخلف من جنته بغابة نفطة فلقينا محمد بن عمران والد ابى على المرابطى فسلم ، وسأل عن الحال ، ثم قال : يا يخلف ما منزلتى عندكم جملة العزابة ؟ قال منزلة مشمش وفشفش يعنى جلوازين حسينين كانا بين يدى قاضى نفطة فاستعظم ذلك لما سمعه وكرهه ، ثم قال بماذا ؟ قال لانك تقول تدخل النار ثم تخرج منها ، وهما يقولان انهما يدخلان النار ثم يخرجان منها فانبسط بعد الانقباض ، فقال اهاهنا عدت ؟ قال نعم ، قال والله انكم لمعذورون وان حجتكم لقاطعة .

وحدثنى ابو الربيع عن ابيه قال لما قفلنا من أرض الحجاز بعد قضاء الحج ووصلنا الاسكندرية وقد قل ما بايدينا فاجمع الرأى على الخروج فى زى هؤلاء المشاة ، لانا لا نقدر على ركوب البحر ، ولا نجد ما نشترى به ابعرة ، فنحمل عليها ، فاقتضى نظر الشيخ ان اشترينا بثمن ما بعناه من ثيابنا ومن فضلة ما بايدينا سقط المتاع كالابر والمسلات وما خف من عطر ، ثم خرجنا متوجهين الى المغرب ونحن نسير فى قبائل الاعراب كل يوم ، فاذا كان فى آخر النهار بعنا فيما والانا من الاحياء بما نقتات به

وقوع الشيخ والركب الذى معه فى ضائقة عند رجوعهم من الحج

من ذلك السقط ، فما خرجنا من برقة الا وقد نفذ الزاد وانقطع الاحياء من طريقنا ، وليس لنا رفيق ولا دليل الا الله تعالى، وقال لنا الشيخ يخلف توكلوا على الله واستخيروه وسيروا ، قال فسرنا فى مهامه لا شيء فيها ، فربما وجدنا من المباح ما نقتات به مما تنبت الارض ، وسلكنا جـرزا لانبات بها وليست بمسلك معتاد لسالك ، فسرنا يومين أو ثلاثة ، وليس منا من ذاق طعاما، فلما كان فى ضحى الثالث او الرابعقام امامنا شيء لونه مخالف للون الحمرة، فتيممناه حتى وقفنا عليه فاذا هو لبنة من جبن عجيب ، قال العزابة ما ترى فى هذا ؟ فقال الشيخ يخلف : ما هذه بأرض عمارة ولا بطريق فنقول لعل له ربا ، وما هذه الا كرامة اكرمكم الله بها ، فاقبلوا كرامته ، ثم تناول ذلك الجبن فقسمـه بخنجر كان عنده على عددنا، ثم تقدم يقطع الارض ، ونحن نتبعه ، وقد اقتات كل واحد منا بنصيبه ، ثم تمادينا نجد السير الى الغد، وقد كدنا نهلكجوعا فشكونا اليه ما اصابنا فاخرج من جيبه ما كان أخذ بالامس فاذا هـو لم يذقه ، فقسمه على عددنا واكل معنا سهمه من هذه القسمة الثانية ثم سرنا غير طويل فلطف الله بنا ووصلنا سا والانا من البلاد على احسن حال ، والحمد لله .

وسمعت جماعة ممن ادركه وممن ادرك مـن ادركه يروون عنه الفاظا من منثور الحكم هو منشئها لـو قيدت صارت دواوين كلها نافعة للدنيا والدين ، وكان ابنه قد اسرع التنقل عن سلوك طريقة المتفحصين الى النظـر فى علوم الدين ، وبقى أصحابه جاعلين شعارهم الاشعـار ، فربما عاتبهم على ذلك وبين ان فى الاستغراق فيها الغر والعار ، وهم يصدون عنه ، ولا يسمعون منه فمنهم الخلف

اشتغال الشيخ بالفقه وميل بعض اصحابه الى اشعار

بن الخلف المنبوز بالزناد الوارجلانى ، وعظه يوما فقال اقلع عن هذه الاشعار فقد اكثرت ، واشتغل بالفقه ، فقال مرتجلا :

دعنى بفقهك يا ابن يخلف اننى
رجل غدا بفوائدى الاشعار

ان التفقه والتنسك والتقى
أنساك ذكر الخرد الابكار

ولا أقول ان هذا فى الزناد مجون أو نقلته مما عبر عنه لسان شجون ، بل انما حنينه الى الادب فجعل له صفات المجون .

مقابلة مع ابن العمودى المتصوف

وكان القاضى عمر بن غزوة النفطى يقول له : ما رأيت مثل على بن يخلف من الناس ، فمن عجيب ما رأيته منه ان أبا القاسم بن العمودى كان من مشائخ المتصوفين قدم من توزر ومعه طلبته ، فاكرمه طلبة نفطة وصوفيتهم وبالغوا فى اكرامه ، فقلت لا ينبغى ان يغيب ابو الحسن على بن العزابى عن مثل هذا الحضور ، فاحضرته وقد حضروا ، فلما رآه ابن العمودى قال لى من هذا الجالس معنا ؟ قلت هذا الفقيه ابو الحسن ابن العزابى ، فقال أهو من الذين يبغظون عليا ؟ فلما قال ذلك رأيت ظلمة حالت بينى وبينه وندمت على الاشتغال باكرامهم أو اذا اشتغلت باكرامه ، لم جنيت على نفسى وعلى صاحبى فما اغنانى واياه عن هذا الحضور ، فلما سمع على منه هذا قال له : من انباك هذا يا شيخ ؟ قال كذا يذكرون عنكم ، قال : فهل رأيت احدا يسمى ولده باسم عدوه ؟ قال لا ، قال كان ابى من فقهاء الوهبية وقد سمانى عليا ، قال ثم اخذ معه فى مذاكرة

تشفى الصدور ، حتى استمال قلبه وملك لبه فجعلت تلك الظلمة تنجلى حتى صرت فى ابتهاج عظيم ، ولم يفترقا حتى قال له ابا الحسن اريد ان لا تفارقنى مدة اقامتى بهذا البلد ، وانفصل ابن العمودى يحمده ويحمد مذهبه .

سفرة الشيخ الى غانه ودخول الاسلام اليها على يده

وحدث جماعة من اصحابنا ان على بن يخلف سافر الى غانة سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، فانتهى الى مدينة «مالى» فاكرمه ملكها غاية الاكرام وكان هذا الملك مشركا وتحته مملكة عظيمة كل اهلها مشركون ، وتحته اثنا عشر معدنا يستخرج منها الذهب التبر ، فكان الملك قلما جلس مجلسا الا اجلسه معه اكراما له ، وكان يتعجب من خلقه وخلقه ، وكثرة عبادته ومحافظته على دينه ، حتى عقد النية على الانفصال وقد قضى حاجته ، وكان ذلك فى سنة قحط شديد فشكت الرعية ما أصابهم الى ملكهم ، فامرهم بالاستسقاء فجعلوا يستسقون ويتقربون بقربانهم التى يعتادونها فى ملتهم ، وذبحوا انواع الحيوان من البقر والغنم والحمير ، حتى الاناسى والسنانير ، فلم يسقوا ، فقال الملك : «لعلى ألا تدعو الاهك الذى تعبد ان يسقينا ؟ فقال له لا يسعنى ذلك وانتم تكفرون به وتعصونه ، وتعبدون غيره ، فان آمنتم به واطعتموه فعلت ذلك ورجوت ان يسقيكم ، فقال له الملك علمنى الاسلام وفرائضه حتى اتابعك عليه ، وتستقى لنا ، .فعلمه كيف يقر بالشهادتين فعلمهما .

ثم قال اصحبنى الى نهر النيل ففعل ، فعلمه كيف يتطهر فتطهر ، ولبس ثيابا طاهرة ورقى به ربوة فوق النيل (1)

(1) لعله يقصد نهرا من انهار غانة كنهر النيجر مثلا لا النيل المعروف فهو بعيد عن غانة

فعلمه الصلاة فصلى ، ثم قال ان انا صليت فافعل ما تراني افعل ، واذا دعوت فقل آمين ، فباتا ليلتهما في عبادتهما وضراعة الى الله عز وجل ، فلما كان بعد صلاة الصبح انشأ الله سبحانه سحابة فما حاولا الانحدار من الربوة حتى حالت السيول بينهما وبين المدينة، فجاءهما زورق في النيل ، فركبا حتى دخلا المدينة ودامت السحابة سبعا غير مقلعة تسيح ليلا ونهارا ، فزادت المؤمن ايمانا واستدعت ايمان الكافر ، فلما رأى الملك صنع الله تعالى دعا جميع أهل بيته الى الاسلام،فاجابوا ثم دعا أهل المدينة فقالوا نحن عبيدك فاجابوا ، ثم دعا من دنا من المدينة من رعيته فأجاب اكثرهم ثم دعا الاقصين فقالوا نحن عبيدك ولك منا الطاعة وتتركنا على ما الفينا عليه اباءنا فسمح لهم ، ثم حكم بان المدينة لا يدخلها الا من آمن بالله ورسوله ومتى رؤى فيها كافر قتل ، ثم قال له علمني القرآن وشرائع الاسلام فجعل يعلمه حتى تعلم جملة ينتفع بها ، فبينما هو عنده في ذلك اذ ورد عليه كتاب ابيه يستدعى منه المجيء ويحجر عليه في الاقامة ، فقال للملك اعلم انى على السفر فقال لا يحل لك ان تتركنا نعود الى العمى بعد ان ابصرتنا دين الهدى ، فقال أعلم ان من فرائض هذا الدين ابرار الوالدين وقد حجر علي والدى المقام ، وهذا كتابه فلما رأى جده احسن منقلبه وانفصل، وبقوا على الاسلام والحمد لله رب العالمين .

ومن عجائب ما يحكى ان يخلف بن يخلف وجماعة من أصحابه صلوا صلاة الصبح بمسجد ربض نفطة فقرأوا ما شاء الله وختموا ، وذلك في يوم من ايام الشتاء فقال لهم على وجه الدعابة والبسط والادلال من يغدينا اليوم

ونوليه الامارة على انفسنا ؟ أومأ الى موسى بن اليـــاس المزاتى ، فقال انا اغديكم ، واكون اميركم ، وكان قريـب عهد بالقدوم من البادية وقد صحبه من غلة غنمه ما يجهز به غداءهم فقام فاحتفل لهم بالغداء ، فلما أكلوا ودعـوا بالبركة ، قال له الشيخ يخلف اما امارتك فلا تمكن فانك واحد منا ، ولكن ان شاء الله سيولد لك ولـد من الحمـل الذى عندكم ، وتسميه افلح على اسم امـــام المسلمين ، ونرجوا ان يكون عنده غنى وتكون فيه بركة ان شاء الله قال رواة هذا الحديث فقدر ان ولد له ولد من ذلك الحمل ، هذا الشيخ المبارك ابو سعيد افلح ، فسرت فيه همة الشيخ يخلف واصحابه ، فكان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكـر مطاعا متبعا فى كل ما تقـــدم فيه من افعال الخير ، فهذا امر شاهدناه عيانا ، الا ترى ان ذلك بفضل الله وبركـة الشيخ واصحابه ؟.

الشيخ سليمان بن علي

ومنهم سليمان بن علي رحمه الله . ذو سخاء ونزاهة نفس وورع ، وكان فرضيا متقنا لمسائل الفروع فى المذهـب ناظما للقريظ الا ان بضاعته من النحو مزجاة ، وان اتسع فى اللغة ، فلذلك قد يوجد فى شعره ما لا يجيزه أهـــل الصناعة ، الا ان اشعاره فى الوعظ قد رويت وانتفع بها وله قصيدة وعظية بلسان البربر ، وهى مقفاة وانها لمن العجائب ، ومن اهم اموره المحافظة على المذهب وله كرامات.

واما سخاؤه فقد قال ابى رحمه الله : كان والدى رحمه الله ذا مال بكنومة من عقار وناض ، فلم يزل مبسوط اليد فيه حتى انفذه ولم يبق لنفسه غير دويرة وبستانين، وكان

ان كانوا اولياء لله فان الله لا يضيعهم

كلما رأوا فيه من كثرة الاضياف وقلة المبالاة بتلف المال لم يعدم ناصحا يقول : ابق لاولادك بقية ، واتق الله فيهم ، فيقول ان يكونوا اولياء الله فان الله لا يضيعهم وان يكونوا غير ذلك فأنا أولى بمالى منهم ، قال وكان دأبه اذا قام من نومه الى صلاة الصبح يقول « اللهم ، أرضنى بما قضيت علي حتى لا احب تعجيل ما اخرت ولا احب تأخير ما عجلت » قال وكان كذلك .

يرفض اعانته ويدعوه ان يقوم بالواجب بنفسه

واما نزاهة نفسه فحدثونى انه لما قل ماله ولم تنقص افعاله أوصاه بياضة بن عزوز وصاية نصيح مشفق ، قال له : يا شيخ ان مالك قد قل ، ومؤونتك قد كثرت ، فهل فى خمسين ويبة تمرا أو مائة شاة من أحمد تكون لك من عندى فى كل عام تستعين بها على اضيافك ، واضياف المسجد ، وضعفاء اهل الدعوة ، فقال له لا والله ان فيما ابقى الله لكفاية أؤدى منها حقوق من ذكرت ولو على عسر ، ولكن اذا كنت فاعلا فقم بحقوقهم كما قام به غيرك ، وتولى ذلك بنفسك . ومالك .

اعتزاله للفتنة والهروب منها

واما ورعه فان وهبية كنومة لما خرجوا منها لمكيدة كانت من نكارتها خرج جدى من البلد يلتحق باخوانه غير معلن فتنة ولا مسعرها ، فقاموا اليه بجمع من أهل الفتنة من النكار ، فقال قائلهم كيف نترك فقيه القوم ينجو وضربوه بل طعنوه طعنة من أراد قتله ، فنجاه الله منهم ، وخرج جريحا وكان معه بعض اصهاره فافلتوه ، واستحوذوا على دور الوهبية فلم يدعوا فيها شيئا الا انتهبوه ، وكانوا قد اصابوا له ذخرا كثيرا ، أفلا ترى أنهم قد أذوه فى النفس والحصن والمال والآل ؟ ومع ذلك

فلم يكن منه الى احد منهم اذى فى شيء من الاشياء قبـــل الفتنة ولا بعدها .

واما نظمه فقد سمعته من أبى وامتنع ان يروى لي شيئا من شعر ابيه أو شعر نفسه ، فانه كان يقول لى انت اشعر منى وانا اشعر من ابى ، وحدثونى ان رجلا جاء الى جماعة فى «كنومة» بعد موته فشكا علة مزمنة اشرفت به على الموت لا يدرى ما هي ، ولم يدع علاجا الا عالجها فلم يجد الشفاء فقال له رجل منهم هلم بثلاث بيضات من بيض الدجـاج فأتاه بها ، فقال له : اذا كان الغد فجئنى فقال له اطبـخ هذه البيضات فى ثلاثة ايام كل يوم واحدة وكلها متواليات كل صباح واحدة ، وفعل الرجل العليل ما امره به فبرئى بأذن الله فى اسرع وقت ، فجعلوا يتعجبون ، ثم سألـوا الرجل العالج ما زدت فى البيضة من الخصائص ؟ فقال ما زدت فيها شيئا ، غير انى رأيت علة اعيت الاطباء فعلمت انها لا تبرأ الا بمنة من الله الذى ابتلاه ، فناجتنى نفسى ان اتوسل الى الله ببعض أوليائه فخرجت الى قبر سليمان العزابى فلما كان الصباح استخرجتها فكان فيها ما رأيت من البركة .

ومما حدثنى به ابى عنه رحمهما الله ان اهل قـــرى « تقيوس » كانوا يعمرون جنات غابتهم بالمناصفة ، فيكون لهم النصف من تمرتها وللسلطان النصف، ثم يودون العشر من النصف فكانوا بذلك فى ضيق شديد ، وكان كل واحد منهم يحتال فيما يتخلص به من ذلك قبل امتداد يد عامل السلطان ، ولما كان سنة من السنين خـرج الخراصون الى « تقيوس » يخرصون التمر فلما قربوا من جنـة الشيخ وعلى انهم يدخلونها بعد غد وكان ذلك يوم الجمعة ، فتقدم

الشيخ الى الخدام فقال اريد تخفيف ما قدرنا عليه لنسلم من ان يخرص علينا ، فجعلوا يقتلعون العراجين من كل نخلة نصف غلتها والثلث والربع على حسب ما يأمنون غائلة العامل ، فلما جمعوا ما أرادوا جمعه من التمر وجعلوا يحتالون فى تنقيله حتى يدخلوه البلد ليلا اذا بالخراصين قد دخلوا من طرف الجنة ، لانهم قالوا نريد ان نخرص هذه الجنة ونطلع لئلا تفوتنا صلاة الجمعة ، فلما رآهم وبين ايديهم كدس عظيم يراه الاعمش عن بعد فخاف ما يخاف امثاله ، وقال ، «اللهم لا تفضح شيبتى» قال فوالله لقد اجتازوا الى الجنة وخرصوا ثمرها فاعماهم الله عن الكدس فلم يروه ولا خرصوا النخل التى هو فيها ، فقال اما الآن فنرفع ثمرنا علانية والحمد لله رب العالمين .

يوسف بن سدميمان

ومنهم يوسف بن سدميمان رحمه الله . من المعدودين فى القوامين بالليل ، والصوامين بالقيل ، والداعين المستجابين المصيبين والصابرين وان كانوا مصابين ، حدث أبي رحمه الله قال كان هذا الشيخ آخر اشياخ اهل الدعوة من اهل « دقاش » يعنى منزله من قرى (تقيوس) وكان في آخر عمره قد اصيب بصره ، وقل ماله فلم يزدد بذلك الا رضى بقضاء الله ، واجتهادا فى طاعته ، وكان الزوار يقصدونه من كل ناحية تبركا به ، قال فقصده يوما عزابة كنومة يزورونه وفيهم أخى محمد ، وكان حدثا ، وذلك بعد وفاة ابيه ، قال محمد : فدخلنا عليه فصافحناه وسلمنا عليه ، وقال للعزابة من هذا معكم اسمع صوته ولا اعرفه ؟ قالوا له ان هذا من أولاد الشيخ سليمان قال ثم بكى عند ذلك ، وقال الي يا ابن الحبيب ثم انشد متمثلا :

كانهم لـــم يكـــونـــوا عارفـــين بنـــا
ولـــم نكـــن لهـــم بالامس اخـــوانا

قال ثم أورد علينا من المواعظ والحكم والامثال ، ما لم أسمعه من احد قبله ولا في حلقة من الحلق .

الشيـخ يـابى من اكل المـال المـراب

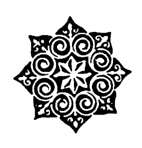
وحدثنا أبو الربيع ان يوسف بن سدميمان ســار من درجين يريد توزر فصحب ناسا من العرب فكانوا في ابلهم ووجدوا في الطريق خصبا عظيما لم تسمح نفوسهم بان يتجاوزوه ولم ترعه ابلهم ، فساروا ثلاثة ايام بين نفطـة وتوزر ، قال والشيخ معهم لم يذق طعامهم ولا شرابهـم ، قال فلم يدخل توزر الا وقد أذاه الجوع والعطش، فكان أول من لقي بها جماعة من اهل درجين فرغبوا اليه ان يتغدى معهم ، وقد عرفوا ما دلهم على شدة ما ناله من الجوع ، قال ومعهم صرة ينفقون منها ويقضون بها حوائجهم فأخذوا منها ما اشتروا به غداءهم وغداء الشيخ فأكلوا ودعا لهم بالبركة وانصرف الى تقيوس ، قال الدرجينيون فاقمنـا أياما ننفق من تلك الصرة ونقضي منها حوائجنا وخرجنا من توزر والصرة بحالها لم ينتقص منها شيء . والحمد لله رب العالمـين .

تم كتاب الطبقات بحمد الله العظيم

وحســن عونه الكريم والله الموفق

فهرس العناوين والمواضيع الواردة فى الجزء الثانى
من كتـاب الطبقـات

الطبقة العاشرة 450 ـ 500 هـ



فهرس الاسماء والاعلام الواردة
فى الجزء الثانى من كتاب الطبقات

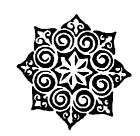
- ش -

- ص -

- ض -

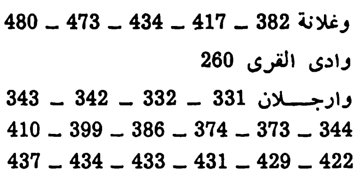
- ع -

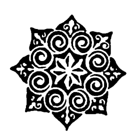
ـ ن ـ



فهرس اسماء القبائل والاماكن الواردة
فى الجزء الثانى من كتاب الطبقات

- و -





جـــدول التصـــويبات

رغم اجتهادنا فى اصلاح الاخطاء فقد بقى البعض ننبه اليه القارىء فيما يلى : ورد اسم مدينة قنطرار بالراء وبالنون قنطنار احيانا ، مما تعذر على تحقيق اسمها ، وافادنى بعض المشائخ انها بالراء على المتداول.

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
II	7	ابو فاره ابراهيم	ابو فاره محمد بن ابراهيم
ح	13	وبينك	وبينك
11	22	مولى بن العباس	مولى بن عباس
12	21	ثم ليعمن	ثم ليعمين
15	7	حثو المطى	حثوا المطى
23	17	قد علمتوه	قد علمتموه
82	9	فاملأ السفر	فاملى السفر
89	12	وكان فى القتى	وكان فى القتلى
90	25	ثمانين رجل	ثمانين رجلا
97	6	فى ابتداء اشغالهما	فى ابتداء اشتغالهما
106	12	ومدارستهما	ومدارستها
106	22	مستنشعة	مستشنعة
114	13	ان يجلد فى كتاب	ان يخلد فى كتاب
113	5	وتعلثم	وتلعثم
116	22	احداهما	احداها
118	1	وحرصها	وحـرصا

السطر	الصحيفة	الخطأ	الصواب
120	22	مذكرة الطلبة	مذاكرة الطلبة
125	7	الى القاسم	الى أبى القاسم
126	3	واذا ادفعوه	واذا دفعوه
127	16	فازدادوا حنقا	فازداد حنقا
128	18	بتفيوس	بتقيوس
130	20	واورجلان	ووارجلان
131	19	جلدا وشامه	جلدا وشهامة
139	18	الانتهاء فيه	الانتهاء فيها
140	18	ومفرق سهمه	ومفوق سهمه
153	19	ولم يثبوا	ولم يثبتوا
154	5	فلما أبطوا	فلما ابطأوا
162	17	هذه احد	هذه احدى
166	22	العمل بعد الموت	العمل لما بعد الموت
169	3	قصرت عليهم الخطا	قصرت عليهم الخطى
173	20	عابر السبيل في عونه	عابر السبيل فى كونه
178	14	على ما فعلنا	على ما فصلنا
186	16	وكان طريقة	وكان طريقه
194	15	قطعتين مملوءتين	قصعتين مملوءتين
479	14	احذروا غمض الحق وتغميضه	احذروا غمص الحق وتغميصه
	حيث وردت	بنى ويليل	بنى وليل